١٠٠ قصة

قصص منوّعة

روسية - إنجليزية - فرنسية

محمد السباعي



قصص منوعة

روسية ـ إنجليزية ـ فرنسية



١٠٠ قصة

قصص منوّعة

روسية ـ إنجليزية ـ فرنسية

محمد السباعي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي ـ الفجالة



جهاز العروس

(للقصصى الروسى أنطون تشيكوف)

كم رأيت فى حياتى من منازل ، وكم شهدت فى زمانى من بيوت ودور ، منها الصغير ومنها الكبير ، وفيها المغانى الجديدة والربوع العتيقة ، وبينها القائمة من خشب والمبنية بالقرميد . وقد ذهبت أولئك جميعا من ذاكرتى إلا بيتا واحدا منها لا تزال صورته مرتسمة على صفحة خاطرى ماثلة إلى اليوم .

ذلكم بيت هو أدنى إلى الكوخ منه إلى القصر لأنه مؤلف من طبقة واحدة ذات ثلاث نوافذ غريبة الشكل كأنها عجائز محدودبات الظهور مطأطئات الرءوس . وهو قائم بجدرانه البيض وسطحه المرصوف بالطوب ومدخنته المتداعية المترنحة فى وسط مرج ناضر ورحاب معشبة ، وقد تكنفته السرحات العالية وأحاطت به الأشجار الباسقة زرعها أصحابها الأقدمون وأجداد سكانه الحاليين .

ولا يذهبن بكم الظن إلى أن البيت الذى أصفه هو من بيوت الريف ، كلا ، إنما هو من منازل الحضر يقوم بجواره صف من الدور فى بلد آهل وشارع مهجور .

ولست أحسب نوافذه فتحت يوما من الأيام ، فقد ظلت أبدا مغلقة المصاريع لأن أصحابه لا يعبأون بضياء الشمس ولا يحفلون بالنور ، ولم يخطر يوما ببالهم أن يفتحوا زجاجها لأنهم لا يحبون الهواء النقى ولا يفكرون فى النسيم ولا يهتمون بالريح .

ولا غرو فإن الذين يقضون العمر وسط الأشجار وفى أحضان الطبيعة لا يحبونها ، ولا يقيمون لجمالها وزنا ولا يعرفون لها حسنا ولا يحسون لها فتونا .. وما عشاق الطبيعة إلا روادها إذا الربيع حل ، وزوار غياضها ومروجها إذا

الصيف أقبل . وأولئك أنعم الله عليهم برقة الحس وحباهم بلطف الشعور ، وخلق لهم العين المنهومة بالحسن والأنف يطلب أقصى غاية الطيب .. ومن خلاهم من أهل الدنيا يعيشون فى جهل مطبق ، ولا يشعرون بما حولهم من جمال الطبيعة وزيناتها الوضيئة وزخارفها البهية الباهرة .

ولا بدع فى غفلة الناس عن الطبيعة ومشاهدها ومحاسنها ومفاتنها ، لأنهم لا يقدرون الشئ المألوف ولا يعجبون بالمعتاد لديهم . وكل ما تملكه النفس تزهده ، وما تحرم منه تتلهف عليه ، سنة الله التى خلت فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فلا عجب إذن إذا كان ذلك البيت قائما فى روضة أنف ، وشجر مختلف ، ومرج ناضر ، والطير على الأفنان شاد أبدا مترنم ، وهو من الداخل .. يا للأسف ، موبوء كريه لا يحتمل ولا يطاق .. فى الصيف يخنق جوه المحبوس الأنفاس ويزهق الأرواح . وفى الشتاء حار دافئ مكتوم كالحمامات التركية لا تهب فى جنباته أنفاس الهواء ، واجم مكفهر لا تخطف فى أرجائه لمعة من ضياء .

كان أول عهدى بزيارة ذلك البيت منذ عدة سنين ، وقد ذهبت إليه فى مهمة خاصة إذ حملت من الكولونيل رب البيت ووارثه رسالة إلى زوجته وابنته .

ولا أزال ذاكرا ما جرى فى تلك الزيارة تماما ، وكيف أنساه وما تلاه أدعى إلى ذكره آخر الحياة ..

ألا تصور امرأة صغيرة البدن عرجاء ناهزت الأربعين ، قد وقفت تنظر إليك برعب وترمقك بدهشة وأنت مجتاز الردهة إلى قاعة الاستقبال ، يا عجبا ! .. هذا غريب عن الدار أجنبى عن سكانها .. شاب فى ريعان الشباب .. صفات كافية وحدها لإرعابها وإثارة دهشتها ، ولكنك لست مسلحا بخنجر ولا مسدس ولا عصا ولا مدية ، بل أنت تمشى إليها مبتسما متلطفا متوددا .. ومع ذلك كله لا تزال مرعبة تتلقاك موجسة خيفة ، وتنظر إليك مبهوتة حائرة ..

وإذا هى تسأل بصوت راعش : من الزائر الكريم الذى تشرفنا اليوم بزيارته ؟

فعرفتها بنفسى وأنبأتها بمهمتى ، وإذا بها تهللت من بعد رعب وأشرق

وجهها من بعد وجوم ، وأرسلت آهة فرح من صدرها ، ورفعت عينيها إلى السقف ورنت آهتها في جوانب الحجرة ، وانتقلت أصداؤها إلى الردهة والمطبخ ، ومن المطبخ سرت إلى أرجاء البيت وأركانه وإذا البيت يتجاوب بصداها الداوى المتردد . وما هى إلا لحظات أخرى حتى رأيتنى جالسا فى قاعة الاستقبال على متكأ رحيب وثير مصغيا إلى دوى تلك الآهة فى الشارع . وشعرت برائحة العفونة والدخان فى الحجرة ، وتصاعدت إلى أنفى رائحة حذاء من جلد الماعز فتلفت لأرى أين ذلك الحذاء . فإذا ثم زوج من الأحذية موضوع فوق مقعد بجانبى ملفف فى غطاء ، وعلى النوافذ رأيت أستارا من الحرير قد تجمع عليها الذباب كتائب وصفوفا ، وعلى الجدار أبصرت صورة زيتية لأحد الأساقفة وقد تحطم زجاج إطارها . وبجانب الأسقف صور الآباء والأجداد فى تلك الأسرة وقد بدت وجوههم ليمونية اللون ، وأشكالهم غجرية ثورية .

وعلى النضد شاهدت إبرة طويلة وبكرة من القطن وجوربا لم يتم نسجه . ونماذج ورقية للتفصيل عليها ، وثوبا من الخز وقد كوست هذه جميعا على المنضدة كومة واحدة .

وفى الحجرة الأخرى كانت عجوزان تهرولان فى جوانبها ملتقطتين نماذج للتفصيل ملقاة على الأرض ، وقطعا من الطباشير الذى يستعمله الخياطون فى تعليم الثياب . وانثنت السيدة نحوى تقول : أرجو أن تسامحنا يا سيدى فإن البيت كما ترى لا نظام فيه ! وجعلت فى خلال حديثنا تختلس النظرات إلى الحجرة الأخرى وهى قلقة مضطربة . وكان الباب كذلك قلقا مضطربا إذ جعل يتحرك قليلا ثم يسكن وينفتح ثم ينقفل . فالتفتت السيدة صوبه أخيرا وقالت كأنما تخاطبه : ما الحكاية ؟ وإذا بصوت رقيق لدى الباب يقول بالفرنسية : أين ربطة العنق التى أرسلها إلىّ أبى من « كروسك » ؟

فأجابتها محدثتى قائلة : أهذه أنت يا مارى ؟ .. ألا ترين أن لدينا الساعة رجلا لم نعرفه من قبل ؟ ...اسألى لوكيريا ...

وقرأت فى عين السيدة أسطر الفرح والزهو كأنما تريد أن تقول : ألا ترين كيف نحسن الكلام بالفرنسية على ما نحن فيه ؟

وما لبث أن فتح الباب وأقبلت فتاة مرهفة القد فى التاسعة عشرة ترتدى ثوبا ضافيا من الحرير ، متمنطقة بحزام مذهب تتدلى منه مروحة من الصدف .

وجاءت نحونا فحيت وهى محمرة الوجه من فرط الخجل وقد علا الاحمرار أنفها المستطيل المنقر بالجدرى . ثم ما لبث الاحمرار أن سرى إلى عينيها وجبينها .

وقالت السيدة : هذه ابنتى . والتفتت إلى ابنتها قائلة : وهذا يا « نيتشكا » هو الذى قدم .. الخ . ولما تم التعارف وذهب الروع عن السيدة وابنتها . وهدأ ما بى عند وصولى ورحنا نتجاذب أطراف الحديث ، لم أكتم دهشتى من كثرة ما رأيت من النماذج الورقية فى الحجرتين . فنكست السيدة طرفها وأطرقت الفتاة مستحيية .

وأنشأت الأم تقول : لقد كانت لدينا فى البلدة سوق منذ أيام تقام عادة فى يوم عيد الصعود . وقد جرت عادتنا على أن نشترى حوائجنا منها فى كل عام فنظل نشتغل فى الخياطة والنسج حتى يدور العام وتقوم السوق التالية . لأننا لا ندفع بأقمشتنا إلى الحائكات فإن فى ذلك كلفة باهظة ، وراتب زوجى قليل لا يكفينا ولا يعيننا على ترف ، فلا حيلة لنا غير العمل بأيدينا قصدا فى النفقة .

قلت : ولكن لمن كل هذه الثياب وأنتما فى البيت لا أكثر .. ؟

قالت : أوتحسب يا سيدى أننا نصطنعها جميعا لنرتديها ؟ . إنها ثياب لا تحاك للبس ، هذه بعض ثياب الجهاز .

وهنا تضرج وجه الفتاة بحمرة الحياء ، وانثنت من فرط الخجل تقول : ما هذا الكلام يا أماه .. ؟ ألا تخشين أن يصدق ما تقولين ؟ .. إننى لن أتزوج فى حياتى إذ لا نية لى فى الزواج ولا غرض ..

قالت ذلك وإن كانت عيناها برقتا أغرب بريق وهى تتلفظ بكلمة الزواج ..

وجئ بطعام من بقسماط وزبد ومربى وفاكهة فأكلنا . وفى العشاء جلسنا على الخوان ، وفيما نحن ماضون فى تناول طعامنا إذ سمعت تثاؤبا مرتفعا من الحجرة المجاورة فدهشت لها ، إذ أدركنا أنها لا تكون إلا من حنجرة رجل .

ولاحظت السيدة دهشتى فقالت : هو سلفى شقيق زوجى « إيجورسيمونتش » وقد نزل عندنا فى العام الماضى . فأرجو يا سيدى أن تعفيه من الجلوس معنا لأنه مخلوق نافر لا يسكن إلى عشرة الناس ، ولا يرتاح إلى معرفة الغرباء . وقد عزم على الذهاب وسيذهب للمقام فى أحد الأديرة ، وكان جنديا فى الجيش فلم يصب حظا حسنا وإنما أصاب فى خدمته العسكرية ظلما ورهقا فأثر ذلك فى عقله قليلا !

وبعد فراغنا من العشاء جاءتنى السيدة بالصدار الذى كان « إيجور » يطرزه بيده نذرا منه للكنيسة . وراحت « مانيتشكا » الصغيرة تخرج رويدا عن حيائها ، ومضت ترينى محفظة التبغ التى طرزها لإهدائها إلى أبيها ، ولما أظهرت لها إعجابى بتطريزها اصطبغ خداها بأرجوان الخجل ، وانثنت تهمس فى أذن أمها فلم تلبث هذه أن تهللت سرورا بما سمعت من ابنتها . ودعتنى إلى الذهاب معها لمشاهدة حجرة الثياب ، ونهضت فى أثرهما وإذا بنا فى غرفة ملأى بالحقائب والجعب والصناديق . وأقبلت السيدة تهمس لى فى أذنى قائلة : هذا هو الجهاز وقد صنعناه كله بأيدينا .

وبعد أن انتهيت من مشاهدة هذا المنظر العجيب ، استأذنت من مضيفتى الكريمة فاستوعدتنى المجئ فى فرصة أخرى لزيارتهما .

وقضى الله أن أبر بوعدى بعد سبعة أعوام ، وكنت قد نزلت بذلك الموضع لتأدية الشهادة فى إحدى القضايا المعروضة على المحكمة المركزية فى تلك الجهات .

ولما وصلت إلى البيت المعهود تلقفتنى الآهة التى سمعتها أول مرة ، وقد عادت تدوى فى أرجائه وترسل صداها يتردد فى جوانبه . وعرفنى أهل الدار فى الحال ، ولا عجب فإن زيارتى الأولى كانت فى نظرهم حادثا غريبا غير مألوف فى ذلك البيت ..

ومشيت إلى قاعة الاستقبال فإذا السيدة قد عادت على السنين مترهلة قليلا وقد وخط الشيب رأسها ، وهى مكبة على الأرض تقطع بالمقص قماشا أزرق اللون ، أما الفتاة فقد ألفيتها على المتكأ جالسة تطرز .

وشاهدت القاعة كما رأيتها من قبل لم يتبدل ثم شيء ولم يتغير ، والرائحة تنبعث كما كانت ، والذباب يرقد على الأستار كما رقد ، والنماذج منثورة فى أرجائها ، والأقمشة مركونة على مقاعدها ، ولكن هناك شئ جديد لم أتبينه في أول وهلة .. لقد رأيت بجانب صورة الأسقف صورة الكولونيل .. وكانت الأم وابنتها متشحتين بثياب الحداد . وا أسفاه لقد كانت وفاة الكولونيل عقب ترقيته إلى رتبة جنرال بأسبوع واحد ! وأهاج سؤالى الذكريات فأجهشت الأرملة بدمع صبيب . قالت : لقد خسرنا به كنزنا الغالى ورجلنا الأوحد ، وقد بتنا وحيدتين فى هذا العالم لا نصير لنا ولا معين . نعم إن « إيجور » لا يزال حيا ولكن حياة الشؤم يا سيدى . فقد رفضوا السماح له بدخول الدير بحجة ..ماذا أقول ؟ بحجة إدمانه الشراب ، وهذا اليوم أشد إلحاحا على الكأس وأشنع شربا وأفظع عربدة من فرط الحزن والخيبة المرة ، وقد خطر لى أن أذهب إلى مأمور المركز لأرفع إليه الشكوى من أفعاله معنا . هل تتصور بالله عليك أنه تسلل أكثر من مرة إلى الحقائب فكسر أقفالها ونهب ما فيها من جهاز البنت فباعه ليصيب منه ثمن كئوسه وقد نفد ما كان فى حقيبتين منها ، ولو استمرت الحال على هذا المنوال فستحرم ابنتى « مانيتشكا » من جهازها ! فارتبكت « مانيتشكا » واستحيت قائلة : ما هذا الكلام يا أماه ؟ ..إن زائرنا قد يظن ... ولكنى لن أتزوج آخر الحياة ..

ورفعت بصرها إلى السقف وفى عينيها بريق الأمل والرجاء ، ولعلها لم تكن تصدق كلمة واحدة مما كانت تزعم .

وفى تلك اللحظة مرق من الردهة شبح رجل صغير الجثة أصلع فى رداء أسود حافى القدمين ، وانفلت من أمامنا انفلاتة الجرذ .

قلت : أحسبه « إيجور سيمونتش » أليس كذلك ؟ ورنوت إلى الأم وابنتها فإذا هما قد كبرتا وتغيرتا عما كانتا يوم رأيتهما أول مرة ، وقد اشتعل رأس الأم شيبا وذبلت الفتاة وذوت غضارتها فمن شهدها ظن أنها شقيقة أمها ، وخال هذه لا تزيد عنها فى العمر إلا بضع سنين .

وعادت السيدة تقول لى ناسية أنها قد فرغت من ذلك النبأ : « لقد خطر

لى أن أذهب إلى مأمور المركز لأشكو إليه ما فعله بنا « إيجورسيمونتش » فإن أكثر ما يستلبه من جهاز هذه البنية يوزعه صدقات على المتسولين ، قربانا لله وتخليصا لنفسه الخاطئة . وستصبح « مانيتشكا » بلا جهاز آخر الأمر ! » .

فعلا الخجل وجه ابنتها ولكنها لم تقل فى هذه المرة شيئا .

واستأنفت أمها تقول : ونحن مضطرتان إلى خياطة جهاز جديد ، ولكن من أين لنا بالأقمشة ونحن يعلم الله فى حال سوأى وقد فقدنا العائل والنصير !

ورددت « سانيشكا » كلمة أمها قائلة : نعم واحسرتاه ، لقد فقدنا العائل والنصير

ومنذ عام مضى قادتنى المصادفة مرة أخرى إلى ذلك البيت ، وفيما كنت أجتاز الردهة أبصرت السيدة العجوز فإذا بها جالسة فى ركن تخيط ثوبا بين يديها وقد جلس بجانبها الرجل العجوز القزم ذو الرداء الأسود ، ولكنه كان منتعلا فى هذه المرة ولم يكن حافيا ، ولم يكد يرانى حتى قام من مجلسه فمرق من الحجرة هاربا .

وتلقت السيدة تحيتى بابتسام ، وانثنت تقول بالفرنسية : أهلا وسهلا بك يا سيدى ..

قلت بعد سكتة طويلة : ما هذا الذى تصنعين الآن يا سيدتى ؟ ..

قالت : هذه حلة ، فإذا فرغت من خياطتها ذهبت إلى القسيس ليصونها عنده وإلا حملها إيجور » وطار بها ، فقد اعتدت من زمن أن أصون ما أحيك من الثياب عند القسيس .

ونظرت العجوز إلى صورة ابنتها الملقاة أمامها على المنضدة ، فزفرت زفرة حارة وانثنت تقول : لقد أصبحنا فى وحدة أليمة فى هذا العالم الآهل بناسه .

ولكن أين ابنتها .. أين « مانيتشكا » ؟

ذلك ما خطر لى أن أسال عنه ولكنى أمسكت فلم أسأل .. وا أسفاه .. لم تأت « مانيتشكا » لتحيينى ولم أبصر « مانيتشكا » عند خروجى ولم أسمع صوتها ولا وقع قدميها الخفيفتين المتهيبتين .. وا حسرتا .. لقد أدركت ما جرى فانصرفت حزين القلب موجعا ..

لعل القارىء قد أدرك من تلقاء نفسه أن « مانيتشكا » قد ماتت .

المغناطيس الحي

لقد فرحت لموته يوم بلغتني منعاته ، نعم والله لقد فرحت له إذ مات ، وهدأ بالى من أمره إذ ذهب من هذا العالم ورحل ، وقد خلتنى مرة أخرى وبحاسة رعب غريب لا يوصف ، أراه أمامى رأى العين كآخر عهدى به ، مديد القد بادى النشاط غريب الأطوار مدهش الأفكار ، وقد شاخ قبل أوانه وهرم وهو فى ريعانه . وكان صديقى هذا ناحل اليدين مقوس الظهر قليلا ، اشتد سواد عينيه حتى لا تكاد الأنظار تميز منهما الحدقتين ، وله نظرات مراض ساحرات مذهلات . بل كان مخلوقا مزعجا فى الحق مقلقا أكثر ما يبدو فى ثورة نفسانية وقلق جثمانى واضطراب بدنى ، فإذا اجتمع بإنسان من خلق الله وهو بهذه الحالة سرت هذه العوارض العجيبة إلى هذا الشخص وبدت كذلك عليه ، ولو صح أن هناك قوما من أهل هذه الدنيا قد أودعت الطبيعة فيهم شيئا من القوى الخارقة للمألوف ، فقد كان صاحبى ذاك أحد أولئك . وكانت له عادة غريبة « ولازمة » عجيبة تكاد تكون جنونا عنده أو شبه جنون ، وهى إخفاء يديه عن أنظار الناس . وكانتا فى الواقع مستطيلتين معروقتين ناحلتين ينبو عنهما النظر ، ولم يكن يتناول بهما الأشياء أو يلعب الورق أو يضرب البيانو أو يوقع على العيدان أو يتناول المزاهر أو يؤدى عملا ما يكشف منظر كفيه القبيحتين وإنما اعتاد أن يشبك ذراعيه على صدره أو يدس يديه أبدا فى جيبه ، وأحسبه كان يخشى أن يفرط منهما عمل أو تبدو منهما حركة فجائية ، على الرغم من إرادته المهيمنة عليهما المشتدة فى إخفائهما عن الأنظار .

وكنت فى حيرة من ذلك لا أدرى ما السبب فى هذا التشدد على نفسه ، وما سر هذه العادة الشاذة المستغربة حتى عرفت ما كنت جاهله .. فى ذات مساء وكان قد جاء لقضاء بضعة أيام عندى فى الريف ، فوجدته على غير

ما كنت أعرف عنه متفتحا للحديث لا بالمتكتم ولا بالمطيل صمتا ..

وكان النهار شديد اللوافح قائظا ، فلما حل المساء أخذت العاصفة تهب مزمجرة وتطبق على الفضاء سوداء خافتة ، ثم سكتت أنفاس الهواء وزمت الجو وركدت الرياح ، وراحت أنفاسنا تلهث فى فضاء مكتوم وجو خانق ، ولم ألبث أن شعرت باضطراب عصبى غريب ففضلت الذهاب إلى فراشى لاستريح ، ولكن صديقى لم يكد يرانى أهم بالنهوض من مجلسى للانصراف إلى سريرى ، حتى أمسك بذراعى وقد عراه الخوف وبدا عليه الرعب .

قال : إلى أين .. ؟ بالله عليك تجلس قليلا !

فنظرت إليه مندهشا وقلت : ولكن أعصابى مضطربة من هذه الكتمة التى تخنق الأنفاس وتضيق منها الصدور . !

فصاح بى قائلا : وهذا عين ما أشعر به أيضا ، فهلا جلست إذ لست أريد أن أمكث هنا وحدى !

ولاحت على وجهه أمارات رعب غريب . قلت من عجب : ماذا جرى لك فإنى أراك متغير الوجه ؟

قال : إننى خائف ! ولكن هذا الجو يعترينى دائما فى الليالى المتكهربة كليلتنا هذه ..ألا ترى أننى قد أوتيت من الطبيعة قوة ، أو قل سلطة أو تأثيرا شديدا .. أو .. لست أدرى كيف أصف لك ما أوتيته تماما .. إن بى قوة مغناطيسية أنا أبداً منها الخائف الوجل ! نعم .. نعم .. أنا الساعة خائف من نفسى مرتعش رعبا .. !

وراح يخفى يديه تحت ردائه .

وإذا بى فجأة أشعر بخوف قد دب إلى نفسى ولا أدرى له سببا . ورأيتنى أرعش رعبا ولا أعلم ما الباعث ، وأريد الفرار منه فى وجلة الطفل الفزع الخائف . ووجدتنى مرتبكا مضطربا حيال نظراته المتسللة نحوى ، النافذة إلى أعماق نفسى .

قلت متلعثما : يا للعجب ! .. ولكنك لم تخبرنى بهذا من قبل ..

قال : هل كنت تظن أننى مستطيع أن أتحدث به إلى أحد من الناس ؟ ولكنى الليلة أرانى مندفعا إلى الكلام على الرغم منى ، لأننى أريد أن أكاشفك بحالتى لعلك كافل لى بعض المعونة على ما بى .. فهل تعرف ما هو المغناطيس أو ما يسميه الناس الجاذبية . ؟ ولكن علام السؤال ولا أظنك أنت ولا سواك تعرفون عنها شيئا ،وإن كنتم تعترفون بوجودها ولا تنكرون أنها فى الدنيا سلطانها ، وقد أيد ذلك أستاذ من أكبر أساتذة الطب الحديث وهو العلامة « شاركوه » ، إذ قال إن هناك قوة مجهولة يؤتاها الشخص منا فيستطيع تنويم سواه بلا أدنى تعب . فإذا أنامه على هذه الصورة استطاع أن يسلبه إرادته وفكره بالسهولة التى يسلبه كيس نقوده ، بل فى ميسور المنوم أن يكشف خافية النفس وهى الملجأ الذى نفزع إليه لإخفاء أسرارنا وكتمان خوالج شعورنا ، وفى استطاعته أن يهتك الحجب عنها فيخرجها من مكامنها وينتزعها من مخابئها ليذيعها على الناس ويعلنها للملأ .. وهو أمر يلوح لك ولى وللناس جميعا قاس فظيع سيء النتائج ! لذلك نتساءل ، وكيف يحدث هذا ، ولماذا يكون ؟ ثم لا نجد جوابا .. إنه سر مجهول لم تكشف عنه الإنسانية الستار بعد ، ونحن لا نعرف من أسرار هذا الكون غير النزر اليسير يبدو لنا من طريق حواسنا الناقصة المضطربة البليدة ، بل هذه الحواس التى تبلغ منها البلادة فى بعض الأحيان كل مبلغ ، حتى لا تكاد ترى المرئيات الظاهرة ولا تميز المحسات الملموسة .

خبرنى بالله عليك ما سر الموسيقى مثلا ؟ إنك لا تعرف سرها أليس كذلك ؟ .. إذن دعنى أشرحها لك .. فاسمع .. بمجرد تماس جسمين منفصلين يتذبذب الهواء ، وتختلف قوة هذه الذبذبة وسرعتها باختلاف طبيعة الصدمة ونوع التماس . وفى داخل الأذن كما تعلم طبلة دقيقة هى التى تحدث هذه الموسيقى بتحويل الحركة إلى صوت ، كما كانوا من زمان يحيلون الماء بالمعجزة خمرا .

إن الموسيقى هواء يستحيل بفضل هذا الغشاء الرقيق إلى لحن عذب وغناء ، وحولنا فى هذا الكون العجيب أشياء كنا مستطيعين أن نفهمها لو أن لنا

الأعضاء الخاصة اللازمة لفهمها ، والمغناطيسية أحد هذه الأشياء ، وهي سر جديد من أسرار الطبيعة التي أعيت الباحثين والحكماء . أما من ناحيتي أنا فقد وهبتني الطبيعة قوة مخيفة مدهشة ، وهي حين تغمرني وتسري في نواحي بدني لا ألبث أن أستحيل إلى إنسان آخر في باطن هذا الإنسان ، أي أروح شخصية مزدوجة ، ويروح هو ، أو ذلك الإنسان الآخر ، أقوى مني وأعظم وأغلب كما هي الحال الليلة ، لأنه يعتصر قوتي اعتصارا ، أو يهد نفسي هدا ، ويشتد بي اشتدادا ، وكذلك تراني أدفع الثمن الغالي مقابل هذه الموهبة العجيبة التي منحتنيها الطبيعة . وفي بعض الأحيان لا تحين مني نظرة خاطفة إلى أحد المارة أو الذين يجلسون قبالتي إلا ويشعر الذين أنظر إليهم بتخدير عظيم يسري في أعصابهم كأنما تعاطوا عقارا مسكرا ، أو تناولوا مخدرا . فإذا مددت يدي حدثت ظاهرة عجيبة وظهرت أمور مدهشات رهيبة ، ولست بقوتي هذه متسلطا على المخلوقات البشرية فحسب ، ولكنها تؤثر أيضا في عالم الحيوان . إن هذه الموهبة تؤلمني وتخيفني .. وأحسبك غير مصدق ما أقول .

قلت : لا أكاد في الواقع أصدق يا عزيزتي « جاك » .

قال : ناد « ميرزا » .

وأطلع يديه من جيبيه فأحسست كأنما قد شهر فجأة سيفين مخيفين من غمديهما .

وأذعنت لأمره ورأيتني خاضعا مستكينا له . وقد هاج بي الفضول وثارت في نفسي نزعة التشوف وحب المعرفة .. وفتحت الباب وصفرت لكلبي وكان باسطا ذراعيه بالوصيد .

وما كدت أفعل حتى سمعت وقع أرجله وهو قادم نحونا . وما هي إلا هنيهة حتى دخل مسرورا يبصبص بذنبه ووثب فوق مقعد في الحجرة . ومشى إليه صديقي « جاك » فأخذ يربت ظهره بكفه وينظر مليا إلى عينيه ..وبدا لي أن الكلب قد اضطرب في مكانه وتململ ، وهو يحاول أن يلوي رأسه ليتجنب نظرته ، ولكن عينيه لم تلبثا أن لمعتا ببريق رعب هائل ، ومضى الكلب المسكين يرعش من فرعه إلى قدمه ، وحاول أن يقفز من فوق المقعد ، ولكن « جاك »

ألقى يده فوق رأسه فهمهم همهمة مزعجة ، فعل الكلاب على نعى الموتى فى صميم الليل .

ووقفت مبهوتا خائفا ، وخلت الجدران تتحرك والمقاعد تدور فقلت : كفى يا جاك كفى ! ولكنه لم يلق إلى كلمتى هذه بالا ، وإنما راح يطيل النظر إلى ميزرا فإذا هو قد أغمض جفنيه ونكس رأسه .

وفى تلك اللحظة التفت صاحبى نحوى فقال : ها قد تم الأمر .. خذ بالك إذن ..

وراح يلقى منديله بعيدا وينادى الكلب قائلا : هيا يا ميزرا أمسك هذا المنديل .

وإذا بى أرى الكلب قد نهض من مجثمه فقفز برفق من فوق المقعد كأنما قد ارتد أعمى لا يبصر شيئا ، ولكنه مشى إلى المنديل فحاول التقاطه عدة مرات بأسنانه فلم يستطع كأنما كف بصره فلم يعد يرى ما أمامه ، بيد أنه لم ين أن التقطه بعد تحسس واشتمام ، وعاد به متعثرا فى مشيته مترنحا ، كمن يجول فى النوم . وكان مشهدا مزعجا وأيم الله .. فوقفت أتأمله مبهوتا متألما ، فأمره أن يرقد ففعل ، فعاد يناديه قائلا : ها هو ذا الأرنب فهيا اقبض عليه . فأخذ الكلب يتململ ويدور حول نفسه كأنه فى حلم ويفتح فمه على سعته وينبح نباح الهائج المضطرب ..

وإذ ذاك لم يكن من جاك إلا أن صاح به وقد ارتد كالمجنون والعرق يتفصد من جبينه ويقطر من خديه : « هيا عض سيدك ! » .

ورأيت ميزرا يحاول الهجوم مرتين أو ثلاثا ولكنه يعود فيقاوم ويغالب التأثير المسيطر عليه وقد أنكر الفعلة التى أمر بها وكبر عليه أن يهجم على مولاه ليعضه .. غير أنه لم يستطع مقاومة فمشى نحوى لينفذ الأمر ورأيته يقترب رويدا ، فتراجعت وأنا أرعش من فرط الخوف وقد أمسكت بالحذاء مستعدا للإهواء به عليه إذا حاول عضا !

وإذ ذاك صاح به جاك قائلا : تعال هنا أسرع . فدار الكلب إليه ومشى نحوه طائعا .

وتقدم هو فجعل يعرك رأس ميرزا بكفيه المستطيلتين كأنما يريد فكه من قيد خفى أو ينزع عنه أصفادا غير منظورة .

وفتح ميرزا عينيه ، وقال جاك : انتهت الحكاية .. ووقفت أنظر إلى الكلب ولا أجرؤ على الدنو منه ، فإذا به يمشى إلى الباب متمهلا راعشا ، متحاملا من فرط الجهد والإعياء .

ودنا جاك منى فقال : ليس هذا هو كل ما هنالك ، بل أخوف ما أخافه وأشد ما أزعج له ، هو أن الجامدات أيضا تطيعنى .. انظر ..

وكان على النضد مبراة صغيرة وخنجر هندى قديم ، فمد يده نحو الخنجر وكأنما تسلل إليه تسللا ..

وإذا بى أرى الخنجر يرعش ويرجف .. ثم إذا به قد تحرك ومشى متقدما نحو اليد التى استقرت على طرف المائدة فى انتظاره حتى لمس أناملها فوقف ، وكان خلال ذلك يقول مخاطبى :

كل شىء يجىء من تلقاء ذاته إلى يدى ، ولهذا السبب ترانى أخفى كفى فى جيبى أبدا .. أنا المغناطيس الحى .. أما سر ذلك فلا أعرفه .. وهذا هو ما يؤلمنى ويخيفنى من نفسى . ولست أدرى حكمة هذه الهبة الغريبة ولا أعلم ماذا ينبغى لى أن أصنع ، وإنى لأنفق الأيام المتوالية فى اختبار قوتى هذه لأطمئن إلى وجودها وأستوثق من ظهورها ..إنها لذتى وألمى ، ومصدر قوتى وضعفى ، وباعث مسرتى وخوفى .

وأمسك عن الحديث ودس يديه فى جيبيه ، وكانت العاصفة قد زالت وأخذ المطر يقع رذاذا .

قلت له : « هذا شىء مخيف ! » .

قال : أكثر مما تستطيع أن تتصور .

وهبت الريح عنيفة وراح المطر ينهمر مدرارا .

وأخذ جاك يصعد الأنفاس ويرسل الزفرات ويلهث وينفخ وقد راح صدره يعلو ويهبط كأنما هو غريق يعود إلى الحياة .

وسألنى أن أتركه وحده ، فانصرفت عنه وأنا أحمد الله على التخلص منه فى تلك الليلة الرهيبة .

السوداء

كلما احتاج القوم إلى عامل يؤدى عنهم شغلة قذرة ، أو يقوم لهم بخدمة شاقة أو مهمة محتقرة كنقل السباخ أو تطهير المصارف أو تنظيف المزابل ، أو كنس الحظائر وتمهيد الزرائب ، اعتادوا الاعتماد على « بواتيل » فى ذلك كله ، وذهبوا يطلبونه لقضائها لهم ، ويلتمسونه ليتولاها عنهم ، ولم يكن هو ليستنكف من أداء أحط الأشغال ، أو يتبطر على القيام بأحقر الأعمال ، بل جعل كلما سئل كيف رضى لنفسه أن يتبذل فى مثل ذلك ، أو يمتهن فى أشباه هذه المهمات الخسيسة ، يقول فى نغمة الفيلسوف القانع إنه رجل كثير العيال .. وكله أكل عيش ..

لقد كان لـ « بواتيل » أربعة عشر ولدا ، ثمانية منهم لا يزالون صغارا بحاجة إلى التربية وواحد فى « العسكرية » وخمسة أزواج أرباب بيوت ، وكان الناس إذا سألوه هل سعد الأزواج من أولاده بزواجهم ، قال : نعم .. ولم لا يسعدون وقد تركتهم إلى رغبة نفوسهم ولم أعارض فى الزواج ميولهم ومطالبهم ، لأنى لا أرى فى زواج الأبناء ما يراه الآباء ، لقد عارض أبواى فى رغبتى وناوآنى فى ميلى وغايتى ، فكانا السبب فيما وصلت إليه اليوم من سوء حال ، والحمد لله على كل حال ..

كان « بواتيل » فى ذلك العهد - أعنى أيام شبابه - قبل الزواج والذرية جنديا ، وكانت الكتيبة التى هو منها مرابطة فى ثغر الهافر ، وكانت تغلب عليه السذاجة وبساطة النفس ، وأكبر لذاته أن يمشى فى طرق المدينة ويروح ويغدو على الأفاريز قبالة الحوانيت التى تعرض فيها الببغاوات ، فيقف يعجب بريشها البديع وألوانها المختلفة ، ويحاول استدراجها إلى الحديث معه إذ ألفاها قد ألفت الكلام ووجدها قد حفظت ألفاظا بأعيانها لا تفتأ ترددها ولا تكف عن تكرارها . وقد أعجبه منها لغوها ، وراقه منها الثرثرة والهراء ، وسرته عاداتها الشرقية ، إذ

كان « بواتيل » مفتونا بكل ما هو شرقى شاذ غريب ، وكان يحسد الأغنياء على قصورهم الشاهقة ، ومبانيهم الفخمة الرائعة ، والأطيار الغرائب يحفظونها فى الأقفاص المزخرفة ، والقردة والنسانيس العجيبة المارحة فى جناتهم ، والزينة المدهشة التى تزين دورهم .

وفى ذات يوم ، وإنه لمنهمك فى الحديث مع ببغاء صغيرة عجيبة الشكل ، إذ فتح فجأة باب حانة هناك لصق حانوت الببغاوات ، وخرجت منه زنجية شابة مرتدية ثوبا من الصوف أصفر اللون ، فراح نظر بواتيل نهبا مقسما بين الزنجية والببغاء .. ولو أنه سئل أيهما أحدث فى نفسه أكبر الأثر ، لما عرف كيف يكون الجواب ..

وفى تلك اللحظة رشقته الزنجية بنظرة مستطيلة ثم رنت إليه مليا ..

ومنذ ذلك اليوم جعل يختلف إلى تلك الحانة ، فإذا جاء جلس فى ناحية يتأمل الحبيب الفاحم كجنح الليل فى صمت ، ويراقب حركات الزنجية وهى تسعى بالشراب على زبائنها وتنفض المقاعد والموائد والمنصات .

وكانت هى كلما أبصرته أومضت إليه بابتسامة مبدية أسنانا بيضاء نواصع كالعاج ، متلألئات بارقات كالبرد .

وفى أحد الأيام ذهب للخلوة إليها ، وكان ذلك هو الأمر المنتظر والقضاء المحتوم ، وتعاطيا كأسا من النبيذ . وما لبثا أن تجاذبا أطراف الأحاديث فى ألفة ومراح كأنهما قد تعارفا وتصاحبا من عهد بعيد . وأخذ ذلك يتكرر تقريبا فى كل يوم والثانى فلم يلبث أن اندهش « بواتيل » إذ وجد فيها مرغوب نفسه ، وألفى عندها حاجة فؤاده ، ومضى يتخيلها المثل الأعلى لحواء التى تسعده ، ويحسبها نصفه الأسمى الذى يفتقده .. وكان ذلك هو الحب .

وأخيرا لما تامه الحب واشتد به الجوى ، سألها الزواج به فامتلأت نفسها سرورا ، وطار فؤادها فرحا ، وكانت تملك فضلة طيبة من المال ورثتها عن سيدة كانت من قبل فى خدمتها ، وكانت تلك السيدة قد أخذتها من قبطان أمريكى وجدها فى السادسة من عمرها ضالة على سطح باخرته لا تعرف من أين جاءت ، ومن الذى أركبها السفينة ، وإلى أية جهة هى ذاهبة ..

وانثنى « بواتيل » يقول لمالكة لبه :« وإنما الأمر يا غالية معلق على شرط واحد ، وهو أن يوافق أبواى على زواجنا لأننى لا أعصى لهما أمرا ولا أشق يوما عليهما عصا الطاعة ، وسأعرض المسألة عليهما فى أول فرصة ، فلننتظر ماذا تكون النتيجة وأرجو أن تكون خيرا .. » .

وما كاد يظفر بإجازة من قائد كتيبته حتى ذهب إلى القرية التى يقيم فيها والداه ، وبعد أن فرغوا من الغدوة الطيبة المفتخرة ترحابا به وتكريما لمقدمه ، أنشأ يحدثهما عنها ويصفها لهما .. قال : « هى فتاة كاملة عاقلة طيبة دءوب مدخرة قاصدة ولكنها .. زنجية ... » .

فلم يكد يتم كلمته هذه حتى انقبضا وكانا مقبلين على حديثه ، ووجما وكانا متهللين .. يا للداهية ! ..زنجية ..لقد خيل إليهما أن ابنهما على وشك أن يعقد زواجه بشيطانة ماردة ، أو جنية مخيفة ، أو يرتبط بمعاهدة مع الشيطان الرجيم نفسه .

وسألته أمه : وهل هى سوداء كلها من أولها إلى آخرها ؟

وقال أبوه فى أثرها : أهى فى مثل سواد هذه الغلاية ؟

فأجابه ابنه ضاحكا : ليست بهذا السواد تماما ..

وعادت الأم تقول : وهل فى بنات جلدتها من هن أشد سوادا منها ؟

قال : نعم ..بالطبع ..

قالت : وهل يبهت لونها أو ينفض على ثيابها مثلا ؟

أجاب : كلا يا أماه .. كلا ..

وهنا قال أبوه : « على كل حال ينبغى أن نراها قبل أن نصدر قرارا نهائيا فى أمرها ، فإذا جئت مرة أخرى فاصطحبها إلينا .. » .

وحانت الفرصة للزيارة ، فانتقت الحبيبة لهذه المناسبة أفخم ثيابها ، واختارت لهندامها خليطا من أعجب الألوان أحمر وأصفر وأزرق ، وأسرفت فى الزينة والتأنق حتى ليخيل إلى من يراها فى تلك الحلة التى جمعت أغلب ألوان الطيف الشمسى أنها « تقليعة » أو « مسخرة » كما يشاهد فى مواسم المساخر والكرنفال ،

حين يتنكرون فى منكر الثياب والأشكال .

وفى المحطة كان منظرها قيد الأنظار ، وقد وقف الناس يحملقون فيها الأبصار ويعجبون هل تطلع العفاريت بالنهار ؟ ولكن « بواتيل » لم يشعر بذلك ، أو بالتالى لم يأبه له ، وإنما راح يمشى مسرورا بأن يرى فى الشوارع معها ، معتزا فخورا بالظهور على الأعين بجانبها .. وفى مركبة القطار بالدرجة الثالثة حيث جلسا ، أخذ الأولاد الصغار يبكون رعبا من الزنجية ويصرخون هلعا من شكلها وخلقتها ، وجعل الرجال يتطاولون ويشرئبون إليها بالأعناق ، ويقفون فوق المقاعد لكى يتمكنوا من رؤيتها .

ولما بلغا القرية مشى بها إلى بيت أبويه وهو مضطرب مشفق . ولما رأت أمه الفتاة السوداء فى ثوبها الغريب الألوان وهى تمشى تتأبط ذراع ولدها ، بهتت ووجمت فلم تستطع قولا . وقد جرى ابنها إليها فطوقها بذراعيه ، بيد أنها مع ذلك وقفت فى دهشة وعجب تنظر إلى وجه الفتاة وهو يلمع ويبرق أشبه شىء بوجه الحذاء اللامع الأسود وصمتت المرأتان فلم تتبادلا حديثا ، أما والده الشيخ فقد أراد أن يتلطف فقال كلمة سرت الزنجية أشد السرور فانفجرت من صدرها ضحكة هائلة هزت البيت الصغير من القواعد ، وراحت تدوى وتتردد كأنها أصداء رعد قاصف مجلجل .

ولكن ضحكتها تلك لم تلبث أن أزالت الجفوة وفتحت باب الحديث ،فتكلموا بما عن لهم أن يتكلموا ، ولما آوت الزنجية إلى الحجرة التى أعدوها لها ، وعادت أم « بواتيل » إليه وكانت قد صعدت مع السوداء لتريها غرفتها ، تلقاها فى لهفة وهو يقول : ما رأيك إذن فيها ؟

قالت بعد سكتة مستطيلة : يا بنى إنها « غطيس » للغاية ، فليتها كانت أقل من هذا سوادا ..إن منظرها ليجمد الدم فى عروقى ..

قال : ستتعودين ذلك على الزمن ، أستغفر الله ، أريد أن أقول ستتعودين منظرها شيئا فشيئا يا أماه ..

ونزلت الفتاة إليهم ، فقامت وقت العشاء ملبية للخدمة ، نشطة إلى العمل ، مهيئة الطعام ، منسقة الخوان ، ومضى العشاء بخير .. ولكنه لما سأل أبويه

مرة أخرى عن رأيهما فى تلك الزنجية التى أحبها ، ظل أبوه على صمته وعادت أمه تقول : إنها يا بنى سوداء « غطيس » ، ولو كانت أفتح من هذا قليلا لما مانعت فى زواجك منها . فتألم « بواتيل » لخيبة الأمل وحار فى أمره فلم يدر ماذا هو صانع ، وعجب كيف لم تستطع هذه الفتاة التى أسرته وشيكا وفتنت فؤاده فتونا، أن تثير شيئا من الإعجاب فى نفس أبويه . ولم يفهم سر هذه الفتنة من ناحية ، وعجز هذا الجمال الرائع فى عينيه عن إرضاء سواه من الناحية الأخرى .

وكانت البلية الكبرى لما خرجوا جميعا للنزهة فى الحقول والرياضة فى المروج ، فإن ما جرى كان على الأبوين غير هين ، إذ ما كاد أولاد القرية يرون « بواتيل » متأبطا ذراع زنجيته « الغطيس » حتى هللوا وصفقوا ونادوا رفاقهم من القرية والبيوت لمشاهدة هذه « التقليعة » العجيبة . وما لبث الصبيان الصغار أن احتشدوا كأن دبا راقصا قد ظهر ، أو معرضا من معارض الخيل والحيوانات المروضة على الألعاب قد نزل بالبلد .

ولما رأى الشيخ الزحام قد اشتد ولى وجهه شطر داره ، وأسرع إلى فراره ، ومشى « بواتيل » وهو يكاد يتميز من الغيظ ويتفجر من الحنق ، والفتاة بجانبه تمشى متجلدة لنظرات القوم ، محتملة تغامز الجميع صابرة .

ولكن « بواتيل » أدرك ألا أمل ، وعرف أنه سيحرم من البناء بها آخر الأجل ، وأدركت هى ذلك أيضا فسحت عيناها دمعا صبيبا .

وفي المساء أعانت والدته على عملها فى البيت متطوعة ناشطة للخدمة ، حتى تأثرت على رغم إرادتها وأحست العطف عليها والرثاء لها ، غير أنها مضت تقول لولدها : فى الحق إنها لفتاة طيبة لطيفة وديعة مخلصة ،ولكن كل ما يؤسف له أنها ليست سوداء فحسب بل سوداء غطيسا ، ولو كانت فاتحة بعض الشئ لهان الخطب ؛

وراح هو يهمس للفتاة عند المنصرف مرتبكا مستحييا : لا بأس ..لا بأس يا عزيزتى ، سأعرف فيما بعد كيف أطويهما وأعمل على إقناعهما فلا تيأسى ..

ولكنه لم يفعل آخر الدهر ..

وكان « بواتيل » كلما قص حكايته تلك على الناس ختمها بقوله : وهذا هو السبب الذى جعلنى راضيا بهذا العمل الحقير ، قانعا بقضاء هذه الأشغال الخسيسة ، لأننى منذ تركت تلك الفتاة يائسا حزينا مخفقا فى الحب وأنا المستخف بالحياة ، المجرد من الأطماع ، الذليل لا رجاء له فى المستقبل ولا أمل له فى هناوة أو رغد ، وأضحى كل عملى فى عينى سواء وغيره لا فضل لشغلة على شغلة ، ولا مزية لحرفة على حرفة .. فكان الناس يقولون له : ولكنك ولا ريب لم تكن حزينا مبتسئا إلى هذا الحد لأنك تزوجت بعد ذلك .. فكان يجيبهم قائلا: نعم ، ولا يمكننى أن أقول إن زوجتى كانت مشقيتى أو مؤلمتى بشىء ما ، إذ يكفى أنها جاءتنى بأربعة عشر ولدا ، وإنما الواقع أنها لم تكـــن كتلـــك .. وا أسفاه .. لقد كان حسبى من تلك الحسناء أن تنظر إلى وجهى لتملأ فؤادى فرحا .. وتبعث فى نفسى أكبر الأمل فى الحياة .. ولكن كل شئ فى العيش قسمة ونصيب ..

فكان الناس إذا سمعوا قوله ذاك فهموا وعرفوا .

لقمة القاضى

فى الدنيا أناس أوتوا ميلا غريبا إلى إقامة وزن لكل شىء على الإطلاق والاهتمام بكل أمر . لا يغادرون من شئون الحياة صغيرة ولا دقيقة إلا أعطوها قيمتها ، واحتفلوا بحكاياتها ومسألتها ، ونحن قد نضحك منهم ساخرين ، ونهز رءوسنا لمشهد اهتمامهم هذا بالسخيف والسفساف ، مندهشين متعجبين لأننا لا نفهم وجهة نظرهم ولا ندرك سر تدقيقهم ، وإن كنا فى بعض الأحايين لانكتم إعجابنا بهم وموافقتنا لهم على هذا الاهتمام بالصغائر منهم ، وقد نسميهم جامدى الإحساس محبين لذاتهم سخفاء صغار الأحلام ، أو نضحك منهم عابثين وندعوهم بلها سذجا جهلاء .

وإليكم الآن قصة تريكم مثلا من هؤلاء الناس ، وتعطيكم وجهة نظر جد غريبة ، ثم هى كذلك جد مضحكة ..

كانت شمس الخريف ترسل ضياءها على المزرعة فتغمرها من جميع نواحيها ، وكانت الأرض من تحت الحشائش التى عريت عنها ، وألحت البقرات على أكلها حتى حشت أكثرها ، طرية لازبة مشربة بماء المطر الذى سقط منذ أيام ولا يزال فى الأرض أثره ، حتى لتسيخ القدم فيها وتغرق الرجل لتسيخ فى أوحالها ، وأشجار التفاح مثقلات بأثمارها ، والتفاح يتساقط منها على العشب المبلل والكلأ الندى الأخضر .

وفى ناحية وقفت أربعة ثيران فتية أو عجول شباب فى مرابطها ترعى الكلأ ،وترسل فى الفضاء خوارها بين فترة وأخرى ، وهى ترفع رءوسها وتنظر صوب البيت. القائم على كثب ، والدجاجات تجرى هنالك متصايحة أو تنبش الثرى بأرجلها أمام المربط ، أو تحوم حول البيت باحثة عن الحب لاقطة .

وفتح باب الزريبة ودخل رجل ...

ولو رأيت ذلك الرجل لقلت قد دخل ولا ريب فى حدود الستين ، على

حين هو فى الحق لم يتجاوز الأربعين بعد ، فقد كان مغضن الصفحة محنى الظهر ، يمشى وئيدا ناشرا ذراعيه حوله ، وهما مستطيلتان متراخيتان .

وما كاد يدانى الزريبة حتى أخذ الكلب المربوط إلى جذع الشجرة يهز ذيله ويبصبص بذنبه ، ونبح نبحة الفرح بمقدم سيده ومشهد ربه ، وكاد من فرط جذله يقطع الحبل ويلتمس الفكاك من مربطه لولا أن صاح به الرجل ناهرا ، فانزوى وسكن .

وفى تلك اللحظة طلعت من الدار امرأة طوال القامة ممسوحة البدن بارزة العظام فى قميص أسود قصير لا يكاد يستر ساقيها ، لم يبق من شعرها إلا تفاريق ونتف منتثرة ، سمراء السحنة ناحلتها ، شوهاء ثرمت أسنانها وعلى وجهها ملامح قاسية ، وجهامة بادية ، كأكثر من ترى من القرويات اللاتى أدبر شبابهن .

وبادرها الرجل مسائلا ..

قال : كيف هو الساعة ؟

قالت : لقد رآه القسيس فقال لا يرجى ، ولن تمضى عليه الليلة حيا .

ودخلا البيت معا ..

واجتازا المطبخ إلى غرفة خفيضة السقف مظلمة الجوانب ، لا تحوى غير نافذة واحدة انسدل عليها ستر من خرقة بالية ، وقد عادت عروق الخشب التى قام السقف فوقها سوداء اللون من كر الزمان وأثر الدخان ، وهى ممتدة من جانب إلى آخر داعمة أرضية الطقيسة التى اتخذها جيش من الفيران ثكنة لمأواه وميدانا لاستعراضه .

وفى أقصى الحجرة فراش قذر لا يكاد فى الظلمة يبين للعين ، وقد انبعث من ناحيته صوت أبح خشن أجش اللحن ، أشبه شىء بخرير الماء المنبعث من مضخة مكسورة أو « طلمبة » معطلة ، وإذا هنالك شيخ هرم ممدد فوق ذلك الفراش يجود بأنفاسه ، وهى تتحشرج فى حلقه .

وكان ذلك الشيخ والد تلك المرأة .

واقترب الزوجان من فراشه وأطلا عليه فى صمت ونظرة استسلام لقضاء الله .

وقال الزوج : أحسب الخاتمة فى هذه المرة واقعة لا محالة ، وأظنه لن يعيش حتى يرى الصباح . كلام القسيس فى محله .

وقالت المرأة : من أول النهار وهو يرسل هذه الحشرجة المستمرة .

وسكت الزوجان ، وكان الشيخ المحتضر مغمضا عينيه وقد ارتد وجهه فى مثل لون الحمأ ، جامدا كأنه قد عاد من خشب ، وقد فغر فاه وراح يرسل ذلك النفس المتحشرج المخشخش ، ومضت الأغطية السمراء القذرة التى التحف بها تصعد وتهبط متزنة مع حركة تنفسه .

وبعد صمتة مستطيلة انثنى الزوج يقول : لم أعد أستطيع له شيئا ، ولا أحسب هناك رجاء فى إنقاذه من الموت . ولكن الذى يؤلمنى هو أن تحين الخاتمة فى هذين اليومين وقد اعتدل الطقس وكثرت الأشغال فى المزرعة ، هذا شئ يغيظ فى الحقيقة ويفلق . أما كان يصح أن يؤجلها إلى وقت آخر ، فما العمل الآن فى هذه الوحشة المؤلمة ؟

وبدا على المرأة الاستياء من هذه الفكرة ، ففكرت لحظة ثم قالت : على كل حال لن يدفن قبل يوم السبت فلديك إذن الغد بطوله .

وفكر هو كذلك مليا ثم قال : نعم ولكننى مضطر غدا إلى دعوة معارفنا جميعا لتشييع الجنازة ،وهو مشوار يستغرق خمس ساعات أو ستا على الأقل ، إذ لابد لى من الذهاب إلى قرية « تورفيل » وأيضا إلى ضيعة « مانيلوه » لأنعى ميتنا للقرى جميعا .

فعادت المرأة تتروى فى الأمر لحظة مستطيلة ، ثم انثنت تقول : إن الساعة لم تؤذن بعد الثالثة ، وفى وسعك أن تنطلق من الآن إلى تورفيل وتبدأ النعى من الساعة . ولا مانع يمنعك من أن تقول للناس إنه قد مات وانتهى ، فسواء أبدأت نشر المنعاة من الآن أم لم تبدأ فهو فى حكم الميتين ، وكل العبارة ساعة أو نحوها وينتهى .

فوقف زوجها مرتبكا هنيهة ، وجعل يزن فى خاطره الفكرة التى اقترحتها عليه امرأته ثم قال : ليكن ذلك : ها أنا ذاهب .

وهم بالذهاب ولكنه دار نحوها فقال :

– بما أنك خلية الآن من العمل فى البيت ، فيحسن بك أن تجمعى قليلا من التفاح فتصنعى لنا من الدقيق لقمة القاضى لنقدمها إلى المشيعين بجانب التفاح المطبوخ ، وعندك حزمة من الحطب والخشب تحت السقيفة فخذيها لتوقدى منها على الطعام .

وغادر الحجرة فدخل المطبخ ففتح خزانة هناك ، وأخرج رغيفا من الخبز فاقتطع منه كسرة ، وجمع الفتات الذى سقط من الكسرة فى راحة كفة وطوحه إلى فمه حتى لا يضيع منه شىء ، وبحد السكين كشط طبقة خفيفة من الزبد لم يبق منه في قاع القدر إلا قدر يسير فنشرها على خبزه ، وأخذ يأكل فى رفق وبطء شأنه فى كل شئ .

واجتاز الزريبة منصرفا ، وتوثب الكلب فى فرح ونبح فأسكته ونهره ، ومشى فى طريقه يريد قرية تورفيل . وما كادت المرأة تخلو إلى نفسها حتى بدأت تشتغل فجاءت بالعجين « المجور » وأعدت الخميرة للعجين ، وانثنت بعد ذلك تعجن وتلت ، وتضرب العجين وتضغطه وتسويه ثم ترفعه حتى أحالته كرة كبيرة بيضاء .

ومضت لتقطف التفاح فجاءت بسلم فصعدته وراحت تنتقى من التفاح أحاسنه وأطايبه ، تاركة الفج مختارة النواضج ، وكلما قطعت شيئا منه ألقته فى مبذلتها ، وإذا بصوت يناديها من جانب الطريق :

« هيه يا مدام شيكوه ، كيف الحال ؟ » .

فالتفتت نحو مصدر الصوت فإذا جارهم العمدة أوسيم فافر ، وهو ماض إلى الغيط لتسبيخ الأرض ، وقد ركب فوق عجلة السماد مدليا ساقيه .

ولما عرفته قالت : أهلا بك يا سيدى أوسيم .

قال : وكيف حال الأب اليوم ؟

فبكت قليلا ثم أجابت قائلة : هو الساعة فى حكم الموتى ، والجنازة يوم السبت فى السابعة لأن لدينا أشغالا كثيرة نريد تشهيلها .

فقال العمدة : ربنا يكون فى العون .

قالت : شكرا ..

وانثنت تقطف التفاح ، وكذلك أعد الزوجان العدة للجنازة وحددا الموعد ، وهيآ الطعام للمأتم ونسيا مع ذلك أهم نقطة فى الموضوع ، وهى ما رأى الميت نفسه ، أميت هو حقا فى ذلك الميعاد أم سيظل حيا ؟ ولما دخلت البيت اقتربت من باب الحجرة فوقفت تنظر وهى منتظرة أن يكون الشيخ قد مات ، ولكنها لم تلبث أن سمعت صوت حشرجته الرتيبة المستطيلة فلم تر داعيا إلى الدخول عليه ، وذهبت تعد لقمة القاضى مخافة أن يضيع الوقت سدى ، ولما فرغت من صنعها أخذت تهيىء طعام العشاء .

وعاد زوجها أصيلا .

وكان أول كلمة بادرها بها هى : هل انتهى ؟

قالت : كلا لا يزال فى الحشرجة .

فذهبا معا لينظرا إليه فإذا الشيخ على حالته لم يتغير ولم يزدد سوءا ، وكان تنفسه متواصلا كدقات الساعة لا بالمسرع ولا بالمبطىء ، وإنما تختلف الطبقة تبعا لحركة التنفس ذاته ، للشهيق طبقة والزفير طبقة ...

ونظر الزوج إليه ثم قال : أحسبه سينتهى ونحن لا ندرى كما تنطفئ الشمعة من تلقاء ذاتها .

وعادا إلى المطبخ فأكلا وهما صامتان واجمان . وما كادت الزوجة تفرغ من غسل الأطباق بعد العشاء وتنظيف الأوانى ، حتى دخلا معا حجرة العليل . وحملت هى مصباحا صغيرا أسود الزجاجة من الدخان مهبب الذبالة ، فرفعته فوق وجه أبيها لينظرا على ضيائه ، فإذا الشيخ يلوح ميتا لا أثر للحياة فيه غير أنفاس صاعدة راجعة . وكان مضجع الزوجين قائما فى ركن مظلم فى أقصى الحجرة ، فمشيا فى صمت إليه ، وأطفأت هى المصباح ، وأسلما أجفانهما

للنوم ،وما لبثت الحجرة أن تجاذبت أركانها بغطيط مختلف الأنغام ، وشخير غير متزن اللحن ، بجانب حشرجة متواصلة لا تنقطع ..

ومع الفجر نهض الرجل ..وراح ينظر إلى وجه الشيخ ليطمئن ، فإذا هو لا يزال حيا ! ..

فعاد إلى المضجع يهز امرأته هزا وقد أزعجه عناد الشيخ الذى لا يريد أن يموت ..

قال : انهضى « ياولية » واعجبى لأبيك هذا ، إنه لا يريد أن ينتهى ، ماذا نحن صانعون ؟ ، وكان الزوج مقتنعا بأنها الأديبة الحكيمة يلتمس أبدا عندها النصيحة ، ويجد الرأى الأسد ، وكان أبدا يعول على آرائها فى المشكلات ، ويعتمد على رجاحتها فى الشداد .

قالت : لا تنزعج ولا يقلق منك البال لأنه لن يعيش غير هذا النهار ، والعمدة لن يمانع فى دفنه غدا لأنه سمح من قبل بشئ كهذا يوم مات المعلم رينار ، إذ أذن فى إرجاء الدفن لأن الوفاة وقعت فى موسم الحرث .

واقتنع الزوج بهذه الفكرة وذهب إلى الحقل .

وخبزت المرأة لقمة القاضى وأخلدت بعد ذلك إلى أشغال البيت .

وحل الظهر ولم يمت الشيخ ، وجاء العمال الذين فى خدمة الزوج فى الحقل ليعودوه زرافات ، واختلفوا فى شأنه ، وتباينت آراؤهم فى تقدير ما بقى له من اللحظات فى الحياة ، فمن قائل سيموت بعد ساعة ، ومن قائل لن ينتهى اليوم ، وأحسبه غدا منتهيا .

وأذنت السادسة من المساء ولا يزال الشيخ كحاله لم تنقطع حشرجته .

وإذ ذاك بدأ الزوج ينزعج حقا ، قال لامرأته فى لهجة المرتبك اليائس : ما العمل الآن ياولية .. ؟

وكانت هى أيضا حائرة مرتبكة لا تدرى كيف تحل هذا المشكل ، فلم تحر جوابا .

ومضيا إلى العمدة فوعدهما أن يغض النظر ويتساهل فى مسألة الدفن وإرجائها

إلى اليوم التالى ، وخرجا من عنده فانطلقا يريدان طبيب الصحة ،فاتفقا معه على تقديم تاريخ الوفاة . عند تحرير الشهادة ، وعادا إلى البيت وقد سرى عنهما قليلا .

وأويا إلى المضجع فناما ، واختلطت أنفاسهما فى فضاء الحجرة بحشرجة العليل المدنف .

وفى الصباح استيقظا فإذا هو لا يزال حيا ..وهنا اشتد بهما الاضطراب وازدادت الحيرة ، فوقفا بجانب سرير الشيخ غير مصدقين ولا واثقين ، إذ ظناه يريد أن يخدعهما عمدا ، ويسخر منهما قصدا ،وأن ذلك منه « لعبة » مؤلمة ، وفصل بارد ، وإلا فكيف يدعهما يعدان لجنازته كل المعدات ويعلنان الوفاة فى القرية والقرى المتجاورات ، ثم لا يموت قبل الميعاد ..أما « تلحمة » حقيقة وعناد ..

وقفا فى الواقع متألمين مستاءين من هذا الفصل الذى عمله فيهما الشيخ المضرب عن الموت ، لقد أضاع وقتهما سدى ، والوقت عندهما ثمين ، ووراءهما فى الحقل والمزرعة أشغال لا رجاء لها ولا تأجيل .

وما لبث الزوج أن قال : وما العمل الآن ياولية ؟ .. فلم تجب ..لقد كانت هى أيضا فى ألعن حيرة ، ولكنها لم تلبث أن قالت : حقا إنه لفصل يغيظ ومسألة تربك ..

وحارا فى الأمر ولم يدريا كيف الموعد ، وقد أعلنا الوفاة ، والمشيعون ولا ريب عما قليل قادمون ، لأن هناك طعاما سيقدم إليهم ، ولقمة القاضى والتفاح فى انتظارهم ، والفلاح يسافر من أجل أكلة ، ويقطع الأميال والفراسخ للاستمتاع بطعام ، ولو كان طعام جنازة وأكلة مأتم .

وأجمعا النية على انتظار الضيوف ، فإذا جاءوا شرحا لهم الحكاية ، وجعلا الطعام ترضية فى النهاية .

وقبيل السابعة أخذ المدعوون يتقاطرون ، وكانت النساء فيهم متشحات بسواد وهن واجمات متصنعات الحزن صامتات ، وأما الرجال فقد قدموا فى أرديتهم المنسوجة فى بيوتهم ، وهو متململون من تلك الأردية التى لا يلبسونها

إلا فى أمثال هذه المناسبات .

وجعل الزوجان يستقبلان القادمين وهما مرتبكان حائران ، وكلما أقبلا على جماعة منهم أخذ هؤلاء يبكون وينشجون ، ومالبث الزوجان أن ضجا هما كذلك بنحيب ..وراحا يشرحان الحكاية للجمع ويقدمان المقاعد للواقفين ، ويروحان ويغدوان بين الجالسين ، وهما معتذران شارحان آسفان ، وهما يقولان لكل واحد منهم : من كان يظن بالله أن المسألة كانت ستطول إلى هذا الحد .

وارتبك المدعوون وتولاهم شيء من الأسى كأنما قد حرموا من وليمة منتظرة ، فظل فريق منهم جلوسا ، ووقف فريق ،وهم آخرون بالذهاب ، ولكن السيد شيكو أمسك بهم قائلا : لا بد من أن تأخذوا منها نصيبكم ، اجلسوا بالله حتى تجيء بها ..

وما كاد أولئك يسمعون أن هناك طعاما سيقدم ، حتى تهللت بالطبع أساريرهم ، وأقبل بعضهم على بعض يتفاكهون ، وما هى إلا برهة أخرى حتى غص البيت بجموع متدفقة من المشيعين وذرافات من المدعوين جاءوا متأخرين ، ومضى الباكرون ينشرون الخبر بين أولئك ويتخافتون به ويتهامسون ، وقد خفف من وقع النبأ وجود لقمة القاضى على كل حال ، إذ كانت مدام شيكو معروفة من أهل القرى جميعا أنها الطاهية البارعة وفى صنع الفطائر والعصائد والحلويات والمربات ، الطابخة المبتكرة المتفننة . وذهب النسوة ليلقين نظرة على العليل فوقفن بجانب فراشه يشرن إشارة الصليب على صدورهن ، ويغمغمن بأدعية وصلوات ، ويغادرن الحجرة صامتات ، أما الرجال فكانوا أقل اهتماما بذلك المشهد من النساء ، فذهبوا يلقون نظرة إلى الأفق من النافذة ، ليطمئنوا على زراعتهم ، ويتأكدوا من صلاحية الجو لأشغالهم وحقولهم ، وجعلت مدام شيكو تردد قولها بين لحظة وأخرى : هذه هى حالته منذ يومين لا تتقدم عنها ولا تتأخر ..ألا ترون أنه قد عاد أشبه بالطلمبة لا تنفث ماء ولا تطلع ؟

ولما انتهى القوم جميعا من رؤية العليل ، أخذوا يتخيلون الأكلة المنتظرة ، ولم يكن المطبخ يسع كل هذا الحشد الحاشد ، فأخرجت المائدة منه وقد حملت اللقم الشهية المغرية البديعة المنظر ، والبهيجة المشهد ، فى وعاءين كبيرين

« مطرطرين » ..ومد كل منهم يده ليأخذ نصيبه مخافة أن تنفد اللقم الحلوة قبل أن يتناول منها قسطه ، على أن أربعة منهم خرجوا من الحسبة بلا نصيب فوقفوا حائرين متململين .

وأنشأ السيد شيكو رب البيت يقول وفمه ممتلئ بلقمة كبيرة : لو قام أبونا الشيخ من فراشه اللحظة ، فرآنا على هذه الصورة ، لحزن أشد الحزن ، وتأسف غاية الأسف ، لأنه كان فى حياته يحب الحلو ويستطيب الفاكهة . فانبرى قروى بدين يلقى نكتة فى الجمع فقال : قسمته إذن ، وما أحسبه متلذذا بعد اليوم بطعام كهذا .. يا جماعة رفقا بأنفسكم وباللقم ، واحدا واحدا ، وكل فى دوره ..

ولم يجد القوم لهذه الإشارة التى أبداها هذا الماجن الجرئ ملمحا لحالة العليل وحرمانه من لذات الدنيا وطعامها الجيد الشهى ، بل تطلقوا من بعد وجوم ، وراحوا يتماجنون ويتفاكهون . وجاء دور التفاح ، ومضت مدام شيكو تسعى على القوم بزجاجات الشراب ..وما عتم المدعوون أن انتشوا ، فراحوا يضحكون ويتصايحون من فرح وسرور .

وفيما هم فى قصف ومراح ومجون وضجة وصياح ، إذ أقبلت عجوز من النساء ، وكانت قد تخلفت عنهم فى حجرة العليل لترثيه ، فأطلت على القوم القاصفين فصاحت بهم قائلة :

« لقد مات » ..

وإذ ذاك ساد الجمع صمت رهيب ، وقامت النسوة مسرعات ليرين الميت ، فإذا هو جثة هامدة ، قد سكتت نأمته ، وانقطعت حشرجته ، وجلس الرجال يتبادلون النظر واجمين ، وينكسون الطرف متململين متضايقين ، لأنهم لم ينتهوا بعد من تفاحهم وشرابهم ، ولم يأخذوا منها كفايتهم . حقا إنه لفصل بارد من هذا الميت الفاسد الذوق ..لقد كان أولى به أن يؤجلها حتى ينتهوا من شرابهم ولقمتهم . ولم يبك الزوجان ولم يستسلما لنحيب .. لقد انتهت المسألة على كل حال ، فعلام البكاء وفيم النحيب ، بل بالعكس لقد سرى عنهما واطمأنا بعد طول قلق ، ومضيا يرددان قولهما : لقد كنا متأكدين أنه لن يعيش

الليلة ، ولكن لو أنه فعلها ليلة أمس لأغنانا عن كل هذا التعب .

وهكذا انتهت الحكاية ، وتمت النية على أن تكون الدفنة يوم الاثنين ، وإن كان الزوجان مضطرين إلى صنع لقمة القاضى من جديد ، وإيلام وليمة الجنازة مرة أخرى ، وقد تخيلا هذا المصروف الباهظ ، والنفقة المتكررة ، فتألما سرا وتسخطا ، وجعلا ينظران إلى المدعوين المناهيم الشرهين نظرة الحقد والنفور .. وانصرف هؤلاء وهم يتحدثون فى هذه الحكاية العجيبة مسرورين من أنهم سيستمتعون بأكلة أخرى وشراب وتفاح لذيذ يسر الآكلين .

ولما خلا الزوجان ، انثنت الزوجة تقول وهى متألمة ساخطة : سنضطر إلى عمل لقمة القاضى مرة أخرى ، لست أدرى لماذا لم ينو على الموت من ليلة أمس ، أموت وخراب ديار ؟ .. إنه لفصل أليم . وقال الزوج بلهجة المستسلم لقضاء الله : لا عليك من هذا يا زوجة ،فإنها الأولى والأخيرة ولله الحمد ، ولا تنسى أن المرحوم – غفر الله له – قد ترك لنا مبلغا لا بأس به ، فلتكن هذه التكاليف المضاعفة على حسابه ..فلن نخسر شيئا ..

الفتى الجميل

كانت « تاتيا كارولى » تغنى ، وكان غناؤها مشجيا يستثير الحنين ، ويطرب المسامع ، ويلعج الأفئدة ، غناء حلو النغم ، مرير الأثر ، تطريبا وترجيعا ، وكانت المغنية هيفاء أخاذة بالألباب ، فى ثوب من المخمل شفاف ، خفيفة الحركات ، فاترة اللحاظ ، عميقة الصوت ..

وكان المهذار « فوليت » مستندا إلى البيانو وقد بدا منظره مضحكا ورهيبا معا ، بوجهه الأسود الفاحم وفمه الرحيب كأنه الجرح البالغ فى تلك الصفحة السوداء . وجلس القرفصاء بضعة زنوج يضربون الطبول ضربا منسجما على أنغام المعزف .

وكان المشهد الأوحد الذى استرعى الأنظار فى ذلك المساء عراكا بين كلب دانيماركى ضخم وزنجى شيخ قد تزيا بزى امرأة هجينة . فقد راح الكلب يكر ويفر حيال خصمه فى غضبة المقاتل وجنة المصارع يجالد ثورا أعمى يتحسس مكان مجالده ومضى يجذبه من ردائه ويشده من ثيابه كلما أمكنته الفرصة منه بينما جعل الرجل يؤدى دوره فى فتور المستسلم فكان منظره على تلك الصورة مضحكا ومؤلما فى آن واحد ... .

وانثنت غادة فى النظارة تدعى « نويل دى فريجيس » تضحك لجليسها قائلة من أى مخبأ فى الأرض استطاعت هذه الجوقة أن تجلب هذا الشيخ العجيب « نبئنى يا لورد شفيلد بخبره » إنى أراك العليم لا يغيب عنك شىء ! ..فقال جليسها الذى سمته باسمه : مسكين هذا الرجل ، إنه يدعى « جيمس استرلنج » وقد تغير كثيرا عما كان فى صباه . ولا أحسبك تتصورين أن هذا الشيخ الذى ترينه أمامك كان فيما مضى من زمانه أغيد مليحا ولكنه كان كذلك والله بل كان الجميل المهيب ورب القد المديد والطلعة الرائعة ، وما غير منه إلا حبه الحياة وإسرافه على النفس . وكان بجانب ذلك فى شجاعة

الليث ولم يكن يحفل بما يقول الناس عنه . وقد اشتهر فى أوج حياته وعرفه الناس فى أنضر أيامه بالبراعة الفائقة فى ركوب الخيل فى الملاعب ورياضتها على مسارح المعرض المتنقلة » ..

فلم يكد « اللورد شفيلد » يذكر ذلك عن الشيخ الغريب حتى عاجلته محدثته قائلة : لقد أذكرتنى اللحظة بما قلت .. نعم .. نعم ..لقد حضرنى ما كان عن بالى غائبا .. ألم يكن هو الرجل الذى من أجله اشتجرت هذه المغنية « كارولى » مع مزاحمتها عليه « بلانش توبان » فضربتها بالسوط على وجهها حقدا وتشفيا ؟ ولكن عجبا ما الذى أصاره اليوم إلى ما نرى .. ؟

والتفت المتحدثان صوب المسرح فإذا جماعة من القردة البشعة الغزار الشعر الزرق الوجوه قد أرسلت أشعارها جدائل سبطة على أكتافها ، وقد راحت تتراقص حول رئيسها القرد الأكبر . ومد لورد شفيلد كفه إلى صاحبته بعنقود من العنب واستطرد يقول : إن لهذا الشيخ قصة لا تسر ، ولكن كل القصص الصادقة الحقيقية كذلك ، وأنا منبئك اللحظة بها فاستمعى :

وقع هذا الرجل فى حب فتاة من « الغجر » لقيها يوما متجولة فى البلاد مع فرقة من أهلها ، طوافة تضرب فى القرى التماس الرزق بعرض الألعاب وحيل الحواة . وكانت الفتاة فى العشرين مفتولة البدن جريئة باسلة تدهش الناس بجمال وجهها وتناسب أعضائها وخفة حركتها.وكانت بشرتها العطرة المضمخة فى مثل نعومة الحرير ورقة الخز فاحمة الشعر فى مثل سواد عينيها الناعستين ، وهى أبدا مفراح لا يفتر ثغرها عن ابتسام وضحك ومزاح . تمنى النفس ولا تمنح ، وتعد الحب ولا تهب ، وتسحر اللب ولا تبطل السحر بالوصل والقرب ، تركب الخيل الجرد وتعلو متون السوابح بلا سروج ولا لجم،وتنبطح على ظهور الصافنات كأنها على فراش وثير مستلقية وقد اختلطت جدائلها بأعراف الجياد ،وراح بدنها البض يهتز مع حركات السابحات ويترنح مع ترنحها . وهى تلعب فوق ظهورها بكرتها النحاسية وتطوح الخناجر فى الهواء وتتلقاها بأسنانها ، وكان اسمها حلوا مثلها ، لقد كانوا يدعونها « ساشا » . وما لبثت أن أحبت « جيمس استرلنج » هذا لشدة بأسه وملاحة

وجهه وتلطفه إلى النساء ورقة أحاديثه ،ومن أجلها صرع هو كذلك رجلا إيطاليا كان فى الملعب مروض وحوش وكان يكثر النظر إليها والتشبيب بها فأهوى عليه بلكمة بين عينيه ألقته صريعا .

وتحابا حبا ليس كمثل حبهما فى الناس شىء ، فلم يكونا ليأبها بالفاقة أو يأسفا على الشظف والمتربة . فإذا خلا وطابهما من الزاد ، وطلبا الطعام فعز عليهما الطعام ، لم يحزنا ولم يتشاكيا المسغبة ، بل راحا يأكلان من الحب ويشربان . نعم والله لقد كان زواجهما حبا بوهيميا عجيبا ليس لمثلنا قبل بمثله ..حبا متين الصلات ، قوى الروابط ، لا ينصرف الزوج فيه عن زوجه ، ولا يفارق الأليف إلفه لكلمة طائشة يسمعها منه ، أو طلبا للتنويع ، أو مطاوعة للوهم والشذوذ ، أو تغيرا مع غير الزمان وصروف الدهر . ولكنها بعد حين حملت منه فلم تأس على شئ غير مخافتها الاحتجاب عن الملعب ، واضطرارها إلى الغياب عن المسرح، واختفاء اسمها من لوح الإعلان وبرنامج المساء . جاءها المخاض قبيل أوان الوضع فلزمت فراشها ، وكان « جيمس » زوجها يتصور أنه ولا ريب باخع نفسه ألما لألمها وحزنا لأوجاعها . ولم تكد تمضى ثلاثة أيام على ولادتها وقد قضتها فى أشد الأوجاع وأمر العذب حتى لفظت أنفاسها الأخيرة وكفها فى كفه ، وداع حبيب راحل لحبيب .. وتركت له من بعدها وليدا جميلا أشبه شىء به فمضى يعيش لأجله ويتفانى فيه ويحوطه برعايته ويوليه حبه وعصارة حياته ، حتى نشأ الطفل يناديه « ماما استرلنج » وسمع أهل الملعب بهذه الكنية فاقتدوا بالوليد وراحوا ينادونه بها أبدا .

ولما بلغ ابنه مبلغ الشباب حذق الألعاب وظهرت براعته فى الملعب وتجلت نجابته فى الساحة ، فراح يتلقى راتبا طيبا ، وتصفيقا من النظارة وإعجابا ، فقد كان مليحا « متناسب الأعضاء » بديع الصورة خفيف الحركة ، وكان رسمه الظاهر على الإعلانات مجلبة للنظار وإغراء للناس بالدخول ..

ففى ذات مساء بعد أن فرغ من اللعب ، وهتف المشاهدون باسمه وصفقوا طويلا له استحسانا وإعجابا ، أقبل عليه المهذار الزنجى « توم بيرز » يهنئه ويطرفه قائلا على سبيل المزاح والتفكه « إن لك يا غلام لمستقبلا باهرا ، وزمانك

والله قادم وشيكا إن لم يدق عنقك » فقال الغلام ضاحكا « لا تخش يا شيخ السوء فإنى على العنق حريص ! » .

ولكنه كان فى الملعب مفرط الجسارة ، كلما طوح بدنه فى الهواء خيل إلى الناس أن عضلاته من الفولاذ وأن صدره لا يهتز مطلقا ولا يعلو ولا يهبط ، وأن جدائل شعره لا تنتشر على لمته ، ولا قطرة من عرق تنحدر من جبينه .

وكان يبتسم للجمهور ابتسامة المستخف الساخر ، ويومض إيماضة المستهين غير المبالى ، هازئا بالخطر ، ينثنى فى وسط أشد الألعاب خطرا وأرهب الحركات منظرا ، فيضج ضاحكا أو يزأر زأرة الوحش الكاسر ، لايعبأ بالموت ولا يجفل من ملاقاته ..

وجعل أبوه « جيمس » يرعاه ويرقبه ولا رعاية أم الممثلة لابنتها ، ومراقبتها لحركات فلذة كبدها على المسرح إذا بدت للأبصار .

وكانا يسكنان دارا صغيرة غطيت جدران حجراتها بالإعلانات الملونة وغير الملونة مكتوبة بمختلف اللغات ، ناشرة صور هذا اللاعب البطل ذاكرة اسمه بأحرف غلاظ . وبجانب الإعلانات العديدة صور شمسية له فى أوضاع متعددة وأشكال منوعة ..

ففى ذات ليلة لم يعد الفتى إلى الدار وبات بعيدا عن أبيه ، فلم يره الشيخ إلا صبيحة اليوم التالى فى المسرح وقت الإعادة والتدريب « البروفات » ، فإذا هو يلوح متعبا قريح العين من فرط السهر ، مشقق الشفتين من حرارة الحمى شاحب اللون ، ولكنه بجانب ذلك كان يبدو المفراح السعيد الطروب ، حتى لقد خيل إلى أبيه إذ شهده كأنما قد أصابه سهم مريش فاصماه ، أو خنجر حاد فى صدره فأدماه ، ولم يجرؤ على تأنيبه ، ولم تطاوعه النفس على ملامه . أما الفتى فقد راح من فرط ما به من سعادة وجذل ومراح يود لو يسكب بعض الذى ملأ فؤاده من الشعور الجديد ، وينفس عما فى صدره من الإحساس الفياض الشديد ، ولم يلبث أن انطلق مع الجرأة والدلال على أبيه يقص عليه فى فرحة الطفل يتحدث إلى أمه العجوز ، أو حديث الأخ الصغير إلى الأخ الأكبر ، كل ما كان فى أمس من متع الحب وخلسه ، وكيف استبته مليحة

ذهبية الفروع ، واحتوته فى ذراعيها وأذاقته لأول مرة طعم ملذات الجسد .
وأنشأ يشرح لأبيه كيف وقع فى هذا الحب وكيف جرى اللقاء واستلب اللب ،
فقال له إنها كانت تجئ فى كل ليلة إلى الملهى فتجلس فى مقصورة واحدة
لا تتغير ، وتبعث إليه بالرسائل المعطرة الأرجة « الفياحة بشذى مسكر مذهل » ،
وما زالت كذلك به حتى اجتذبته كما تجذب العين فاكهة غريبة نفاحة نادرة .
وكانت تحضر الملعب فى بعض الليالى مع رجال وجهاء فى ثياب السهرات
حلوا عرى أرديتهم بزهر ، وبدوا فى المجلس سراة أهل نشب وخطر ، وهى
تلوح متململة منهم ضجرة من مجالسهم ، منصرفة عنهم إلى تأمل حركاته
ومشاهدة ألعابه ، تبتسم له هو وحده ولا تظهر مللا ولا تبدى ضجرا . وجعلت
تجيء فى بعض الأحايين وحدها محلية أذنيها الصغيرتين الحمراوين بأقراط من
لؤلؤ ومرجان ، فلا يكاد يفرغ من ألعابه حتى تنهض منصرفة به لا تريد مكثا .

وكذلك مضى أمرها حتى كانت ليلة مشهودة فى تاريخ هذا الحب ، ليلة
أخذته إلى مركبتها دون أن تأذن له فى تبديل ثيابه التى يلبسها فى الملعب ..
لله ما كان أعذب تلك الراكبة الساحرة إلى دارها فى المركبة الفخمة السنية ،
وهو جالس لصق بدنها الدافئ الراعش سجين فى التزامتها المسكرة ، منتعش
من عطرها النفاح ، وأزاهرها المتأرجة ، ثمل من فتنة خفية لا يعرفها ، وسحر
غريب لم يكن له من قبل عهد . وكانت قبلاتها قبلات ملك مطلق الأمر
والنهى ، عظيم الجلال رائع الجمال ، تضع شفتيها على شفتيه ثم تتركهما
كذلك مليا ، وهما تضغطان شفتيه وتحرقانهما بأوارهما ، وتنعمان روحه من
حنجرتها وتهدان ما فيه من قوة ، وتبددان ما فى نفسه من بأس . وراحت
تمسك رأسه بيديها والمركبة تطوى الأرض فى سكنة الليل وهى تلفه بردائها
حانية عليه ، تزمله وتدثره خيفة البرد واتقاء الهواء ، وتستمع إلى حديثه عن
الملعب والفن ..

ولما دخلا مخدعها الصغير البديع إذا هو فى حجرة فخمة الرياش ، تجملت
بأستار وحليت بصور وفرشت ببسط ونسقت بأرائك ، وإذا العشاء قد وضع
والخوان الصغير فى المخدع قد هيئ ، فجلسا يأكلان ، ومضت هى تختار له

الأطعمة وتضع له اللقم فى فمه وتمد إليه الصحاف متظرفة متدللة ، حانية مكرمة، وهما فى ذهلة قد نسيا العالم وما حوى ..

تلك قصة الفتى لأبيه « ماما استرلنج » وقد جلس أبوه يسمع القصة مندهشا مضطرب الإحساس ذاهل اللب ، ولكنه لم يشأ أن يقسو على الغلام أو يحاول زجره عن لذة هذا الغرام ، وقد رآه فى أشد الفرحة به وشهده ثملا بخمرته. ولكنه أدرك أن تلك المرأة التى راودته عن نفسها مخلوقة بغى ، وإنسانة غاوية فاسدة لا أكثر ولا أقل ، فلم يخش على فتاه من هذه العلاقة الجديدة إذ عرف أن الكلف بمثلها أهون من الكلف بامرأة شريفة ، أو إنسانة ذات عرض إذا تغير الرجل لها فلن تستسلم ولن تهدأ أو تنتقم ، على حين لا خطر ولا ضير من ترك المرأة البغى اللاهية بالرجال إذا مل الرجل منا وضجر .

وكانت تلك المرأة تدعى « نيللى دارجين » امرأة سوء ، أعجبها الفتى بقوته وتفتل عضله ، فهاج حواسها وألهب مشاعرها ، فتأججت كما تتأجج الجذوات الخابية هبت عليها أنفاس الريح ، أو نفخ فيها الإعصار فأشعلها وأثار نارها من تحت رمادها الأبيض !

وكان الفتى « استرلنج » مخلوقا إذا أحب جد به الحب ، وأخا عاطفة إذا مالت إلى امرأة مالت بكليتها ووهبت جميع ما تملك من ذاتها ، فلم يكد الحب يثور فى نفسه حتى عاد غيورا رهن هواجس ، مستريبا لا يهدأ له بال أو يطمئن على احتكار الفؤاد الذى ملكه ، ولم يكن ليدور فى خلده أن هذا الحب سينتهى يوما من الأيام أو يمشى آخر الدهر إلى ختام ، وكان من كبريائه وزهوه وحرارة دمه لا يعتقد أن هذه المرأة معرضة عنه يوما ، أو طاردته من جنتها كما يطرد السائل الملحف السمج المزعج !

وكان « ماما استرلنج » قد ادخر شيئا من المال يستثمره لليوم الخطير ، وزمان الشدائد وعهد الشيخوخة والقعود عن العمل ، فجعل يحرم نفسه من كثير ليعين فتاه بالمال ينفقه على خليلته حتى يسعد بها ، وتستطيل لذاته ، وكذلك مضى يقتر فى نفقاته ويستدين لفتاه ومناعمه وخلواته ، حتى ركبه الدين ورهن راتبه سلفا ، ووقع فى مخالب المرابين الذين يغشون الملاعب ليقيدوا

الطرائد والفريسات .

وما لبث « استرلنج » الصغير أن تمادى مع الهوى ، واشتدت الغيرة المخبوءة بنفسه فمضى يتبع « نيللى » إلى كل مكان ، ويلاحظ حركاتها وسكناتها ويسألها عن غيابها إذا غابت ، ويستجوبها إذا اختفت عن ناظره ، حتى جعلت المرأة تمل لعبتها وتضجر من ملهاتها ، وازداد على الأيام نفورها منه إذ ازداد هو غيرة وتعلقا بها ، فاحتقرته ولفظته كما فعلت من قبله بكثيرين .

ورأى الغلام ذلك منها فمضى يقذف بنفسه فى عمله ، ليخفى الحزن اللافح الذى يأكل فؤاده ويقتله رويدا .

وجاءت « نيللى » ذات ليلة فجلست فى إحدى المقاصير مع أربعة أو خمسة ضباط متشاغلة عن النظر إلى ألعابه لاهية لا تلقى عينا إلى حركاته .. ورأى إعراضها ذاك فجن جنونه ، وأجمع النية على أن يلفت نظرها إليه مهما كلفه ذلك من ثمن فطوح بدنه تطويحة جنونية فى الفضاء . ورأى النظارة هذه الحركة الهائلة منه فارتفعت الحناجر بصيحات الرعب والفزع .

وحملوه مهشم البدن مدفوق العظم على آخر رمق من الحياة ، وقد انطبق صدره ، وتحطم جسمه .

وتناولت « نيللى » رداءها من المشجب غاضبة محنقة ، وانصرفت وهى تقول : ما هذا البرود ، نجئ وتدفع فلوسنا لنتلهى ونسر ، فإذا مأساة تزعج ، ومنظر شنيع المشهد !

وكذلك لم يبق « لماما استرلنج » من شئ يحبه ويعيش لأجله ويتفانى فيه . لقد ذهب فتاه فريسة امرأة سوء دنسة قد فؤادها من جلمود ، فراح الشيخ يلح على الشراب ،

وتطوح به طوائح الزمن من حان إلى حان ، ومن ملعب إلى ملعب ، والسقوط كما تعلمين يا عزيزتى سريع وشيك وإن كان الارتفاع شاقا بطيئا ، ولذلك لم يلبث الشيخ أن صار إلى ما ترين ..إن الحياة والله قاسية على أهل القلوب الرقيقة ، والنفوس الحساسة ، والمشاعر الشفافة ، ولكن حمدا لله على أن أولئك فى الدنيا قليلون !!

فاجعة الربيع

صديقي العزيز :

إن ما سألتنيه ليس بعجيب ، ولو كنت فى مكانك لسألتك عين سؤالك .. ولذلك سأحاول جهدى بإذن الله أن أجيب رغبتك وأحقق طلبتك ، وإن كنت كما علمتنى رجلا لا أجيد كتابة الرسائل .

أنت تطلب منى وصفا للبلاد التى أتنقل اليوم فى ربوعها ، وتسألنى أن أصور لك تأثير مشاهدها فى نفسي وإحساسي ، من ناحية أهلها وطباعهم وحياتهم وأساليب عيشهم . بل لقد أردت منى أن أصف لك فى إيجاز بديع ، وإجمال واف ، وأسلوب سهل ، فى مثل لهجات القرويين وسذاجة أهل الريف ، عواطف السكان وعاداتهم ، ونفسية الشعب ومزاجه ، ومشاعر الأهلين وأخلاقهم . ثم عدت تطلب إلى أن أوافيك بأية حوادث تتفق لى فى طريقي ، وأية نوادر حب أو غرام أو مخاطرة أو فكاهة أصيبها من تطوافى ، وأراك أيها الصديق منهموما بما طلبت ، جائعا شرها إلى ما سألت ، وإنه لشره ذهنى هو أسوأ أنواع الشره لأنه ملحاح لا يسكن ، غلاب لا يقهر ، مسعور لا يخمد له سعير ، ولا يهدأ له سعار ..

ولكنى على كل حال متعهد لك أننى بإذن الله فاعل غاية جهدى ، ولعلى كاتب إليك بعد أيام فانتظر حتى يرد عليك منى كتاب مستطيل .

والسلام عليك ..

٢

لقد تنقلت فى بلاد كثيرة منذ كتبت إليك أول مرة ، ولكنى في أسفارى هذه جميعا لزمت السفر مع الناس ، واتبعت السبل المطروقة ، فلم أظفر طبعا بشيء يستحق الوصف ، ولم أقع على مشاهد عجيبة ولا نوادر طريفة ،

ولا حوادث غير مألوفة يصح أن أشرحها لك ، ولست أنكر أن السفر مع الناس لا يلذ المسافر فى شىء سوى الاستمتاع بسخف أحاديثهم واستنطاعهم ، وغرابة أذواقهم وشذوذ سلوكهم ، ولكن المرء منا لا يتعلم منهم شيئا جديدا ، ولا يصيب منهم درسا مفيدا ، ولا يقع منهم على أمر مستغرب ، وهم جميعا من « العينة » التى عرفناها والفاتورة التى ألفناها ، والأشكال التى طالما مللناها والقوالب البشرية الغثة التى سئمناها ، فلا حاجة بى إلى وصفهم ، لأنك تعرفهم وإن لم تكن حاضرا أمرهم . « وقد انحدرت رأسا إلى الجنوب ، والنفس متشوقة إلى التمتع بألوان الطبيعة الزاهية ، ومشهد الشمس الحارة ، ومطعم الشراب الجيد المعتق ، عصير التفاح وسليل العناقيد .

ولما بلغت الجنوب عرجت على الأماكن المعروفة ، وزرت البقاع المألوفة التى يزورها السائحون ، ويحج إليها المسافرون ، ولا زيارات الحجيج إلى الركن والحطيم ، أو حج النصارى إلى مدينة أورشليم .. وعرجت على موناكو ولهوت فيها مع اللاهين ، ولكنى لم أصب حتى الآن شيئا عجيبا يستحق الذكر ، وليس لدى من طريف أقصه عليك ، ولكن صبرا ولا تعجل فإنى واثق أننى لن ألبث أن أقع على شئ طيب أصفه لك ، أو حديث عجيب أقصه عليك ..

٣

الربيع والخريف فصلان جميلان وإن تناقضا ، بديعان فى الحق وإن تباينا ، ولطالما لاحظت أن الشباب يؤثرون كهولة الخريف ، وأن الشيوخ والكبار يفضلون حداثة الربيع ، ولست أدرى فى الواقع أيهما أوثر ، وكلاهما عندى بديع فى ذاته ولكل حسنه وفتنته . فأما الخريف فأكبر ظنى أنه يبعث الفكر ، وأما الربيع فذلك فصل يهيج الإحساس ، فالخريف إذن هو فصل الروح والربيع فصل الجسم ، والخريف سمویّ فى مطالبه والربيع أرضىّ فى شهواته ورغائبه ..

أجل والله ، إن الربيع لهو الفصل الشهوانى وأنا اليوم متبين ذلك هنا ، فإن الربيع فى هذا الموضع أجمل شئ شهدته ، وأروع زمان فى الحياة قضيته .. وإنك لترى الشمس الذهبية ، والسماء المصحية ، وتسمع الأطيار الصوادح

هادلة هاتفة ، فتعجب كيف يمكن أن يحوى هذا العالم شيئا يسمى القسوة ، أو الألم ، أو الحزن ، أو الموت ..

وإنى لأجوس خلال هذه المشاهد الفاتنة فلا أنى أنسى الدنيا بما فيها ، ولا أعود أطلب طرفا نوادر ، ولا ألتمس قصصا عجائب ، ولا أبحث عن أحاديث حب وغرام ، مكتفيا عن ذلك بما يتراءى لعينى منه فى الطبيعة نفسها ، وهى بادية على بساطتها ، متجلية على حقيقتها ، ولو أنك كنت معى ورأيت الذى رأيت ، لما عجبت لى كيف لا أجد ما أكتبه إليك .. إننى يا صديقى مأخوذ بجمال كل شئ حولى ، وجلال ما يحفنى .. الأزاهر والأرج الفياح .. والظلال الناضرة والأفياء الوارفة .. تبارك الله .. ما أجمل ربيع الجنوب وما أعجبه .

٤

لقد وقع ما كنت تطلب .. وعندى قصة أُحدثك بها .. والعجيب فى أمرها أننى ظفرت بها قبل أن أتوقع أننى مصيبها ، ولكنى لا أدرى أتراك ستتألم لها وتود لو أننى لم أقصصها عليك ، أم متقبلها على ما فيها من ألم ..

وإليك ما جرى ..

خرجت فى ذات يوم أتنزه ، فانحرفت عن جادة الطريق وانطلقت أمشى على غير هدى ، فما لبثت الأصوات أن أخفتت وتلاشت ، ووجدتنى وحدى ففرحت لوحدتى ، وأنست لعزلتى ، وأجمعت النية على أن أواصل المسير فى بهرة تلك المشاهد الرائعة لأرى إلى أى غاية هى مؤدية بى .

وعطفت فى طريقى على الغابة فانطلقت فى منافسها مسرورا لاهيا ، أمتع الحواس بمشهد السندس والإستبرق والأزاهر الجميلة والدوح الباسق ، وريح الخزامى والزنبق ، ودبيب الحشرات الصغار ، وشدو العصافير والأطيار ، والهواء العليل السجسج ، والظل الوارف المبهج .وغادرت الغابة ورائى ، ورحت أجتاز حقلا مترامى الأنحاء من أشجار البرتقال ، وقد أتيت على الحقل فجأة كما يمر المرء منا بموضع جميل فى الأحلام ، ومضيت من ذهلتى أحملق البصر

مأخوذا بروعة المشهد وجلاله ، متمنيا على الله لو أنى تركت فى ذلك الموضع آخر الدهر فلا أبرحه ، ولو كدحت فيه لرزقى ، وحملت الفأس وحرثت الأرض ، وأقمت بالريف وجاورت أهله . وفيما كنت أحدث النفس وأناجيها بمناى هذا ، رأيت شيخا من الفلاحين يدلف نحوى متكئا على عصاه وهو لا يلوى على شىء ، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يعبأ بما حوله من جمال الطبيعة وجلالها ، ولا تأخذ عينه حسن المشهد وفتنته ، فمضيت أسائل نفسى : أإذا تحقق مناى وجئت أقيم فى بهرة هذا الجلال وأنعم بمتعة هذا الجمال ، ترانى على الدهر سأمر به منكرا له ، وأتنقل بعينى بين مشاهده غير عابئ به ، كما رأيت هذا الشيخ المتهدم ؟

أواه .. أيها الصديق .. أفى الحق سأمر بالجمال فلا أحفل به ، وأشهد الحسن الفاتن فآخذه قضية مسلما بها .. أيحتمل ذلك ؟ . أهو على الأيام واقع ؟ . ألا نبئنى ألم تنم يوما فى حقل من أشجار البرتقال ؟ ، إذا كان ذلك فقد عرفت ولا ريب النشوة العجيبة التى تتمشى منه فى المفاصل ، والأثر المسكر الذى يستحوذ على الحواس من عبقه الفياح ، وشذاه النفاح .. إنه والله لأشبه شىء فى تأثيره بالعقار المخدر الذى تصنعه أيدى الحور ، وتسعى عليك به الجنيات الساحرات ، وما هو فى شىء من ذلك الأفيون الذى يتعاطاه أهل هذه الدنيا ليستقدموا طيف الكرى ، ويعالجوا به النوم إذا عز ، والأرق إذا استحوذ ، ويعلم الله لقد وجدتنى مهوما فى ذلك الموضع وقد أخذتنى هنالك من النوم سنة ..

ولا تحسبن الحقل قائما فى سهل منبسط ، فإنه على النقيض من ذلك يترامى على الربى ، وفى الموضع أباطح ووديان ، ويفاع وتلاع ، وسهول وقيعان ، والجبال متناوحات ، بين هوابط وصواعد ، وسلاسل وعقود ، وهنالك يكثر الليمون كما نما البرتقال . وعلى كثب من المكان الذى بلغته رأيت صهريجا أقامه القوم لتخزين ماء الأمطار ، وعلى حوافه شهدت شقوقا رحيبة مخوفة ، لو سقط رجل فيها لظل حيث سقط لا ينجيه من موضعه شىء حتى يأتيه الموت فى مكانه .

وانطلقت فى طريقى وعيدان الزهر حولى تتكاثف رويدا ، وتطبق ألفافها شيئا فشيئا ، حتى أفعم شذاها العبق جميع أنحاء نفسى وأسكر حواسى ، فرحت أدير العين في الموضع ألتمس مكانا أستريح عنده ، وقد تراخت أعصابى وتخاذلت ساقاى ، وأحسب ذلك من نشوة العبير ، وطول شقة المسير .

ورأيت العشب حولى نديا ، فأدركت أننى على مقربة من عين جارية ، ففكرت فى الصعود قليلا لعلى آت عليها ، ولكنى لم ألبث أن وجدتنى حيال صهريج أو خزان عميق رحيب الجوانب ، ولم أجد ثم نبعا ولا عينا ..فجلست قبالة ذلك الصهريج فإذا الماء فيه أسود كالمداد وقد استحال الآسن الراكد ، ولكنى من خلال أغصان الشجر استطعت أن أرى أمواج البحر الأبيض من مكان بعيد ساطعة متلألئة ، حتى لقد ارتد طرفى من وهجها حسيرا كليلا . وفيما كنت أقارن فى نفسى بين ذلك الدفاع المتلاطم ، وبين هذا الماء الآسن الراكد الفاحم إذ طرق سمعى فجأة صوت إنسان بجانبى ففزعت ووجفت ، وإذا الشيخ فى ثوب حسن ، أحسبه جاء إلى ذلك الموضع يتخير لبستانه مما حفل من غرائب النبات ، وعجائب الزهر . فتقدم نحوى قائلا : أظنك يا سيدى أحد أقارب الصغيرين المسكينين ؟ فنظرت إليه مبهوتا وقلت : أى صغيرين تعنى يا سيدى ؟ فارتبك الرجل ولكنه راح يجيبنى منحنيا انحناءة التأدب وقال : أستمحيك معذرة يا سيدى ، فقد رأيتك جالسا بجانب هذا الصهريج جلسة المفكر المتأمل ، فظننتك تفكر فى ذلك الحادث الأليم الفاجع الذى جرى هنا منذ عام أو عامين .

فلم أكد أسمع أيها الصديق كلمة الشيخ حتى ثار فضولى وذكرت ما كنت قد سألتنيه ، فرجوت إليه أن يقص على نبأ ذلك الحادث وقد فعل ، ولكنى قبل أن أنقله إليك كما سمعته منه لا أكتمك خوفى من أنك ستتألم للقصة ، وتأسف على أنك سألتنى ما سألت ، لأنها فى الحق قصة محزنة فاجعة رهيبة ، ولكـن لعلك مدرك المغزى العظيم الذى أدركته أنا من خلالها ، وقد أحسست وجيعة أليمة من هذه القصة بعد أن فرغ الشيخ منها ، فـدق فؤادى واضطربت أعصابى ، وكان الرجل محدثا بارعا وفصيحا بالغ العبارة .. وأحسبك لن تجد

فيها ما وجدت من شدة التأثير ، لانـــك ستقرأها فى حجرة ضيقة ولم تسمعها كما سمعتها مـــن فم ذلك الشيخ الساحر الصوت ، وتشهـــد الموضع الذى جـــرت فيه كما شهـــدت ..

٥

كان ربيع .. وقد جاء غلامان صغيران يلعبان ويرتعان على كثب من الصهريج كما اعتادا أن يفعلا من الصغر ، وكان معهما مؤدبهما وقد جلس تحت شجرة فى ساقية وأكب على كتاب له يقرأه ، فلم يكد يجلس لحظة حتى انتبه من سكينته على صرخة مخيفة تلاها صوت سقوط شيء ثقيل الحجم فى ذلك الصهريج ، وكان الوقت أصيلا شديد اللفحات ، وكان المعلم على وشك أن يغفى فى موضعه ولكنه على تلك الصرخة الرهيبة المزعجة استوى على ساقيه ، وأرسل بصره من فوق سياج الصهريج فإذا الصبى الصغير ، وهو غلام فى الحادية عشرة ،واقف على حافة الخزان يصيح وينظر كالمنوم المسحور إلى الموضع الذى سقط فيه أخوه الكبير ، فلم يكد المعلم يرى ذلك المشهد الأليم حتى اشتد به الجزع ، فلم تستحوذ عليه أية حيلة مغقولة « عملية » ، .. بل راح يلقى بنفسه فى خطفة البرق فى جوف ذلك الصهريج المخيف ، وتهشمت جمجمته فى سقطته فمات لساعته . بيد أن الصبى الصغير استطاع فى اللحظة الأخيرة أن يبلغ السطح ويلوح بذراعه لأخيه تلويحة التشجيع والأمل ، فلم يكن من هذا إلا أن تطاول وتحامل ، ورآه الصغير فتشجع ، وأخذ يسبح إلى الجدار ويمسك باليد التى امتدت إليه . وكذلك لم تمض لحظات قلائل حتى اجتمعت الأيدى وتماسكت وارتبطت واشتبكت ثم ما لبث الأخوان أن رجفا إذ أدركا أن الخطر الذى كان محدقا بهما قد زال وأن حياتهما قد نجت . ولكن النجاة لم تتم بعد ، فقد بقى أن يشد الصغير لإصعاده من فوق جدار البئر ، وكانا قد نسيا ذلك ولم يدر فى خلدهما أن التوازن غير كاف ، وأنهما صغيران لا يستطيع أحدهما أن يجذب بدن أخيه إليه ..

ولما أدركا أخيرا هذه الحقيقة الأليمة ، ظلا جامدين فى مكانيهما مأخوذين من الرعب .. وكذلك لبثا ..

وما عتم الصغير أن أمسك بكفى أخيه الأكبر بكل قوته ، وأنشأ يبكى وينشج ويقول : لا أستطيع الشد ولا الوثب . ثم انثنى فجأة يصيح « النجدة » « الغوث » .. ولكن صوته الضعيف تبدد فى فضاء الصهريج متلاشيا ..

واحسرتاه ... لا أمل ...وا أسفاه .. لا رجاء ..

ولبثا ثم طويلا وتوالت الساعات وقد وقف الصغيران وجها لوجه تجرى فى خاطريهما فكرة واحدة ، وتعانى نفساهما عذابا واحدا ، وهما مدركان أن أحدهما لا يلبث أن يتراخى فيترك يدى أخيه .

وناديا واستصرخا واستغاثا فلا مجيب ولا مصرخ ولا مغيث ، وأهابا بالمعلم ، ولم يدريا أنه قد رقد رقدته الأخيرة فى قاع ذلك الصهريج فلم يعد يستطيع لهما إنقاذا ولا يقدر على شيء . وأخيرا راح الكبير وكان يرعش من البرد يقول لأخيه : لست أستطيع الإمساك بك وأنا مضطر إلى ترك يديك ، فوداعا إذن يا أخى العزيز . ولكن أخاه أجاب وهو يلهث ويضطرب : كلا .. لا تتركنى ... انتظر لحظة أخرى ، أتوسل إليك أن تنتظر ..

وحل المساء وعمت السكينة الفضاء ، ثم أوغل الليل وبرزت الكواكب ، وإذ ذاك كاد الصبى يبكى من فرط الضعف والكلال قائلا : اترك إحدى يدى لأننى أريد أن أعطيك ساعتى ، وكان الغلام بساعته فخورا إذ كان قد ظفر بها هدية منذ أيام قلائل ... وتناولها فى تلك اللحظة من جيبه فمد يده بها إلى أخيه فأخذها هذا منه وهو ينتحب ، فألقاها فوق الطحلب .

وساد الظلام ، وتخاذلت الأيدى وتراخت الأكف ، وأحس الغلام الأول أنه قد أشرف على الهلاك ، فهمس لأخيه قائلا : « وداعا أيها الأخ الصغير الغالى ، وقبل لى أبانا والثم لى خد أمنا » .

وتفرقت أنامله الصغار الخادرة .. فهوى .. وأخذ الصغير ينادى باسم أخيه ناشجا مفحما ، خائفا ومرعبا ، ثم لم ين أن استدار وانطلق يجرى مروعا .. وهو يتعثر ويسقط ، ويقوم ويقعد ، وقد امتلأت نفسه رعبا شأن الطفل يترك فى الظلام وحده ، أو يحس الموت راصدا له ، ودخل على أبويه مجنونا من

فرط الوله والرعب فنبأهما الخبر .

وأخذه أبواه إلى الموضع ، ولكنه ضل الطريق عدة مرات قبل أن يقف به .

وكان لا بد من إفراغ الصهريج من مختزن مائه ، ولكن صاحبه أبى عليهما ذلك محتجا بأنه يريد الماء لرى البرتقال ، وأنه إذا لم يصب ثمرا طيبا منه ، ساءت حاله وذهب ماله .

ولكنهم بعد بضعة أيام وجدوا جثة الغلام وجثة معلمه .

أفرأيت أيها الصديق إلى بساطة هذه القصة وتجرد حقائقها من ألوان الخيال ... فماذا كنت قائلا لو أنك شهدت الموضع بعيني رأسك ، وأقمت عليه بنفسك ؟ لقد كنت والله مستشعرا ألمى واجدا من الأسى والوجيعة ما وجدت ، إذ تروح تفكر فى مبلغ العذاب الشديد الذى تعذبت به نفسا ذينك الصغيرين ، وقد وقف أحدهما معلقا فوق برزخ الموت لا يستطيع نجاة ، ومضى الآخر يرى أخاه مغرقا وهو لا يقدر على إنقاذه ، ولا بقوى على الإمساك به ، وقد راحا يفكران فى أبويهما ، وقد أدرك أحدهما أنه لن يشهدهما آخر الدهر ، وتمثل الآخر حاله إذا هو عاد إليهما وحده ، فسئل عن أخيه فحار فى الجواب ، وتملكه رعب وعذاب .. وهما صبيان صغيران قد واجها حادثا رهيبا خطيرا ، وكانا من قبل لا يعرفان من شئون الحياة غير الضحك واللهو والمراح ..

ثم ما قولك فى ذلك الإرث المؤلم ، تلك الساعة التى تركها الأخ لأخيه ؟ لا والله ما كنت متقبلا تراثا كهذا آخر الدهر .. ألا تصور ماذا يحتمل أن يكون لذلك التراث الأليم من الأثر ، وفى كل مرة يمسها الغلام الذى نجا من الموت يعود به الخاطر إلى ذلك الموضع المرهوب ، فيتمثل الماء الأسود الراكد ، والجدار القائم ، ووجه أخيه الخائف المروع ...

وقد شفنى الحزن لسماع هذه القصة فظللت واجما متألما طول اليوم .

وانطلقت من غدى أريد بلدا آخر، ولكنى أينما ذهبت رحت أشهد منظرا مخيفا مبتديا من وراء الأفق ، منظر غلامين مطلين على صفحة بحيرة سوداء يبكيان

ويصرخان ، وقد راح أحدهما يودع الآخر ويدفع إليه بساعته ..

ولست أشك يا صديقى فى أن كتابى هذا سيحزنك ، ولكنى محاول فى يوم آخر أن أطرفك بقصة مفرحة منعشة ، وإنما أريد أن أذكرك بأنك طلبت منى ألا أقص عليك غير الحق ، وهأنذا قد فعلت فلا تلمنى ، ولم نفسك .

المولود

كان المسيو جاك بورديلير قد أقسم ألا يتزوج ألبتة ثم نقض عزمه هذا فجأة ، وكان ذلك فى مصيف على ساحل البحر ذات يوم من أيام إجازته . ذلك أنه فى ذات صباح وهو ممدد على الرمل يراقب المستحمين ولا سيما الإناث منهم ، أبصر فتاة أعجبه منها محياها وقدها فأقر فيما بينه وبين نفسه أنه قد وقع فى حبها . واحتال حتى تعرف إلى أسرتها وجعل يتردد على دارهم ، وهناك غرق إلى أم ناصبته فى لجة ذلك الغرام الطامية ، فكان إذا لمحها مقبلة خفق قلبه وطار لبه وضاع صوابه ، وإذا جلس إليها أصابه الدهش والذهول ، وفقد عقله ولسانه وإرادته وعاد مشلول العزيمة والحركة . ولما وجد نفسه لا يستطيع البقاء على وجه الأرض إلا معها خطبها إلى أبويها .

وظل الأبوان مترددين فى ذلك زمنا طويلا ، إذ كانا يعرفان أن ذاك الرجل كان من أهل اللهو والخلاعة ، زير نساء وأخا صبوات ونشوات ، وأنه فوق ذلك كان له رفيقة وإن كان قد تخلى عنها بعد اشتغاله بحب ابنتهما . ولكن الرفيقة مهما نبذها الإنسان واطرحها لا تزال غلا فى يده وطوقا فى عنقه ، بل كما يقول المثل تظل فى جيده « حجر طاحون » يبهظه ويفدحه ، وما يدرينا لعل له رفيقات أخريات خلاف هذه الرفيقة الرسمية .

ولكن الرجل أخذ ما ينبغى من الاحتياطات فامتنع ألبتة من زيارة تلك الرفيقة بل من مراسلتها أيضا ، وقام له بعض أصحابه باسترضاء تلك الرفيقة بمكافأة مالية ، وبرئ منها جاك إلى السموات والأرض . وكان لا يسمح لمخلوق أن يفوه باسمها أمامه ، وجعل لا يفتح ألبتة ما كان يرد عليه من رسائلها . وأخيرا رضى أبواها وتزوجا بباريس فى باكورة الربيع .

وفى ليلة الزفاف أقيمت حفلة رقص ، ولما كادت الحفلة أن تنتهى ذهب العروسان إلى غرفة صغيرة مزخرفة بغرائب الوشى اليمانى والديباج الخسروانى ،

مستضاءة بمصباح بيضاوى يتدلى من السقف . وكانت النافذه منفرجة تأذن لنسمات الربيع الغضة العليلة .

ولم يتكلما ولم ينبسا ببنت شفة ، ولكنهما تصافحا وجعل كل منهما يشد على يد الآخر ويضغط بأقصى العنف والقوة . وكأن الفتاة كانت توجس خيفة مما سيطرأ على حياتها من التغير الهائل ، فكانت قلقة مشفقة دون أن تعرف لذلك القلق والإشفاق سببا . غير أنها كانت مع ذلك تحس فرحة عظيمة لم تشعر بمثلها من قبل ، وشعرت بكسل لذيذ يدب فى أوصالها وفتور مستعذب يتمشى فى مفاصلها . وجعل زوجها يرنو إليها طويلا عاقدا لحظه بلحظها ، ويديم تكرار اسمها بلطف ورفق ، وهى تنظر إليه نظرات لينة رقيقة وكأنها قد سحرت بنظراته الدائمة ، وقيدت فنكست جيدها أمامه وأطرقت ، وسرت إليهما من الغرفة القصوى ألحان الموسيقى ، وصيحات ضحكات الراقصين .

وبينما هى كذلك إذ انفتح الباب ودخل خادم يحمل رقعة على طبق وقال :

— إنها مستعجلة جدا يا سيدى .

فتناول جاك الرقعة بيد راجفة وقد اعتراه شىء من القلق ، وكان يود لو أجل تلاوة الورقة إلى الغد ، ولكنه لم يستطع ولم يجرؤ . بعد استئذان زوجته مزق الظرف واستخرج الرسالة فتلاها .

ولما رفع رأسه كان أصفر الوجه ممتقع اللون معتقل اللسان محتبس البيان ، وبعد الجهد الجهيد قال دون أن ينظر إلى وجه زوجته :

— عزيزتى ، لقد جاءنى نبأ من أسوأ الأنباء ..صديق لى فى حالة من المرض خطرة ، وهو فى أمس حاجة إلى رؤيتى ، فهل تسمحين لى أن أدعك مسافة نصف ساعة وسأعود فى أقرب وقت ؟

فوافقت فى الحال وكان بودها أن تعلم من تفاصيل الأمر أكثر مما سمعت ، ولكنها أحست أن رابطة الزوجية بينها وبينه لم تعد بعد من المتانة بحيث تجرؤ على الإلحاح عليه في ذلك . ورأته يتناول قبعته ورداءه ويهبط السلم عاجلا ، ثم رأته بعد ذلك يقف تحت مصباح بالشارع ويتلو الرسالة الثانية وكانت كالآتى :

— سيدى .

إن فى عيادتى الآن سيدة صغيرة اسمها « ريفيه » تزعم أنها صديقة لك حميمة وقد ولدت عندى غلاما تدعى أنك والده ، وهى يا سيدى تعانى الآن سكرات الموت وتبتهل إليك أن تعودها فتراها ، وإنى أضيف إلى رجائها رجائى وإن كان ذلك منى تطفلا وفضولا ، ولكنى أراها من الشقاء والبؤس على حال تستوجب منك الرثاء والرحمة .

المخلص — الطبيب — بونار

ولما دخل الحجرة المشتملة على المرأة المحتضرة كانت فى النزع الأخير ، ولم يكد فى أول الأمر يعرفها إذ أخمد حواسه منظر عصائب الثلج والخرق الملطخة بالدماء ، وكان الماء يسيل على أرض المكان وشمعتان تضيئان على صفة الموقد ، وعلى مهده الصغير وراء فراش أمه كان المولود يصيح ، ولدى كل صيحة من تلك الصيحات الضئيلة كانت الأم تتحرك حركة استيئاس .

وكانت دامية الجراح قد قتلتها آلام الولادة ، وعلى الرغم من كل ما بذل من وسائل الإسعاف ، قد استمر النزيف فى انصبابه .

وعرفت صاحبها جاك وحاولت رفع إحدى ذراعيها ولكنها لم تطق ، وبدأت الدموع تنحدر على وجهها المتشنج .

وخر راكعا إلى الركبتين عند جانب الفراش وأقبل يلثم يدها بحرارة ، وولاه الطبيب والممرضة أكتافهما تأثرا وحياء .

ورعشت المريضة ورجفت لمس شفتيه ثم همست قائلة :

— عزيزى جاك إنى أموت . إنى على يقين من ذلك . عدنى أن تبقى بجانبى إلى النهاية . لا أطيق أن أراك تتركنى الساعة .

فقبلها برفق وحنان وقال لها من خلال دموعه :

— لا تخافى ولا تحزنى ، إنى معك باق .

ثم قالت بصوت ضعيف مضمحل قد براه الشجى فكاد يبيد :

— إن هذا المولود ولدك ...إنى أقسم لك على ذلك وأنا فى سكرة الموت ..إنه

ابنك والله على ما أقول شهيد ... عدنى أنك لن تتركه ولن تهمله .

وهنا حاول جاك أن يعتنق المرأة المسكينة ، وأن يأخذ فى أحضانه ذلك الجسد المفتت الممزق ، وقال بصوت أبح أجوف :

– لك على عهد الله وميثاقه أنى سأربيه وأحبه ولن يفارقنى .

وأقبل يبكى وقد أخذته الرحمة والندم ولذعة الضمير ووخزته ... . ورفعت المرأة المسكينة شفتيها الصفراوين إلى شفتيه للقبلة الأخيرة وقالت للممرضة :

– قدمى إلىّ الغلام من فضلك .

فقدمته إليها ، فتناولته الأم وألصقته إلى ثديها ، وإن صدرها ليجيش من عواطف الأمومة بما يشبه العاصفة .

ونظر جاك على الرغم منه إلى ساعة الحائط فألفى عقربيها يدبان ببطء وقسوة ، وكان الطبيب قد غادر المنزل وقد نامت الممرضة .

ثم اشتد السكون بالغرفة ، إذ نامت المرأة المسكينة أيضا .

ورنا إليها جاك لآخر مرة ، ثم تذكر كيف أنه كان يحبها حينا ما إلى ما يقارب الجنون ، وكيف قد خف ذاك الهوى حتى ناقضت أواخره أوائله ، وغربت أفراس الصبا ورواحله .

وصوب طرفه إلى الساعة مرة ثانية فأدرك أنه تأخر كثيرا وهنا أخذ المولود فى ذراعيه واندفع به فى السلم إلى الشارع .

فى خلال ذلك كانت الزوجة الصغيرة قد انتظرت فى غرفة الزفاف ساعة . ولما عيل صبرها عادت إلى غرفة الرقص قائلة إن زوجها سيتبعها ، غير أنه لما لم يعد بعد ساعة لم تستطع كتمان قلقها وكربها فأطلعت والديها على كل ما جرى . فانبرى الوالد فى طلب الزوج الشارد وكان على استعداد إذا اقتضت الضرورة أن تلجأ إلى رجال الشرطة ، وأما الزوجة الصغيرة فقد ذهبت إلى فراشها تبكى أحر بكاء وأغزره ، وأمها بجانبها تحاول بأقصى الجهد تخفيف ألمها وتسكين لوعتها . وفى الساعة الخامسة سمعوا حركة فى الممشى ، وفتح الباب برفق وخفة ، ثم سمعت فى البيت صيحة ضئيلة ، أشبه شئ بمواء هرة صغيرة .

فثارت النساء من مراقدهن مسرعات إلى الباب فى طليعتهن العروس ، وإذا المسيو جاك واقف وسط الممشى أصفر الوجه مبهور الأنفاس ، يحمل بين ذراعيه طفلا صغيرا .

فصاحت زوجته الصغيرة « برثا » وضمت يدها فى دهشة وحيرة .

فنظر إليها نظرة متحجرة بضع دقائق ، ثم قال :

– كل ما فى الأمر أنى رزقت غلاما وأن أم الغلام قد ماتت .

ثم قدم إليها المولود فى ارتباك واضطراب ، وإنه ليصيح صيحاته الضئيلة ويتلوى .

وسكتت « برثا » الطيبة الكريمة ولم تعترض بحرف واحد ، وإنما تناولت الطفل وانحنت عليه تقبله وتمسح على جبينه وسائر وجهه بيدها الغضة الرقيقة ، ثم قالت لزوجها وعينيها بالدموع الغزيرة تفيض .

– وهل ماتت حقا ؟

فأجابها قائلا :

– أجل ...ماتت بين ذراعى ...لقد تخليت عنها منذ ثمانية أشهر ولم أك أعلم أنى غادرتها جفن سلاح .. لم أعلم من أمرها شيئا حتى وردت على رسالة الطبيب الليلة .

عند ذلك قالت زوجته البارة :

– إذن فالغلام ولدنا .

مذكرات مجنون

قضى نحبه وهو يشغل أرفع مناصب القضاء .. مثال القاضى النزيه العدل ، وكانت سيرته الطاهرة العطرة حديث الناس جميعا ، واسمه فى دوائر القضاء ومجامع رجال القانون يدوى كالطبل ، ولطالما انحنى له القضاة والمحامون المداره انحناءة الإجلال والإعظام ، وإنهم لا يزالون يذكرون ملامح وجهه الجليل الشاحب الموهوب يشع عليه ضياء عينيه الغائرتين فى حجاجيه النفاذتين إلى أعماق القلوب .

لقد أمضى ذلك الرجل الحياة كلها يتعقب المجرمين وينصر الضعفاء ويقتضى للمظلومين من الظالمين . وكان اللصوص والسفاحون والنصابون والدجالون والمزورون يعدونه عدوهم الأشد ، ويخافون شره ويرعدون منه خوفا إذا مثلوا أمامه ، ويحسون كأن عينيه الثاقبتين تقرآن مكنونات الضمائر وخبايا السرائر ، وتنفذان إلى قرارات النفوس .

ولقد مات هذا القاضى الجليل فى الثانية والثمانين مأسوفا عليه من سواد الشعب ، مشيعا بالحسرات والرحمات ، وقد مشى الجند فى جنازته وحضر دفنه سراة القوم وأعيانهم ، وبكى عليه الرجال قبل النساء أحر بكاء .

ولكنه على أثر دفنه وجدت رقعة عجيبة الشأن راح الناس من أجلها مبهوتين حيارى ، كأنهم من شدة الدهش سكارى وما هم بسكارى ، ولا يزالون إلى الساعة فى عجب من أمره ، وكانت هذه الرقعة محفوظة فى الملف الذى كان القاضى المتوفى يحفظ فيه مذكراته الجنائية ، وقد روست بهذا العنوان :

لماذا ؟ ؟ ..

وكانت هذه الرقعة تحوى ما نحن ناشروه اليوم ..

* * *

٢٠ يونيو سنة ... .عدت اليوم من الجلسة بعد إصدار الحكم بالإعدام على المدعو « بلونديل » ولكنى إلى هذه اللحظة لست مرتاح الضمير لهذا الحكم الذى أصدرته .. إنى أعرف أن الرجل مذنب .. هذه نقطة لا مجال فيها للشك ، ولكنى أريد أن أعرف لماذا قتل هذا الرجل أولاده .. نعم أريد أن أكتشف السبب وسره ..

كثيرا ما يلتقى أحدنا بأناس يتلذذون بالقتل ويستمتعون بإزهاق الأرواح ، واجدين فى ذلك مسرات أنفسهم ، وهذا شئ أفهم وأعرف باعثه ، لأن القتل يشبه الإحياء والخلق ، وسلب الحياة فى عظمته مثل منحها .. ألم يقولوا عن المولى .. المحيى المميت .. أجل يحيى ويميت .. هذه من أعظم اللذات بلا شك .. ولا ريب أن الإعدام والإحياء هما خلاصة التاريخ البشرى وقصة الحياة الإنسانية .

٢٥ يونية – ما معنى الحياة ؟ وما هذا الشئ الذى يحرك المخلوق ؟ .. إنه شئ يتعلق بسر الحركة والإرادة المسيطرة على الحركة .. فإذا شاءت هذه الإرادة أحدثت حركة وإذا شاءت أحدثت سكونا ، وفى مقدور الإنسان أن يحطم هذه الذرة الصغيرة المتحركة على الأرض والتى نسميها الحياة ، والتى لا نعلم ألبتة من أين جاءت وكيف خلقت ، إذ ذاك يكون الفناء والعدم .. أجل تتحطم هذه الذرة وتتبدد وتزول إلى الأبد ..

٢٦ يونيو – وإذا كان ذلك كذلك ، فلماذا نعد القتل جريمة .. ؟ بالعكس ينبغى أن نعدها قانونا من قوانين الطبيعة .. كل إنسان يجب أن يقتل غيره لأجل أن يتمتع هو بالحياة ، وأرى أن الإنسان إنما يحيا ليموت ، ويعيش ليفنى :

ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا أمـــا والله ما بادوا لتبقى

إن البهائم والطير والأسماك يقتل بعضها بعضا .. ثم يجىء الإنسان فيقتلها جميعا ليحيا .. ولكى يتخذ من القتل لذة ولهوا ، أصبح يخترع الصيد والقنص وما إليهما من صنوف القتل الرياضى والرياضة السفاحة السفاكة .. إن الطفل ليقتل الحشرات ويسحق الفراش والذباب ، ويلتقط الهوام ليبيدها ويفنيها ، بل أرى حب القتل غريزة فينا لا تشبع ، وطبيعة فى نفوسنا لا تمل ولا تفل ، وليس يكفينا أن نقتل الوحوش والطير والبهائم حتى ترانا نقتل أبناء أبينا آدم أيضا .. !

وهذه الغريزة الشرهة المنهومة قد غذيناها من قديم الزمان بأكل اللحوم البشرية ، وتقديم القربانات والذبائح الآدمية ، ولكن القوانين الشديدة التى وضعناها اليوم لأنفسنا قد حرمت علينا القتل وحذرتنا إياه بصارم العقوبة ، فنحن نقتل القاتل ومع ذلك نثير الحروب والمعارك فنسفك فيها ما نشاء من الدماء شفاء لغلتنا وإطفاء لظمئنا. وما معنى الحرب ؟ .. معناه تذابح الأمم وتناحر الشعوب ، وأن يقتل المرء أخاه ، ولست أرى الحرب إلا وليمة فاخرة ومأدبة حافلة دموية ، ينتشى الجند من حمياها ، ويسكر الناس من نشوة طلاها ، وترى النساء والأطفال يشاطرن المحاربين هذه اللذة الدموية وإن لم يشهدوا حومة الوغى ، ويصيبون نصيبهم الخيالى من مجزرتها وهم جلوس حول المصابيح والمواقد يتلون أنباءها ، سكارى من نشوة النصر يذوقون لذتها توهما وخيالا ..

وهل ترانا نحتقر رجال الجيش أو نهزأ بالجند وهم سفاكون مأجورون ، وسفاحون بمرتبات وأجور ؟ كلا ، كلا . إننا لنخلع عليهم الشرف وألقاب المجد والفخار ، ونقلدهم الأوسمة الساطعة البراقة ، ونغرق فى تدليلهم ونغالى فى مدحهم وإطرائهم ، وهم فخر الدولة وعنوان مجدها وشرفها ، وسطوتها وبأسها ، وترى النساء يعشقنهم ، والجماهير تهتف بحياتهم ، وما ذاك إلا لأن مهنتهم الوحيدة هى سفك الدماء وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق .. أجل .. ما أحلى القتل وما أبدع الذبح والنحر ، وما أعظم تلك اللذة وأجزل هذه المتعة ! ولست مغاليا إن قلت إنها للذة ترجح بجميع لذات الدنيا ..

٣٠ يونيو – القتل سنة الطبيعة وشريعتها ..لأن الطبيعة تريد أن تحتفظ بشبابها وتصون صباها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا الهدم والبناء والتخريب والتجديد والإفناء والإحياء . وحسب الإنسان متاعا أن يقلد الطبيعة فى عملها ، ويحكيها فى تصرفاتها ، ويرتقى إلى مستواها ، ويتطاول إلى شأوها ومداها ، فيظل منها يحيى ويميت ، ويوجد ويعدم . ألا إن لمشهد الدم المسفوح لفتنة فى النفس وسحرا ، وهل ثمة لذة أبدع من أن تجىء برجل شديد البأس صعب المراس ، مضبور الخلق مشبوح الذراعين ، ممتلئ شبابا وقوة ومنة وفتوة ، فتشك حشاه

شكة وشيكة ، وتشق صدره شقة صغيرة ، فلا تلبث أن ترى الدم ينبجس من صدره دفاعا طافحا دافقا ، وإذا هو كتلة مسترخية من اللحم جامدة باردة ، خالية من كل شعور وفكر وحاسة .

٥ أغسطس – أنا القاضى الذى أحكم بالإعدام فيكون إعدام ، وأنطق بالموت فيكون موت . ماذا يكون الأمر إذا كنت أنا نفسى أرتكب القتل وأزهق الأرواح ؟ بل من ذا الذى يعلم ما جنت يداى ، ومن يستطيع أن يتهمنى أو يرتاب في أمرى إذا أنا قتلت مخلوقا لا مصلحة لى فى قتله ، ثم لا يخطر لأحد أنى أنا قاتله ؟ .

٢٢ أغسطس – لقد تم ما أردت ، نعم لقد عجزت عن مقاومة هذه الشهوة الدموية . لقد قتلت مخلوقا صغيرا كتقدمة وتمهيد ، أو كتجربة و « بروفة » ..وبيان ذلك أن لخادمى « جان » عصفورا فى قفص فى غرفته ، فعمدت إلى إقصاء خادمى برهة إذ أرسلته فى مشوار بعيد ، ولما خلوت إلى نفسى تناولت العصفور من قفصه ، فرأيت قلبه الصغير يدق ويخفق .. لذة هائلة ومتعة عظيمة وشعور ساحر أفعم قلبى سرورا .. ثم بدا لى أن أخنق العصفور . ولكنى أحببت أن أبصر الدم دفاقا ، لقد تاقت نفسى إلى رؤية الدم الأحمر القانى ، فتناولت مقصا صغيرا وأقبلت على الطائر الصغير أقطع حبل وريده ، فإذا هو يفتح منقاره يحاول التملص من قبضتى الرقيقة ، ولكنى شددت عليه راحتى ، نعم شددت على قبضتى فلو أنه كان كلبا مسعورا هائجا لما استطاع من كفى إفلاتا ولا فكاكا .

ورأيت الدم ينبجس قانيا مدرارا .

ثم أنى فعلت ما يفعل القتلة السفاكون بعد الجريمة ، أعنى غسلت يدى ونظفت المقص من آثار الدماء ، وحملت القتيل الصغير إلى الحديقة فدفنته تحت شجرة .. ألا ما أبهم الحياة يوم يستطيع المرء أن يقتل مخلوقا ! وجاء خادمى يلتمس طائره فى قفصه فلم يجده ، فبكى لفقده أحر بكاء وظن أنه هرب من سجنه .

٢٥ أغسطس – لا بد لى من إعدام إنسان .. أجل لا بد .. لا بد .. !

٣٠ أغسطس – لقد نفذت ما أردت ، وكان أهون شئ علىّ ، إذ خرجت إلى النزهة فى « غابة فيرن » ومشيت رخى البال خلى الذهن من فكرة القتل ، فإذا بى ألمح طفلا صغيرا على الطريق يأكل لقمة بزبدة ، ولما أبصرنى الطفل وقف لى حتى أمر به ، وحينما دلفت إليه انثنى بلثغ قائلا « عم صباحا يا سيدى ! . » فى تلك اللحظة انبثق الخاطر الأول فى ذهنى فقلت مناجيا نفسى : أأقتله ؟ .

والتفت نحوه فقلت « أنت هنا وحدك يا بنى . ؟ »

قال : نعم يا سيدى ..

– يا عجبا وحدك فى هذه الغابة ؟ .

– نعم يا سيدى ..

وإذ ذاك استمكنت فكرة القتل فى خاطرى فأسكرتنى ، كما تلعب حميا الكأس بالألباب ، ثم أقبلت عليه فجأة فأمسكت بعنقه ، وحاول هو أن يدفع يدى عن نحره بكفيه الصغيرتين ، وجعل بدنه يتلوى ويضطرب ويرجف كريشة فى مهب الريح ، ثم سكن ولم يعد يختلج ، فألقيت الجثة فى غور سحيق وسويت عليها أضغاث ريحان وأعشاب . وعدت إلى دارى ناعم البال فأكلت أكلا لما ، وشربت شربا جما ، وظللت سحابة يومى جذلان فرحا ، وقضيت الليلة مع صحابتى وخلانى أروح ما أكون نفسا وأشرح صدرا ، وقالوا لى إنك أمتع ما كنت مجلسا ، وألذ حديثا وأنسا ..

لقد خدمتنى تلك الفعلة وردت على شباب نفسى ، وملأتنى روحا وخفة ونشاطا ..

٣١ أغسطس – لقد عثروا على جثة الطفل القتيل ، ويجدون فى طلب القاتل ..

١ سبتمبر – قبضوا على رجلين من المتشردين وأبناء السبيل حامت حولهما الشبهات ولكن الأدلة غير متوفرة ..

٢ سبتمبر – جاءنى أبواه يسألانى عما تم فى التحقيق مع المتهمين ، وقد

بكيا أمامى بدمع سخين ..

٦ أكتوبر – حفظت القضية لأنه لم يعثر على القاتل ..

١٠ أكتوبر – قتلة أخرى .. كنت سائرا والنهر بعد الإفطار ، فرأيت أحد صيادى الأسماك نائما إلى أصل شجرة وكان السكون سائدا ، ولمحت فأسا فى حقل مجاور كأنما قد وضعت حيث وضعت لأجلى ، عمدا من القدر المساعد وقصدا ..

فتناولت الفأس وعدت إلى الصياد النائم تحت الدوحة ، فرفعتها وكأنها فى يدى ريشة ، ثم أهويت بها على جمجمة النائم فهشمتها تهشيما . يا لهول ذاك المشهد المرهوب ! لقد انبجس الدم مدرارا واختلط بماء النهر ،وقد انسكبت منه على أديم اليم قطرات توهجت حمرتها لحظة ، ثم نصلت وعدت أدراجى على مهل . يلوح لى أنى لم أحسن اختيار مهنتى ، إن وظيفة القضاء ليست لمثلى وكان أولى لى أن أكون قاتلا ، فإنى والله نعم القاتل السفاك ..

٢٥ أكتوبر – أحدثت هذه الجناية ضجة كبرى ، وقد وجهت التهمة إلى ابن أخى الصياد إذ كان هذا البرىء آخر من قابل القتيل قبل مصرعه .

٢٦ أكتوبر – يؤكد قاضى التحقيق أن ذاك الفتى المتهم هو المجرم ، ويؤمن أهل البلد جميعا على ذلك ، والمتهم يستحق العقوبة لأنه لم يستطع عن نفسه دفاعا ، ولم يزد فى دفاعه على القسم بشرفه أنه برىء ، ومن ذا يقبل اليمين برهانا على البراءة ؟ .

٢٨ أكتوبر – لقد اعترف الفتى المتهم مرغما مضطرا ، لأنهم هددوه وما زالوا به حتى اعترف . العدل .. ! إنه لأكذوبة .. إنه لسخرية ..

١٥ نوفمبر – الأدلة والقرائن متوفرة فى المتهم إذ هو الوارث الوحيد للقتيل ، وسوف أرأس بنفسى جلسة الجنايات المزمع انعقادها لمحاكمة المتهم ..

٢٥ يناير – إلى الموت .. إلى الموت .. إلى الموت .. لقد حكمت على المتهم بالإعدام وسأذهب لأشهد التنفيذ ..

١٠ مارس – لقد نفذ حكم الإعدام وشنق المتهم فى هذا الصباح ، ومات

ميتة طيبة وأنا واقف أتفرج عليه مسرورا فرحا ، إذ كنت أنا الذى قتلته وإن لم أنفذ القتل بيدى ، ولكنه قتل على كل حال . والآن سأنتظر وفى وسعى أن أنتظر ، ومن الهين علىّ أن أترك نفسى تستهدف للانكشاف وتتعرض للفضيحة ، ولكنى لن أفعل ذلك حتى أباشر لذة القتل مرة أخرى ..

* * *

وللمذكرة بقية ولكنها لا تحتوى على تفاصيل جناية أخرى ، وقد قرر الأطباء الإخصائيون الذين عرضت عليهم هذه التفاصيل الشنيعة أن فى العالم مجانين مستترين لا يقلون حذقا وبراعة عن هذا المجنون المخيف ، بل ربما تجد فيهم العلماء والفنانين وأهل الرحمة والحنان والوداعة ، ممن يرتاح المرء إليهم ويستأنس بهم وهم أهل ذلك ، إلا فى أمثال تلك النوبات الإجرامية التى تعتريهم من وقت لآخر .

نابليون فى صباه

يقول الناس فى مضرب الأمثال ، الخطب الكبير من الخطب اليسير ، ومعظم النار من مستصغر الشرر . وفى الحق لقد تحدث الأحداث الخطيرة من جراء أمور تافهة صغيرة ، وقد قال باسكال الفيلسوف يوما إن ذرة من رمل قد غيرت شأن العالم الأوربى كله فيما مضى من الزمان . وأنا أقول إن فعلة بسيطة للغاية هى حركة يأس أو إشارة رجاء من حسناء ، أنقذت يوما حياة نابليون فى صباه ، ومن ثم غيرت مصير العالم ، وبدلت تاريخ الدنيا بأسرها .

هذه صفحة مطوية من التاريخ لايعلمها إلا قليل .

ويقول التاريخ إن كل مايمس حياة رجل كان أعجب إنسان فى العالم ، هو من التاريخ وللتاريخ ، وهى قصة حقيقية ومأساة واقعية وحادثة « كورسيكية » كادت تذهب بحياة نابليون فى مقتبل شبابه ، حينما سافر إلى جزيرة كورسيكا مسقط رأسه ليقضى فى ربوعها إجازته الرسمية .

وما أنا سارده من الوقائع صحيح مثبوت فى الوثائق ، لا خيال فيه ولا اعتماد على التصوير والتزويق ، بل لقد نقلتها عن تلك الوثائق نقلا لم أغير فيها شيئا ولم أحذف ولم أتبسط ولم أتوسع جريا مع لذة الإغراب ، أو محاولة إدخال المحسنات ، أو الركون إلى المبالغات حتى تبدو قطعة من الأدب ، أو قصة من نوع المأساة ، أو فاجعة من الفاجعات ، بل تركت منها فقط الوقائع التافهة والإجراءات المألوفة ، وأمسكت فيها عن ذكر الأسماء الصحيحة ، ونقل كلمات أشخاص القصة بحذافيرها ، لأن القصاص لا ينبغى له أن يزور على التاريخ أو يشوه الحقيقة بالخيال .

قبل وفاة نابليون بثلاثة أيام تناول الوصية التى أعدها للتنفيذ من بعده ، فأضاف إليها العبارة الآتية :

« وأوصى بعشرين ألف فرنك لساكن « بوكانانو » الذى أنقذ حياتى من

غائلة القتلة اللصوص ، وبعشرة آلاف لمسيو فيزافونا آخر من بقى من أفراد تلك الأسرة فى حاشيتى ، وبمائة ألف لمسيو « جيروم ليفى » ، ومثلها لمسيو كوستادى باستليكا ، وبعشرين ألف للأب ريكو » .

ذلك ما أوصى به نابليون فى ساعاته الأخيرة ، كأنما قد عاودته ذكرى قديمة من ذكريات شبابه ، فهزته الأريحية إلى الوصاية بذلك المبلغ الأول لرجل مخلص نسى اسمه من ضعف ذاكرته ودنو منيته ، وبتلك المبالغ الأخرى لأصحابه الذين أعانوه فى الشدائد وساعدوه فى الكرب . كانت كورسيكا فى ذلك العهد تحت حاكم قوى السلطان من أشد أنصار الملكية المخلصين وهو الجنرال « باولى » . وكان هذا القائد من أعدى أعداء الثورة والخارجين على المبادئ الجديدة . وكان نابليون يومئذ ضابطا صغيرا فى فرقة المدفعية متحمسا للجمهورية نصيرا مخلصا للفكرة الحديثة ، وقد نزل « بأجكسيو » عاصمة كورسيكا لقضاء إجازته ، ولم يكن يخفى نزعته أو يخافت بمبادئه .

ولم تكن فى « أجاكسيو » يومئذ مشارب ينتدى فيها الناس ويتوافدون للاجتماع والحديث . ففى ذات مساء جاء بونابرت فى جمع ممن يشايعونه من الشباب المتحمسين للثورة إلى مجلس خاص ، فقضوا زلفا من الليل يتحدثون ويتساجلون النبوءات فى المستقبل ، ويرسمون الخطط لنصرة المبدأ ويتنادرون على الطعام والشراب ، وكان شرابهم النبيذ ومزتهم التين .

وكانت الخصومة قد أخذت تظهر فعلا بين الشاب نابليون والجنرال « باولى » ، إذ اتهم نابليون الحاكم بأنه قد تعمد مخالفة التعليمات الصادرة إليه بسبب نزعاته السياسية ، وقد جهر نابليون بهذه التهمة وراح يعلنها على الملأ غير متئد ولا محاذر . وتسامع الناس بالنبأ وبلغ زعماء الجمهورية فأرسلوا لجنة إلى كورسيكا للتحقيق . وعلم نابليون بخبر قدومهم فذهب ليتحدث إليهم ، وخطر له أن يعرج فى طريقه على دار الحاكم ليكلمه شخصيا فى الموضوع ، ثم يواصل السير إلى « باستيا » حيث نزل الوافدون . واصطحب نابليون فتى مخلصا من التراجمة يدعى « سانتو بونيللى » ، وكان ذلك الفتى أيضا من أنصاره المخلصين . وفى فناء قصر الحاكم نزل نابليون عن جواده وأسلم الجواد

إلى صديقه لينتظر : وطلب الدخول على الجنرال فى الحال . وفيما هو يصعد مدارج السلم نبئ بأن مجلسا من الملكيين فى كورسيكا لا يزال معقودا برياسة الحاكم ، فجعلت الهواجس تساوره ، ووقف يسائل نفسه : ترى فيم يتحدثون ، وما أمر هذا المجلس المعقود ؟ وإنه لكذلك حائر مشغول الخاطر إذ فتح الباب فجأة وخرج أحد المتآمرين يريد الانصراف ، فلم يكن من نابليون إلا أن تقدم إليه وعاجله بالسؤال قائلا : هيه .. ماذا فعلتم ؟

وظن الرجل أن السائل من الأنصار فقال : انتهينا ، وقد تقرر أن نستعين بإنجلترا على نيل الاستقلال لبلادنا ، وننشق على فرنسا لنستقل .

فلم يكد نابليون يسمع هذا القول حتى احتدم غيظه ، فضرب الأرض بقدمه وصاح بالرجل مغضبا : هذه خيانة .. بل سقوط وخسة !

وعلى الصيحة جاء نفر من أهل المجلس يهرعون ، ومن حسن حظه كان أولئك من أهله ورجال عشيرته ، فأدركوا الخطر المحدق به والشر الذى استهدف له وهو الضابط الشاب المتهور المتحمس لفكرته . وكانوا يعرفون « باولى » وشدة مراسه وعظم جرأته ، ويعلمون أنه لا يتردد مطلقا فى التخلص من أى مخلوق يعارضه أو يجترئ على مناوأته ، فاجتمعوا على نابليون وأكرهوه على الانصراف والتماس الفرار بلا إبطاء . وخرج نابليون فركب جواده فى الحال ، وركب فى أثره صاحبه « بونيلى » فجعلا يغذان المسير طول الليل حتى أتيا مع الصبح على أرباض « بوكانانور » وقد أجمع نابليون النية على الاحتماء برجل يدعى « توسولى » من أقربائه وأنصاره الجمهوريين المتحمسين .

وكان « باولى » إذ ذاك قد سمع بجرأة نابليون وزيارته ، والكلمات العنيفة التى فاه بها فى ساحة داره ، واكتشافه المؤامرة التى كانت معقودة فى بيته ، فأرسل بعض الناس فى أثره حتى يحول بينه وبين بلوغ « باستيا » . وبعث كذلك إلى آل « موريللى » وهم عشيرة قوية السلطان أولو بأس ، يناصرونه وينتسبون إليه ومنزلهم « بيوكانانو » ، حيث كان الفتى الجرىء المتهور يريد النزول طالبًا إليهم التضييق عليه ومنعه من الفرار . وكان « موريللى » عميد العشيرة رجلا شديد الخطر قوى العزيمة يتوقد نشاطا ، فما كاد يتلقى أمر

(باولى) حتى أقام على كل طريق مؤد إلى البلدة رجلا من أهله ليترصدوا لنابليون القادم إليها تحت جنح الليل .

وكان « توسولى » خالى الذهن مما دبر هؤلاء القوم لصاحبه ، ولم يدر نابليون كذلك بما كاد له . فلما طلع الصبح وجده سائرا يريد دخول القرية وقد حمد السرى وظن أنه قد نجا من الخطر ، فإذا به يلقى على الطريق رجلا من أهلها قد دنا منه فال : إن قوما من أنصار فكرته والمشايعين لمبادئه قد اجتمعوا فى دار قريبة وهم يودون رؤيته والتحدث إليه . فلم يسترب نابليون فى النبأ ومضى فى إثر الرجل حتى دخل دارا هناك ، فإذا جمع من رجال موريللى قد احتشدوا فى الدار للقائه ، ولكنه لم يكد يدخل عليهم حتى تسارعوا إليه فأمسكوا به واحتبسوه عندهم أسيرا .

وسمع « توسولى » بما قد كان ، فمضى يجمع رجالا من أنصاره ويطلب إليهم البدار إلى إنقاذ الأسير من آسريه .

قال : إن لم ننقذه بعد نصف ساعة فلن نستطيع له شيئا آخر الدهر وهو بعد من الهالكين ! فهرع القوم إلى دار « موريللى » وكمنوا فى غابة قريبة راصدين . وما كان أشد دهشتهم إذ لمحوا نابليون يمشى جيئة وذهابا وعن كثب منه حارسان يراقبانه .

وإذ ذاك همس « توسومى » لرجاله الكامنين وراء الشجر قائلا : « أطلقوا النار ! » .

وفى اللحظة ذاتها رمى بنفسه على الجدار ، وأشار إلى نابليون أن يبادر بالفرار .

وكان نابليون فطنا حاضر الذهن ، فلم يكد يرى الإشارة حتى اندفع لتنفيذ الفكرة ، فجرى إلى النافورة فصعدها وراح يقفز من فوق الجدار .

وجاء رجال « موريللى » يتصايحون فى أثره ليمسكوا به قبل أن يلوذ بأذيال الفرار . وأقبل « موريللى » نفسه فى مقدمتهم ، ولكنه لم يدر أن زوجته قد خرجت خلفه من البيت وقد ثار حنانها وتولتها الشفقة على الفتى الأسير ، ومخافة الخطر على حياته من هسوه الفظاظ الغلاظ يريدون به السوء . فاندفعت

نحو زوجها وترامت على قدميه تناشده المروءة ، وتسأله الرحمة بالفتى الحديث ، وترجو إليه أن يخلى بينه وبين الفرار والنجاة بحياته ، ولكن الرجل دفعها عنه غاضبا ، ورام الذهاب فى أثر المطاردين فتشبثت به وهى جاثية عند قدميه ، وأمسكت بساقيه حتى لا يفلت من قبضتها مسرعا . ولو لم تفعل المرأة ما فعلت ، بل لولا هذه الشجاعة التى أبدتها والشفقة العجيبة التى أظهرتها لقضى نابليون يومئذ قتيلا ، ولتغير وجه التاريخ كله !

وكذلك استطاع نابليون النجاة من ذلك البيت الذى كيد له فيه ، ولكن أعداءه لم ييأسوا من اللحاق به فخرجوا وراءه يطلبونه ، وما لبثوا أن أحاطوا به على الطريق . وتقدم رجل من آل « موريللى » يدعى « أنيورايتو » فصوب فوهة مسدسه إلى رأس نابليون بهدوء ، وأمره بالتسليم وإلا أرداه قتيلا ، ولكن الأقدار كانت فى صف ذلك الضابط الشهم الجرئ ، فأرسلت إليه رجلا من أصحاب توسولى فى تلك اللحظة ، ولم يكن من أحدهم إلا أن اندفع نحو نابليون فى وسط الزحام فأمسك به وحمله إلى مكان أمين ، وقد اشتبك الجمعان فلم يشعر القوم بما جرى وهم عن الأسير غافلون .

وخرج نابليون وصاحبه يطلبان النجاة ، فمازالا يجوبان القفار ويقطعان الغاب والآجام ، ويشقان المغاور والأدغال ومضايق الجبال ، حتى أدرك نابليون أنه قد أمسى فى مأمن من الأخطار ، فقال لصاحبه الذى لزمه طول هذه الفترة الخطرة : إننى عما قريب عائد إلى فرنسا ، فهلا أتيت معى إليها ، وما أصبت من خير فهو قسمة بيننا ، وما أصبت من شر فهو على وحدى ؟ فقال له صاحبه : شكرا يا سيدى الضابط ، إن حياتى فداء لك ، ولكنى أوثر أن أعود إلى بلدى ..

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة   وأهلى وإن ضنوا علىّ كرام

فافترقا ولما بلغ نابليون أجاكسيو فزع فى الحال إلى عمدتها مسيو « جيروم ليفى » مستصرخا ، فأصرخه وراح يخبئه فى دولاب كبير . وقد أحسن الرجل الحيلة ، ففى غداة اليوم جاءت الشرطة يبحثون عنه ولكن ضل سعيهم ، لأن العمدة الداهية عرف كيف يخدعهم ، ولم يكتف بإبعادهم عن مخبأ الفتى

الذى جاءوا فى طلبه بل اشترك معهم فى البحث عنه ، وأظهر من الهمة فى التفتيش ما أظهر . وفى تلك الليلة تمكن نابليون من ركوب زورق صغير حمله إلى الشاطىء الآخر من الجزيرة ، حيث اختبأ فى بهرة الغاب .

وبعد ثلاثة أيام أعلن أهل كورسيكا استقلالهم وعمدوا إلى دار نابليون وأهله فأحرقوها وتركوا النار تأكلها ، ولكن الأب « ريكر » كان رحيما – فآوى أخوات نابليون وأبقاهن فى كنفه ووطأ لهن تحت رعايته .

وفى اليوم التالى حملت سفينة فرنسية نابليون إلى فرنسا حيث كان المجد يرتقبه ، وقد أعد التاريخ له دفاتره وكتبه ، وكتبت له الأقدار أن يصبح أكبر إمبراطور شهدته الدنيا من عهد شارلمان الأكبر .

الانتقام

كانت « أرملة بالوسافرينى » تعيش مع ولدها الوحيد فى بيت خفير على أسوار ميناء بونيفاسيو (كورسيكا) . وكانت هذه المدينة مبنية على طنف ناتىء من الجبل مشرف على البحر ، يطل من فوق البوغاز البارزة من جانبيه رءوس الصخور كأطراف السكاكين ، على ساحل جزيرة ساردينيا المقابل .

وكانت مساكن هذه المدينة تلوح على تلك القمة الشماء كأنها أوكار الجوارح من الطير ، وكانت الريح لا تزال تضرب متن البحر ، وتضرب الساحل الوعر تسلخ بسياطها أديمة وتعريه من كل أثر للنبات وتبرزه ، وكانت أذيال الآذى الموشاة بالحبب ، وحواشى الموج المطرزة بالرغوة البيضاء اللائذة بأطراف الملايين من سود الجلاميد البادية فوق الأمواج — أشبه شئ بقصاصات التيل تطفو على صدر الماء وتخفق .

وكان منزل الأرملة « سافرينى » يفتح نوافذه الثلاث من فوق تلك الشاهقة الشماء ، على ذلك المشهد الموحش المهيب .

وكانت الأرملة تعيش ثُمت وحدها لا مؤنس لها سوى ولدها أنتونيو وكلبته « سيميلانتى » . وهى كلبة ضامرة نحيفة ذات شعر خشن مسترسل من فصيلة كلاب الرعاة ، وكان أنتونيو ربما استخدمها عند الضرورة فى مهمة الصيد .

فى ذات ليلة التحم أنتونيو مع خصم له يدعى نيقولا رافولاتى فى معركة شديدة خرج منها فائزا منصورا ، ولكن خصمه ارتقب منه غرة فانقض عليه فاغتال حياته بطعنة مدية وفر هاربا إلى جزيرة ساردينيا .

ولما تلقت الأرملة جثة ولدها ، وكان المارة قد حملوها إليها لم تبك ولم تنتحب ، ولكنها لبثت صامتة ساكنة برهة طويلة تنظر إليها ، ثم مدت يدها الذابلة فوق الجثة وأعطتها عهد الله وميثاقه على أن تثأر لها من الجانى .

ورفضت استقبال المعزين وأصرت على الانفراد ، فاختلت بها والكلبة وأغلقت الأبواب ، وواصلت الكلبة العواء لاتنى ولاتفتر وقد قامت منتصبة عند مؤخر الفراش مشرئبة الجيد تلقاء سيدها ومولاها ، قابضة على ذنبها بفخذيها ، وكان بها من سكون الأوصال مثل ما بالأرملة التى كانت تعكف على جثة وحيدها حانية ، تذرف فوقها دموعا صامتة غزارا .

وكان الفتى الصريع مستلقيا على ظهره ، عليه رداؤه الخشن الغليظ قد مزق وخرق مما يلى صدره وكأنه نائم ، وكنت أينما ألقيت طرفك منه ألفيت أثر الدماء – على قميصه الممزق من أجل الإسعافات الأولية ، وعلى ردائه وعلى صداره وعلى مئزره ، وقد تعلقت كتل من الدم المتجمد بناصيته ولحيته .

وشرعت الأم تخاطبه ، وسكتت الكلبة عند ارتفاع صوتها :

« سلاما ، سلاما ، سيُثأر لك من القاتل يا بنى ، يا شقة النفس ، ويا ولدى المسكين ! نم هادئا وادعا فلسوف يُقاد لك ويثأر ! أتسمع ؟ إن أمك هى التى تعدكِ هذا .وعليه تعاهدك ! وإنها بالوفاء لقمينة ! »

ثم حنت عليه فألصقت شفتيها الذابلتين بفمه الميت .

وإذا ذاك استأنفت الكلبة نباحها . لقد ظلت ترسل أنة حزينة متواصلة يقشعر من هولها البدن ، ولبثت كلتاهما لدى الجثة حتى الصباح .

ودفن أنطونيو سافرينى فى ذلك اليوم ، وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى نسى وأعرض الناس عن ذكره .

ولم يخلف أخا ولا وليا ، ولم يكن ثمت من الرجال من يأخذ بثأره ، ولكن كانت لا تزال تفكر فى ذلك الشأن .. أمه العجوز الهرمة !

ومن تلك اللحظة فصاعدا لزمت العجوز نافذة غرفتها ، ترقب منها من لدن طلوع الشمس إلى غروبها نقطة بيضاء على الساحل المقابل – تلك كانت قرية « لونجو ساردو » الواقعة على شاطئ « ساردينيا » والتى إليها كان يلجأ قراصنة « كورسيكا » عند الحاجة ، وكانت مأواهم فى الكارثات ، وقد احتكروها لأنفسهم فلم تكد تشمل أحدا سواهم ، وقد عرفت العجوز أن

« نيقولا رافولانى » قاتل ابنها قد التجأ إلى تلك القرية الصغيرة .

ولبثت العجوز طوال اليوم جالسة إلى النافذة مدمنة النظر إلى هنالك ، وبالها بفكرة الانتقام مفعم ، كان لها الله ! ماذا عسى أن تصنع وهى تلك العاجزة الضعيفة الموهونة المشرفة على الأجل ، ولا نصير ولا مساعد ؟ ولكنها قد وعدت فقيدها وأعطته عهد الله وميثاقه على أن تثأر له وتقتص ، لقد حلفت يمين الله فوق الجثة ! وما مثلها بناكث العهد ولا بمخلف الميعاد ! أما إنها لا تستطيع نسيانا ولا صبرا ، فماذا تصنع ؟

وانتابها السهاد تلك الليلة فلم تنم ، ولبثت قلقة مضطربة تقدح الذهن وتكد القريحة بلا طائل ، وكانت الكلبة نائمة تحت قدميها ، ولكنها كانت ترفع رأسها من آن لآخر وترسل صيحة حادة على شيء فى أقصى الفضاء ، وكانت منذ مصرع مولاها لا تزال تصنع فى الأحايين مثل ذلك – كما لو أنها كانت تلبى نداء مناد ، كأن روحها البهيمية أيضا تحتفظ بتلك الذكرى التى لاتنمحى .

فى ذات يوم وقد شرعت الكلبة تنبح ، طرأت على خاطر العجوز فكرة – فكرة همجى متوحش فتاك منتقم – ثم باتت تقلب هذه الفكرة على وجوهها حتى الصباح ، وإذ ذاك توجهت إلى الكنيسة فخرت إلى الله راكعة ، وتوسلت إليه أن يشد أزرها ويؤيدها بروح من لدنه يمكنها من الثأر لولدها .

ثم عادت إلى بيتها ، وكان فى فنائه برميل عتيق متهدم تتجمع فيه مياه المجارى ، فقلبته رأسا على عقب ففرغته ، ثم أقامته ثانيا ودعمته وثبتته بأوتاد وحجارة ، وجعلت منه وجارا للكلبة ربطتها إليه بسلسلة متينة ، ثم صعدت إلى غرفتها .

وأدامت الكلبة النباح يومها وليلتها ، وفى صباح اليوم التالى سقتها العجوز شربة ماء . وظلت على حرمانها الزاد .

وعلى ذلك النحو تقضى اليوم ، ولما نهك الجهد الكلبة نامت .

وفى اليوم التالى كانت عيناها تتواقدان وقد وقف شعرها كشوك القنفذ ، وطفقت

تجذب سلسلتها بعنف واستماتة .

واستمرت العجوز على حرمانها الطعام ، فاشتد ثوران الكلبة وواصلت العواء بصوت جهنمى ، ومرت الليلة على تلك الحال .

وفى الصباح ذهبت العجوز إلى منزل جار لها واستمنحته حزمتين من القش ، ثم تناولت رداء ومئزرا من ثياب زوجها القديمة واقبلت تحشوها بذلك القش حتى صنعت منها تمثالا متقنا ، ثم غرست فى الأرض تلقاء وجار الكلبة عصا عقدت بها ذلك التمثال فقام منتصبا ، ثم صنعت له رأسا من خرق قديمة .

كل ذلك أدهش الكلبة فلبثت ترقب ذلك الإنسان « القش » وقد كفت عن العواء ، برغم ما كان يأكل أحشاءها من ضرام الجوع .

ثم اشترت العجوز شريحة مستطيلة من اللحم « بصطرمة » وأشعلت نارا على مقربة من وجار الكلبة وشرعت تقلى شريحة اللحم . عند ذلك جنت الكلبة جنونا ، فوثبت وجمحت وأرغت وأزبدت وتطايرت الرغوة من أشداقها ، وشخص بصرها إلى اللحمة وقد كاد قتارها يذهب بلبها .

ثم إن العجوز تناولت تلك الشريحة المقلية المتصاعد دخانها فصنعت منها رباط رقبة « كرافتة » لتمثال القش ، ولما أحكمت ربطه حول عنق التمثال أطلقت سراح الكلبة .

فوثبت الكلبة على التمثال وثبة منكرة فظيعة فوضعت كفيها على كتفيه ، وأنشبت فى نحره أنيابها وشرعت تمزقه طرائق بددا ، ثم هبطت إلى الأرض وبين فكيها قطعة من اللحم . ثم وثبت على التمثال ثانية تدفن أنيابها فى أوداجه فانتزعت نتفا من اللحم وهبطت إلى الأرض ، ثم أعادت عليه الكرة تضطرم اضطراما كأن بها مس أو لق ، فمزقت وجه التمثال نهشا وعضا ، وتركت رأسه وعنقه خيوطا ونتفا .

ولبثت العجوز صامتة ساكنة تنظر وتتأمل ، ثم قيدت الكلبة ثانيا وصومتها

بومين آخرين واستأنفت إجراء ذلك التمرين العجيب .

لقد استمرت ثلاثة أشهر تمرن الكلبة على تلك المكافحة – على ذلك الرزق المكتسب بالافتراس والفتك ، وبعد ذلك كفت عن تقييدها ، واكتفت فى إطلاقها على التمثال بالإشارة ، ثم علمتها أن تمزقه وتلتهمه دون أن يكون على نحره شيء من اللحم ، ولكنها كانت تكافئ الكلبة عقب ذلك بشريحة اللحم مقلية مجهزة .

وأخيرا صارت الكلبة متى وقع بصرها على تمثال القش انتفضت وارتعشت والتفتت إلى سيدتها ، وإذ ذاك تصيح بها العجوز بصوت منكر « انطلقى ! » وتشير بأصبعها إلى التمثال .

ولما رأت العجوز أنه قد آن الأوان ذهبت إلى الكنيسة فاعترفت وأدت فريضة الصلاة والدعاء ، ثم تنكرت فى زى الذكران فصار لها منظر شحاذ هرم بال ، فى أطمار وأسمال بالية ، ثم عبرت وكلبتها البوغاز إلى قرية القراصنة « لونجو ساردو » .

وكانت تتأبط كيسا فيه شريحة من اللحم مقلية ، وقد صومت الكلبة يومين كاملين ، وجعلت طول المسافة تهيج الكلبة وتحرضها بإنشاقها رائحة اللحم الشهية .

ثم دخلتا القرية وسارتا فى طرقاتها ، ووقفت العجوز على دكان حلاق فسألته عن مقر المدعو « نيقولا رافولاتى » فأنبأها أنه يحترف النجارة بحانوت له فى الشارع المجاور .

فعمدت العجوز إلى حانوت الرجل ودفعت بابه ونادته :

« اسمع يا نيقولا » وما هو إلا أن التفت إليها حتى صاحت بالكلبة :

« انطلقى » .

فحملت الكلبة المستعرة جنونا على فريستها وأخذت بخناقه ، ونشر الرجل ذراعيه وانشب يديه فى جنبى الكلبة ، وخر صريعا يتخبط فى دمائه ثم استحال جثة هامدة ، وإن الكلبة لتشرح نحره تشريحا وتمزقه إربا إربا .

وتحدث اثنان من الجيران كانا جالسين فى ذلك الصباح على عتبتى داريهما فقالا : إنهما شاهدا رجلا شحاذا باليا متهدما ينصرف عن حانوت النجار ومعه كلبة هزيلة عجفاء جائعة ، تلتهم من كفه شيئا أسود محترقا .

فى تلك الليلة نامت العجوز « سافرينى » نوما عميقا .

روزا

احتفل فى مدينة « كان » بعيد الأزهار ، وجعلت المركبات تجرى فى الطرقات مزدالة بالزهر من كل صنف ولون ، ومن بينها مركبة تقل امرأتين قد غابتا إلى الترائب بين كثبان الأزهار لم يبد منهما سوى ، أكتافهما وأذرعتهما ومعطفاهما – أحدهما أزرق والآخر أرجوانى .

وكان سوط الحوذى مغمدا فى جفن من البنفسج ، وأعنة الجوادين فى أغماد من الورد والياسمين – وفى مكان المصباحين حلقتان من الزهر تخالهما مقلتين عجيبتين لتلك المطية المزدهرة ، وأمام المرأتين على المقعد المقابل سلتان مفعمتان بالزهر ، وعلى كساء الفرو المنشور فوق حجريهما أكوام من النرجس والشقيق والآس والأقحوان والخزامى .

بلغت المركبة طريق « فونسيي » المكتنف بسماطين من الشجر الباسق ، وهنالك بدأت المعركة بقذائف الأزهار ، وكانت المركبات المزدانة بحلى البساتين تمر على جانبى الطريق – صفان رائحان غاديان ، يبدآن من حيث ينتهيان ، سلسلة دائمة الجولان ، لا أول لها ولا آخر ، وجعل ذلك الركب الجوال لا يزال يتقاذف ويتراشق من أفانين الزهر بأمثال القنابل تتسامى فى الهواء وتتهاوى – كواكب عبقة أريجة ينبعث منها الشذا بدل السنا ، تنقض من تلك الوجوه المشرقة على كواكب أزهى منها وأنضر ، ثم تهوى إلى أديم الثرى فيلتقطها جيش عرمرم من صبيان الغوغاء .

وبعد أن غامس المرأتان حومة هذا الميدان ساعة من الزمان ، أمرتا الحوذى أن ينطلق بهما إلى شارع « خليج خوان » المصاقب للساحل .

* * *

رنقت الشمس للغروب ، وامتد البحر أزرق البساط صافى الأديم ، حتى التقى لدى الأفق بالسماء ، فاندمج فيها وذاب .

وارتاحت المرأتان لفتنة هذا المشهد البديع ، وارتشفت حواسهما جماله الخلاب فوجدتا له نشوة كنشوة الراح ، وقالت إحداهما :

« ما أجمل هذه الساعة ، لقد حسن فيها كل شئ وطاب » .

قالت الأخرى :

« نعم ، ولكنها تحتاج إلى شئ ليس إلا به يتم حسنها ويكمل صفاها » .

« ماذا تريدين بعد ذلك ، أما أنا فجد قانعة بهذه المحاسن والمباهج لا أبتغى مزيدا » .

« إن ذات الحواس لا تشفى غليل المرء حتى تقترن بما يشتهيه القلب ، ويظمأ إليه الفؤاد » .

فتبسمت صاحبتها وقالت :

« قليل من الحب مثلا ؟ أههنا غرت ؟ » .

« نعم » .

ثم سكتتا برهة ، واستأنفت الكلام تلك المسماة « مرغريت » فقالت :

« فى مذهبى أن الحياة بدون ذلك عبء فادح لا يطاق ، أجل ، لا بد لى من محب ولو لم يكن سوى عصفور . ونحن كلنا فى ذلك سواء مهما تزعمى عن نفسك « يا سيمون » » .

قالت « سيمون » :

« كلا ! إنى أوثر ألا أحب ألبتة عن أن يحبنى أى إنسان كيفما كان ، أفتحسبين أنه يسرنى أن يهوانى هذا الحوذى مثلا ؟ وأومأت إلى سائق المركبة .

فابتسمت المدام مرغريت ابتسامة خفيفة وقالت :

« أما تعلمين أنه من أسباب الفكاهة أن يرى الإنسان بعض خدامه يوجه إليه يوما ما عواطف الغرام ، إن الخدام إذا عشقوا ساداتهم تغيرت هيئتهم ، وصار لهم منظر وحركات وإشارات تضحك الثكلى ، إذ يقلبون إليك أعينهم على نحو ما يفعل البله والمجانين — وكلما ازدادوا عشقا ازددت أنت قسوة وجفاء بلا شك ، وفى ذات يوم تعمدين إلى الوقح الجرئ فترفتينه لأوهى

سبب ، لأنك تخشين أن تصبحى ضحكة الناظرين إذا اطلع على الأمر إنسان » .

قالت المدام « سيمون » :

« كلا ! كلا ! ما كنت قط لأقنع بمحبة خادمى أو سواقى ، ولكن خبرينى كيف ظهر لك أن بعض خدامك كان يهواك ؟ » .

« وظهر لى ذلك على نحو ما تظهر أمارات الحب من كافة الرجال – ظهر لى فيما كان يبدو عليهم من حركات الحمق والغباوة والبله والطفولة » .

قالت مدام سيمون « شد ما تظلمين الرجال ، فإنى لم أجد فيهم شيئا من تلك العيوب والنقائص حينما كانوا يعشقوننى » .

قالت مرغريت :

« ذلك لأن الغرور كان يغطى على بصرك ، فيضرب عليه من دون تلك المعايب حجابا ، ولو كنت تبصرين ، لرأيتهم فى حالة العشق بلها أغبياء سخفاء لا يحسنون استماعا ، ولا فهما ولا إفهاما ، ولا ردا ولا كلاما » .

قالت « سيمون » :

« وأى عاطفة كان يثيرها فيك هذا النوع من العشق – عشق الخدم ؟ عاطفة الحب ؟ أم الزهو ؟ » .

« الحب ! كلا ! قليل من الزهو نعم ، إن المرأة ليعروها الزهو والعجب والتيه إذا أحبها الرجل أيا كان وكيفما كان ، ولكنى محدثتك نبأ عجيبا .

« منذ خمسة أعوام وجدتنى بلا وصيفة ، فأوصيت المخدم أن يجيئنى بواحدة فلم أرضها .

ثم جربت من بعدها سبعا أخريات فلم أحمدهن ، ولما يئست من بلوغ مأربى قرأت فى الجرائد إعلانا مؤداه أن فتاة تجيد الخياطة والتطريز وترجيل الشعر وتضفيره تلتمس الخدمة ، وأنها تتكلم الإنجليزية فوق ذلك .

فأرسلت رسالة بالعنوان المبين ، وفى اليوم التالى تقدمت إلى الفتاة المذكورة ، وكانت طويلة نحيلة تعروها صفرة خفيفة ، وبها شئ من الاحتشام والهيبة ، وكان لها عينان سوداوان حلوتان ، ولوجهها صفاء ورونق وماء ، فسررت بها

لأول وهلة ، وسألتها عن شهاداتها ، فقدمت إلى واحدة بالإنكليزية ، وكانت قد انفصلت منذ بضعة أيام – كما قالت – عن خدمة « اللادى ريمويل » حيث أمضت عشرة أعوام .

« وصرحت الشهادة بأن الفتاة استقالت من الخدمة بمحض إرادتها ، كى تعود إلى فرنسا وطنها ، وإن سيرتها وسلوكها وأخلاقها كانت طيبة نقية لاغبار عليها » .

فاستخدمت الفتاة فى الحال ، وكان اسمها « روزا » .

ولم يمض شهر إلا وقد ولعت بها ولوعا ، لقد كانت آية وملحة ، وكانت اللؤلؤة المكنونة والدرة اليتيمة ، والمعجزة والأعجوبة ، كانت أبرع من رأيت فى كافة الشئون المنزلية ، وفى كل ما يتعلق بالهندام واللباس والزينة وإعداد الولائم والملاهى والمراقص وما إلى ذلك .

وكانت تلبسنى ثيابى بمنتهى السرعة وخفة اللمس ، لا أكاد أشعر بأناملها على جسدى .

ولقد أغرانى ذلك بالكسل والتبلد ، فكنت لا أحرك يدا لارتداء أى قطعة من ملابسى .

ولا جرم ، فلقد كان من ألذ اللذائذ عندى أن أترك نفسى لهذه الخادمة الخفرة الخجول المصبوغة الوجنتين بحمرة الحياء ، الكثيرة الصمت القطيع الصوت الدائمة الإطراق – تكسونى ملابسى ، من القميص إلى القفاز ، وعلى أثر خروجى من الحمام كانت تجففنى وتدلكنى وأنا ممددة على الفراش بين النوم واليقظة .

والحق أقول ياعزيزتى ، لقد كانت عندى بالصاحبة والخليلة أشبه منها بالخادمة والوصيفة .

فى ذات صباح دخل على البواب مضطربا مرتبكا ، وكان مخلصا أمينا فقال لى :

« سيدتى إن مأمور البوليس بالباب » .

فقلت بحدة :

« وماذا يريد ؟ » .

« يريد أن يفتش البيت » .

لا أنكر أن للبوليس أعماله وواجباته ، ولكنى أمقت رجال البوليس وأبغضهم ، ولا أرى أن مهنتهم فاضلة ولا شريفة ، وأراهم أولى بالقبض ممن يقبضون عليهم ، وأحق بالسجن ممن يسجنونهم ، فقلت للبواب وإنى من الغيظ أكاد أتميز :

« فيم هذا التفتيش ولماذا ؟ كلا والله لن يدخل هذا اللص الأثيم منزلى » .

« إن ذلك المأمور يزعم أن فى هذا البيت يختبىء مجرم هارب من القضاء » .

فهالنى ذلك النبأ ، وأمرت بضابط البوليس أن يتدخل ليطلعنى على جلية الأمر ، وكان رجلا على شئ من الأدب والتهذيب على صدره وسام « الشرف » فأطال الاعتذار والاستسماح ، ثم قال إنه يوجد بين خدام منزلى مجرم هارب !

فصدم هذا النبأ الشنبع مسمعى صدمة كادت تذهب بلبى ، ثم قلت إنى بأحوال خدامى جد عليمة ، ومن أخلاقهم وسيرتهم جد واثقة ، ثم سردتهم فردا فردا .

البواب بيير كورتين ، جندى قديم » .

قال المأمور « كلا ليس به » .

« الحوذى ، فرنسوا فنجو فلاح من إقليم شامبانيا ، وابن فلاح من مستأجرى المرحوم والدى » .

« وليس به » .

« سايس من إقليم شامبانيا وابن فلاح أعرفه وأعرف رهطه وأسرته حق المعرفة ، ثم الخادم الذى رأيته آنفا » .

« كلا ، ليس به » .

« إذن يتضح لك يا سيدى أنك تغالط نفسك وتخدعها » .

« معذرة سيدتى ، أنا موقن أنه ليس ثمت مغالطة ولا مخادعة ، وبعد فلما

كان الأمر فى غاية الخطورة ، ويتعلق بمجرم من أشد المجرمين خطرا فتفضلى باستدعاء خدامك جميعا ههنا أمامك وأمامى » .

فرفصت أولا ، ثم ما لبثت أن استدعيتهم جميعا ، فصففهم صفا منسقا ، فشملهم المأمور بلحظة واحدة ثم قال : ليس هؤلاء جميع خدامك .

فقلت له : معذرة سيدى ، لم يبق سوى وصيفتى ، فتاة صغيرة ، وما إخال مثلك يعجز أن يميز بين غادة غضة رقيقة ، وبين مجرم فظ عات »

فقال المأمور : « هل لى أن أراها ؟ » .

قلت له : بلا أدنى مراء » .

وقرعت الجرس لروزا ، فسرعان ما أقبلت ، وما كادت نلج باب الغرفة حتى أومأ الضابط إلى رجلين كانا مختبئين وراء باب فانقضا على الفتاة فأوثقا كتافها .

فصرخت صرخة شديدة ، وهجمت على الرجلين لأخلص من أيديهما وصيفتى ، ولكن الضابط منعنى ، قائلا :

« هذه التى ترينها فتاة يا صديقتى إنما هى فى الحقيقة رجل يدعى « جان بيقولاس ليكابيه » محكوم عليه بالإعدام فى عام ١٨٧٩ لجريمة قتل مسبوقة باغتصاب ، ثم بدلت عقوبته بالسجن المؤبد ، وقد فر منذ أربعة أشهر ولم نزل نبحث عنه من ذلك الحين » .

فأصابنى خبال وكاد يذهب عقلى ، وجعلت أبرق وأرعد وأتهم الضابط بالإفك البين والكذب الصراح .

قال الضابط : « إن لدى البرهان القاطع . احسرى عن ذراع ذلك المجرم اليمين تجدى بها وشما ظاهرا كثيفا » .

« ثم حسر عن ذراعه فظهرت الآية واضحة جلية ، وقال لى الضابط : « لا تلجئينا أن نكشف لك عن الأدلة الأخرى » .

وعلى ذلك ذهبوا بوصيفتى العزيزة « روزا » فى الأغلال والسلاسل .

الذئب

قص علينا الشيخ الهرم ، المركيز « دار فيل » القصة الآتية على المائدة ، قرب الفراغ من تناول العشاء بقصر البارون « دى رافيل » .

وكنا قد اصطدنا غزالا أثناء النهار ، وكان المركيز هو الوحيد الذى لم يشترك فى الطراد لأنه كان لا يزاول الصيد مطلقا .

وفى خلال تلك المأدبة الحافلة الفاخرة ، لم نكد نتناول من الموضوعات إلا موضوع الصيد وقتل الحيوان ، لقد كان النساء أنفسهن يطربن إلى تلك الأقاصيص الدموية وما تضمنت من أخطار وأحوال تكاد لفرط غرابتها تلحق بالخرافات والأساطير .

واستهل المركيز الكلام وقال :

سادتى ، أنا لم أباشر الصيد مطلقا ، ولا والدى ولا جدى ولا جد والدى ، ولقد كان هذا الأخير ابنا لرجل من أعظم الصيادين فى العالم ، كانت حياته سلسلة متصلة من الطراد والقنص .

كان اسمه جان وكان متزوجا ، وأبا لذلك الطفل الذى صار جدا لوالدى ، وكان يعيش وأخاه « فرانسوا دارفيل » فى قصرنا الفخم المشيد بإقليم « لورين » فى أحشاء الغابات والآجام .

وكان فرانسوا هذا قد ظل أعزب من فرط ولعه بالصيد ، وكان الأخوان يواصلان الصيد من أوليات العام لأخرياته ومن أخرياته لأخريات تالية فتالية بلا أدنى انقطاع ولا تلكؤ ، ولا ونى ولا فتور ، ولا كلال ولا ملل ، — لا يحبان سوى ذاك ولا يفهمان غير ذاك ولا يعنيان إلا بذاك ولا يتحدثان إلا فى ذاك ولا يعيشان إلا لذاك .

وكانا أمرهما ألا يقاطعا أثناء اشتغالهما بالصيد لأى سبب كان .فمن أعجب

الأعاجيب أن جد والدى ولد بينما كان أبوه يطارد ثعلبا ، فلما جاءه البشير لم يعبأ ببشراه واستمر فى الطراد وهو يقول « لحا الله ذلك الضيف الخبيث ، ما كان ضره لو تمهل رويدا حتى نصرع الصيد ! » .

وكان أخوه فرانسوا أشد منه ولوعا بالقنص وهياما . كان يهب من رقاده فيسرع إلى كلابه ثم إلى جياده ، ثم يظل يرمى العصافير حوالى القصر حتى تحين ساعة الخروج للقنص .

وكان هذان الأخوان كأنهما من العمالقة ، ما شئت من عرض وطول وضخامة مناكب ومتانة ألواح وصلابة عظام ، وما شئت من أيد وقوة ، وحمية وفتوة ، وسطوات وفتكات ، وقد وهب الله الأصغر « فرانسوا » بسطة فى العرض والطول ، وصوتا جهوريا أجش كأنه قصف الرواعد المرزمات ، إذا انبعث فى أرجاء الغابة ارتجفت لهوله أوراق الدوح الباسق ارتجافها تحت عصفات الزعزع النكباء ، ولو اطلعت على ذينك الجبارين وقد اعتليا صهوتى جواديهما العتيقين وأركضاهما فى ميادين الطراد ، لحسبت « ريكاردوس قلب الأسد » و « وأيفانهو » يتساجلان لحرب عوان ، وعمرو بن معد يكرب ، وزيد الخيل يتباريان فى حومة طعان ، وكأن الجوادين تحتهما هيكلان عليهما برجان ، وطودان فوقهما هضبتان .

فى شتاء ١٧٦٤ أشتد البرد وجاعت الذئاب حتى ألهب السغب أحشاءها ، فتنمرت واستأسدت وهددت البلاد بالخطر الجسيم والشر العميم ، فجعلت تدنو من العمران وتلوب حول القرى والدساكر وتحوم ، وربما افترست سارى الليل فى روحاته ، وراعى الشاة فى غدواته ، ثم ازداد شرها فصارت تغشى أفنية البيوت طول الليل دائبة الصراخ والعويل ، كلما أمكنتها الفرصة السانحة أخلت الحظيرة من الظلف ، والإصطبل من الحافر .

* * *

وتحدث الناس أن ذئبا أغبر ضخما جسيما قد طغى طغيانا ، وعاث وأفسد فالتهم طفلين ، واختطف ذراع امرأة ، وأهلك عددا عظيما من كلاب القرية ، واستباح حريم الأجران والحظائر فاستبى ما شاء من الماشية ، وقد أقسم الفلاحون

« الخنس ، الجوارى الكنس » أنهم سمعوه على ثقب الباب يتنفس فأطفأت القنديل أنفاسه !

فريعت القرية برمتها من هول ذلك النبأ العظيم وضجت ، وهفا الجزع بالقلوب وطار الهلاع بالأحشاء والمهج ، وأحجم الناس أن يغادروا الدور بعد الغروب ، وخيل إليهم أن ظلال العشى والمساء كانت من شبح ذلك الغول المخوف معمورة !

وعند ذاك أصر الأخوان أن ينشدا هذا الذئب فيقتلاه .

وعلى ذلك ندبا جميع سادة القرية وسراتها ليوم صيد حافل .

وخرجوا جميعا فى طلب الذئب ولم يألوا بحثا وتنقيبا ، ولكن بلا طائل ! وكم قتلوا من ذئاب ولكنها خلافه ، وفى كل ليلة تعقب نهار صيد كان ذلك الذئب الشنيع يهبط القرية كمنتقم يطلب ثأرا ، فيفرس سائحا أو يلتهم بهيمة .

وفى ذات ليلة غشى حظيرة الأخوين فأكل خنزيرين وكانا الصفوة والنقاية ، فأحنق الأخوين ذلك وألهبهما إلهابا ، إذ رأياه من الذئب بمثابة إعلان الحرب عليهما والدعوة للمبارزة ! فاصطحبا أفتك ما لديهما من كلاب الصيد ، وخرجا إلى الآجام ومرجل الغضب يجيش فيهما ويغلى ، ويفور تنوره فورانا .

وكذلك من لدن طلوع الشمس إلى أن احتجبت شمس الغروب الدامية ، خلف أغصان الدوح العارية ، طفق الرجلان يضربان فى أعماق الأجمة بلا أدنى ثمرة .

وبينما هما عائدان غضبين محنقين يقرعان السن أسفا ، ويعضان البنان لهفا ، إذ تولاهما شئ مبهم عجيب من الخوف .

فقال الأكبر :

« هذا الذئب ليس بعادى ، إنك لتكاد تحسب أنه يفكر بعقل رجل حصيف ، ألا ترى كيف غلبنا دهاء ومكرا ، وبزنا ذكاء وكيسا ؟ » .

قال الأصغر :

« ما أراه إلا شيطانا مريدا ، فحبذا لو ندفع إلى القسيس رصاصة فيبارك لنا

فيها ، أو يتلو عليها من رقاه وتعاويذه » .

وسكتا مليا .

ثم قال جان :

انظر إلى شدة احمرار الشمس ؟

أما ترى المنظر الغربى صار دما من حمرة الشمس لما غالها الأفق ؟

إن ذلك بالشر لنذير ، وأكبر ظنى أن الذئب طار منا الليلة .

وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى أجفل حصانه ، وهرج حصان أخيه وأعرض فى العنان ، وانفرجت أمامهما أجمة مغشاة بالورق الأصفر الجاف ، وارتفع لهما شبح وحش ضخم أغبر جسام ، وما كاد يلوح حتى طاح فرارا فى شعاب الغاب .

فصرخ الرجلان طربا ، ثم انحنيا على سرجيهما ودفعا الجوادين بقوة هائلة يستحثانهما ركضا ونخسا ، وحضا وزجرا ، تكاد تخالهما يحملان الفرسين كهيكلين أفخاذهما ، ويهمان أن يطيرا بهما فى الهواء .

وبينما هما كذلك ينهبان المدى ويضرمان الشد أيما إضرام ، يعتسفان الغيل اعتسافا ويقتحمان الربى والوهاد اقتحاما ، يسلكان الشعاب ، ويفرعان الهضاب ، إذ اصطدمت جبهة جدى بخوط شجرة عظيمة فلقت جمجمته فخر إلى الأرض ميتا ، وذهب جواده فى الأجمات فغاب فى ظلالها السوداء .

وحبس المركيز الأصغر عنان فرسه وترجل ، ثم أخذ جثة أخيه بين ذراعيه فرأى دماغه يذوب ممتزجا بدمائه السائلة ، فقعد على الثرى ووسد الجثة الدامية ركبتيه ، ولبث ينتظر ويتأمل ذلك الرأس المشوه والوجه الشاحب .

ثم أخذ يتسرب إلى قلبه تيار من الرعب – إحساس خفى غريب ما شعر قط بمثله – هاجس خوف من الظلماء ومن الوحشة والانفراد ومن إقفار الغابة القاتمة الأعماق ، وعلى الأخص من ذلك الذئب الجنى الذى أهلك أخاه ثأرا وانتقاما .

اشتد تكاثف الظلماء وتقعقعت القضب والأغصان من جمشات القر

القارس ، فنهض فرانسوا ترتعد فرائصه ما له على البقاء ثمت من يدان ، ويخيل إليه أنه يوشك أن يلفظ النفس الأخير ، وصُم أذناه فليس يسمع نباح الكلاب ولا صفير الأبواق ، وخرست الطبيعة والكائنات حول الأفق المحجوب ، وكان فى هذا الصمت الحزين تحت ظلال الليل الباردة المثلوجة ما يفعم الفؤاد وحشة ورعبا .

أمسك في يديه الضخمتين جثة أخيه الجسيمة فرفعها وألقاها على سرج جواده ، ثم ركب وسار متمهلا على الطريق المؤدية إلى القصر وبذهنه من الخبل كالذى يكون من صدمة حميا الكاس !

وبينا هو كذلك إذ مر به شبح عظيم أغبر ، شبح حيوان ! فعرته هزة رعب عنيفة ، وانسرب فى فقاره شيء قار كقطرة من ماء بارد ، فصلب على صدره وتلا من الإنجيل ما يشبه « آيات الكرسى » على نحو ما يفعل قسيس يحاول طرد شيطان ، غير أنه فى عين تلك اللحظة حانت منه التفاتة فأبصر جثة أخيه الهامدة بين يديه فانقلب خوفه غضبا ، وأرعدت أوصاله نوبة حنق أشد سورة من الزلزال والبركان .

فاحتث جواده ، وطاح فى أثر الذئب كالسهم المرسل والكوكب المنقض يقفوه ويطارده خلال الآجام والغابات ، يجتاز من الأماكن والبقاع ما لا يعرف ولا عهد له به من قبل ، وعينه معقودة بشبح الذئب الهارب ، الذى عاد وليس يرى منه سوى نقطة بيضاء تطيح فى سواد الليل ، وكأنما سرت عدوى هياجه إلى فرسه فأقبل ذاك يطير بسنابك من اللهب وقوائم من الريح ، يصدم الصخور والأشجار برأس القتيل الملقى على سرجه ، فكانت الأشواك تقطع شعره والقضب والأغصان تختضب من قطرات دمه المرفضة .

ثم نجم الذئب وطالبه من شوابك الآجام ، وأفضيا إلى واد صغير وقد بزغ القمر من وراء الربى والآكام ، وكان ذلك الوادى حجريا تكتنفه الصخور من كل جانب فلا مخرج منه ولا منفذ ، وهنالك كر الذئب وجال جولة ثم انتصب مدافعا .

فأرسل فرانسوا صيحة طرب عالية ، دوى لها فى أرجاء الفضاء صدى كجلجلة الرعود القواصف ، ثم وثب عن جواده شاهرا سيفه .

ولبث الوحش منتصب الشعر كأطراف السكاكين ، مقوس الظهر ينتظر حملة قرنه تتوقد عيناه كالجذوتين أو كالكوكبين .

يدير حجاجاه إذا الليل جنه شهاب لظى يعشى له المتنور

ولكن فرانسوا الجبار – قبل شن الغارة – حمل أخاه فوضعه على صخرة وهيأ وسادة من الحجارة لذلك الرأس المشدوخ المحطم الدامى الجراح فأقره عليها ، وصاح فى أذنه كأنما يخاطب رجلا أصم .

« تأمل يا جان ، تأمل ماذا أنا فاعل يا جان ! » .

فى تلك الأونة أحس فى عروقه وأعصابه دبيب قوة خارقة جنية جهنمية ، لم يعهدها لنفسه قبل ذلك قط ، وظنه قادرا على أن ينسف الهضاب نسفا ، ويدك الجبال دكا ، ويطحن فى قبضة كفه صم الجلاميد طحنا ، وحمل على الذئب ، وحمل عليه الذئب ، فتجاولا وتصاولا :

كلانا به ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتبعه الجد

وشد عليه الذئب يريد اختلاس كبده من بين أحشائه ، ولكن البطل فرانسوا قبض على عنقه دون أن يستعمل حسامه ، وشرع يخنقه على هينة منه ، وفى رفق ولطف ، وإنه يستمع إلى أنفاسه تضؤل وتتخافت ، وإلى دقات قلبه تفتر وتضمحل ، إلى آخر دقة ، وفى خلال ذلك كان يضحك كالبله ، ويترنح من الطرب كالمجانين ، ويشد على عنق الوحش قبضته الساحقة ، ويصيح فى حمى نافض من الفرح :

« تأمل يا جان ، تأمل ! » .

دأبه ذاك حتى استرخت أوصال الذئب فى يده ، وعاد جثة هامدة ،ثم إنه وضع الجثتين على السرج ، إحداهما فوق الأخرى ، وكر عائدا إلى قصره فدخله يضحك ويبكى ، كأنه « جارجانتوا » (بطل قصة « رابليه » الخالدة) يوم ميلاد « بانتاجرويل » .

فجعل يوالى صيحات الطرب ويرقص حبورا ومرحا إذ يصف مصرع الذئب ، ثم ينتحب ويعول ويمرق شعر لحيته إذ يصف مصرع أخيه وطفق يقول وما برح يرددها طول عمره :

« واها واها : ألا ليت أخى كان أبصرنى إذ أصرع الذئب ، إذن لمات مسرورا » .

وهنا انتهى المركيز « دارفيل » من حدبثه .

وقال أحد الحاضرين : أنشدك الله ، هل هذا حديث خرافة ؟ » .

فقال المركيز :

« إى وربى ، إنه لحق ! » .

قدم المومية

طرقت ذات يوم حانوتا من حوانيت التحف الأثرية والطرف العادية ، وكان ذلك الحانوت أشبه شيء بمعرض عام لمختلف العصور والأجيال ، فكأنما التقت فيه على قدر جميع الأمم والشعوب فى شتى الدهور والأزمان . فكنت ترى ثمة مصباحا خزفيا أحمر من عهد شارلمان مستقرا على خزانة أندلسية من الأبنوس المرصع باللجين ، وتمثال دوقة من بلاط لويز الخامس عشر ، تمد قدمها تحت مائدة ضخمة من طراز عهد لويس الثالث عشر ذات قوائم غليظة من البلوط منقوشة بتهاويل من شوابك أغصان ، تلتف حولها أفاع وصلال ، وقد صفت على جوانب الحانوت فوق الرفوف شتى ضروب من الآنية اليابانية ، تتألق على صفحاتها نقوش حمراء وزرقاء مفصلة بخطوط دقيقة من الذهب — إلى جانبها مصنوعات خزفية مطلية بالمينا من مخلفات المثال « برنارد باليسى » محلاة بزخارف بارزة على أشكال حيات وعقارب وسلاحف وسوام أبرص وضفادع ، وكان ثمة صناديق تنبعث من أحشائها أنهار من أنسجة الحرائر المفضفضة والمذهبة ، وعلى الجدران تتراءى الصور والتهاويل من كل عهد وزمان ، تحييك بسامة الثغور من خلال إطاراتها العتيقة .

ومن إحدى الزوايا كانت تتوامض حلقات فينيسية حصداء ، وفى زاوية أخرى تتضاحك تماثيل ربات العشق والجمال مصوغة من الخزف الصينى ، وقد ناءت الرفوف تحت فادح أعبائها من المواعين السكسونية والمصابيح الغوطية ، وتراكمت فى أركان المكان السيوف الهندية والخوذ الأسبانيولية والرماح الخطية .

وجعلت أجوس خلال الحانوت يتبعنى صاحبه يتقى بيديه مساحب أذيال ردائى ، خشية أن تكتسح فى طريقها بعض تلك النفائس ، ويراقب حركات يدى ومرفقى مراقبة الشحيح عاديات الدهر على ذخائره .

وكان لذلك التاجر منظر عجيب مدهش ، صلعة منفسحة الأرجاء « كأن

ساحتها مرآة فولاذ » يحيط بها إطار ضيق من الشعر الأبيض ، وعينان صفراوان تختلجان فى حجاجيهما كأنهما ديناران يدوران فوق زئبق ، وأنف أقنى ينم عن محتد شرقى أو إسرائيلى ، ويدان نحيفتان معروقتان قد برزت عروقهما كأنها الأوتار على صفحة الكمنجة ، مسلحتان بأظافر كبراثن أطراف أجنحة الوطواط ، ترعشان هرما ، ولكن هاتين اليدين المرعشتين كنت تراهما أشد ثباتا وأوثق قبضة من كماشة الحديد ، أو من براثن الليث حينما تتناولان أية تحفة من الأمتعة : قدح يابانى أو مرآة فينيسية أو بلورة بوهيمية .

– ألا تشترى شيئا منى اليوم يا سيدى ؟ هاك خنجرا ألبانيا ، يتموج نصله كالثعبان ويسطع فرنده كاللهب ، انظر إلى طرائقه لكأنها طبعت لتكون للدم المهراق مسايل وأنهارا .

يتناول الـــــروح البعيد مناله عفوا ويفتح فى القضاء المقفل

وهذا الحسام ذو المقبضين ، إنه من صنع « جوزيبى دى لاهيرا » ، لله ما أدق وما أغرب !

– كلا ما بي إلى هذين من حاجة ، حسبى من آلات الفتك والإعدام ما عندى . إنما أريد تحفة دقيقة تصلح ثقلا يوضع على الورق .

فأقبل العفريت الهرم يفتش بين أدواته ، ثم صف أمامى بضعة من العاديات النحاسية ، أوثان دقيقة صينية ودمى يابانية ، ولعبات غريبة الأشكال تمثل الإلهين بوذا وبراهما ، مهيئة للقيام بوظيفة صيانة الأوراق فوق المكاتب ، تلك الوظيفة التى لا تتفق ألبتة وشرف الألوهية وعظمتها .

وبينما أتردد بين تنين من الصينى ذى فم شنيع قد تشابكت أنيابه العضل ، وبين صنم صغير مكسيكى يمثل الرب « زتزبليبوتيزيلى » وقعت عينى على قدم بديعة حسبتها لأول وهلة قطعة من تمثال الإلهة فيناس – الزهرة ، وكان بها لمع حمراء وبرتقالية مما يمتاز به البرونز الإيطالى ، وكان لها رونق وبهاء مما صقلت أديمها لثمات عشرين قرنا ، إذ خيل إلى أنها من البرونز الإغريقى (الكورنثى) من مصنوعات الجيل الذهبى، وربما كانت من منشآت المثال « ليسيباس » نفسه .

– قد اخترت هذه القدم ..

فنظر إلى التاجر عن تهكم واستخفاف ، ومد نحوى القدم لأفحصها بدقة .

ولما تناولتها راعنى خفة وزنها ، ولم تكن من برونز كما حسبت ولكن من لحم – قدم آدمية محنطة ، قدم مومية . وباستقصاء فحصها تبين لى نسيج البشرة وأثر الرباط بها من الخطوط الدقيقة التى لا تكاد تستبين للعين المجردة ، ورأيت أصابعها نحيلة لينة ، والأظافر سليمة نقية شفافة ، ودلنى إخمصها الناعم الأملس على أنها لم تطأ قط أديم الأرض حافية ، وأنها كانت تحذى أوثر الفراء وألين الأدم .

وصاح التاجر ضاحكا بقهقهة عجيبة ، ووكل بى ناظربن كعينى البومة :

– ها ها ها ! وهكذا تطمع أن تنال قدم البرنسبس هرمونثيس !

ها ها ها ! تريد قدم الأميرة لتجعلها ثقالة للورق ! فكرة بديعة .. فكرة فنية ! ماذا كان يصنع فرعون الجبار لو نبىء أن قدم كريمته المحبوبة ستتخذ يوما ما ثقالة للورق ، بعد ما سخر الآلاف من رعاياه لينحتوا فى الهضبة الشماء ضريحا لتابوتها المزين المذهب - ضريحا منقوش الجدران بالرموز والطلاسم ، مزخرف الأركان بصور البعث ويوم الموقف العظيم !

– بكم تبيع هذه المومية ؟ ..

– بأقصى ما أستطيع ابتزازه ، فإنها تحفة من أبدع التحف وأغلاها ، قدم فرعونة وابنة فرعون ، تلك عليا منازل الفخار والشرف !

– لا مشاحة ، ولكن كم تطلب ؟ ولتعلمن أن كل ما معى لا يتجاوز خمسة جنيهات .

– خمسة جنيهات فى قدم الأميرة هرمونثيس ! هذا قليل ، قليل جدا ..

قال ذلك وهو يهز رأسه ويقلب مقلتيه فى حجاجيه ، كمن يشاور نفسيه ، ويتردد بين رأييه .

– خذها بورك لك فيها ..

ثم لف القدم فى نسيج من الحرير الأحمر ، وصب الجنيهات فى كيس

عتيق معلق فى حزامه وقال مرددا سابق أقواله :

– قدم البرنسيس هرمونثيس تستعمل ثقالة الورق !

ثم سلط علي عينيه الصفراوين ، وصاح بصوت حاد أشبه بصراخ هرة ابتلعت شوكة أو عظمة :

– هذا لا يسر فرعون الجبار فى مثواه ، لقد كان شديد المحبة لابنته ، يرحمنا الله وإياه .

قلت له ضاحكا :

– إنك تتكلم كأنك كنت لفرعون معاصرا ، ولا أنكر أنك فى السن لطاعن ، ولكنى لا أحسبك للهرم صنوا ، ولا لأبى الهول توأما .

وذهبت إلى دارى فرحا بالغنيمة ..

ومبادرة بالانتفاع بالقدم الملكية وضعتها على كوم من الورق ، فكان لها منظر بديع رائع عجيب !

وغادرت المنزل فى قضاء حاجتى وشئونى ، ولما عدت موهنا من بعض مجالس الشراب .. وقد تمشت فى مفاصلى حميا الكاس ، صافح أنفى رائحة ذكية شرقية ، وذلك أن حرارة الغرفة استثارت ما كان ممتزجا بأجزاء المومية من أخلاط الحنوط فأذاعته فى الهواء فتضوع له عبق عطر نفاح يفعم الخياشيم – عبق لم تستطع محوه وتبديده أربعة آلاف من السنين .

ما أعجب مصر وشأنها ! أحلام مصر هى الأبدية ، وروائح مصر لها صلابة الصوان وامتداد أجله .

وما لبث أن طاف علي النعاس فأروانى عللا من كأسه السوداء ، وغمرنى من طوفان العدم والفناء أمواجه الحالكة .

ثم ما عتم أن تنفس على ضياء فجر الأحلام ، فرأيت فيما يرى النائم غرفتى كما هى علي الحقيقة ، حتى لقد أوشكت أن إخالنى فى يقظة لولا شعور مبهم أوحى إلىّ أنّى لا أزال نائما على وشك أن أبصر شيئا عجبا .

وأرتعت ناظرى فى أنحاء الغرفة كالمترقب المتشوف ، ولكنى وجدت كل

شئ كما هو لا نقصان ولا زيادة – كل أداة من الأدوات فى مكانها ، والمصباح تحت زجاجته يشتعل كعادته ، والصور على الجدران تلمع بين إطاراتها ، والستائر مرخاة على رسلها ، وآية الهدوء والسكينة تشمل المكان برمته .

وما هو إلا كلمح البصر حتى اضطرب ذلك الهدوء والسكينة ، فاهتزت مصاريع الأبواب والنوافذ ، وصرت الأخشاب ، واندلع لسان النار من الموقد المغشى رمادا ، وكأن ما نقشت به الجدران من الحلق المستدير عيون رواصد ترقب ما سوف ينكشف عنه حجاب الغيب .

واستقر طرفى على المائدة الحاملة قدم الأميرة هرمونثيس ، فشاهدت عجبا ! شاهدت تلك القدم تتحرك حركات غريبة تنقبض وتتقلص ، ثم تتوثب فوق الأوراق كالضفدعة المذعورة حتى ليخيل إليك أنها اتصلت بغتة بجهاز كهربائى . وجعلت أسمع وقع مصكها صلبا يابسا كحافر الغزال .

فساءتنى هذه الحركات النزقة الطائشة من تلك القدم ، وكنت أحب أن لا أرى منها أثناء تأدية وظيفتها إلا الثبات والوقار والرزانة ، وأدهشنى أن أرى قدما تسعى وتنتقل بلا ساق ، ودب الرعب فى جوارحى وأوصالى . ثم سمعت دقات متوالية على أرض الغرفة أشبه بمواقع قدم عرجاء فقف شعر رأسى وأرعدت فرائصى .

وانفرجت ستائر كلتى وإذا أمامى منظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

غادة فتية السن سمراء البشرة قد تحلت بأكمل نموذج من الجمال المصرى ، ذات عينين نجلاوين سوداوين ، وحاجبين مقوسين ، وأنف كالسيف أو قصبة من در ، تخالها دمية إغريقية لولا إشراف فى وجنتيها وغلظ فى شفتيها يدلك أصرح دلالة على أنها من بنات ذلك الشعب المجيد الذى كان يقطن مرة على ضفاف النيل .

وكانت محلاة الذراعين والمعصمين بأساور من خرز ، وكان شعرها مجدولا ضفائر صغيرة ، وقد ازدان صدرها بتمثال وثن دقيق من البلور يحمل سوطا ذا سبعة ألسن – دلالة على أنه يمثل الإلهة « إيزيس » مكللة الجبين بصفحة وضاءة

من الذهب .

وكانت فى مئزر ملفق من شقق من نسيج موشى برموز هيروغليفية مما تلفف فيه الحثث المحنطة .

وسمعت صوت التاجر الأبح يردد تلك الكلمة التى كان لا يزال يلوكها :

– هذا لا يسر فرعون الجبار فى مثواه . لقد كان شديد المحبة لابنته يرحمنا الله وإياه .

ومما أقلق خاطرى أن الشبح كان بقدم واحدة ، فأما الأخرى فكانت قد بترت مما يلى الكعب !

ودنت الفتاة من المائدة حيث القدم كانت لا تزال تتنزى وتتفزز أشد ما تكون قلقا واضطرابا فارتفقت على حافة المكتب ، وأبصرت دموعها تتحدر كأمثال اللؤلؤ المنثور .

فأدركت ما كان يخالج صدرها من الأشجان .

لقد أدمنت النظر إلى قدمها ، وكانت قدمها بحق ، تصوب نحوها ألحاظا فاترات قد خالط الحزن فيها الدلال .

ومدت يدها إلى القدم المتوثبة مرة تلو مرة ، فراغت القدم منها وأفلتت .

ثم بدأت الأميرة هرمونثيس وقدمها المحاورة الآتية باللغة المصرية العتيقة ، وقد علمنى الله أثناء هذا الحلم من تلك اللغة ما لم أعلم .

فصاحت البرنسيس هرمونثيس بصوت عذب رخيم كأنه رنين جرس من البلور .

– خبرينى يا قدمى العزيزة ، وما بالك لا تزالين منى تفرين وتروغين ، أنسيت ما كان مني إليك فى سالف الأزمان من بر وإحسان ؟ أيام كنت أدهنك بالزيت النقى ، وأقص أظافرك بمقراض الذهب الوضى ، وأحذيك نعال الأدم الموشى ، محلاة الحواشى بصورة آبيس المخشى ، وكنت تحملين منى أبدع تحفة فى الآفاق ، وأعجب طرفة على الإطلاق » .

قالت القدم بصوت موجع حزين :

– قد تعلمين أنى لست ملكا لنفسى ، لقد اشترانى ودفع ثمنى صاحب هذا المكان . والتاجر الذى باعنى إنما صنع ذلك انتقاما منك إذ أبيت أن تتزوجيه ، فهو الذى أرسل من نبش نعشك من مستقره بالكرنك ، فانتزع قدمك ليعوقك عن مشهد بعث الأمم فى العالم الأعلى ، ألديك خمسة جنيهات لفديتى ؟

– كلا ! لقد سرق منى جميع ما كنت أملك من حلى وجواهر ولجين وعسجد ..

عند ذلك صحت قائلا :

– أيتها الأميرة ! جعلت فداك ، ما كنت لأحول بين امرئ وقدمه ، تلك قدمك خذيها بارك الله لك فيها ، فلا نعمت بعيش قط إن تسببت يوما فى بقاء أجمل النساء بلا قدم .

فسرت الفتاة بكلماتى هذه أيما سرور ، ورمقتنى بنظرة ملؤها الحمد والثناء ، وأشرقت عيناها بلألاء أزرق .

وتناولت قدمها كما يتناول المرء حذاءه ليلبسه ، ثم أثبتتها مكانها بحذق ومهارة .

وأقبلت تجوب أرجاء الغرفة لتتأكد زوال العرج وقالت :

– سيبلغ السرور من أبى منتهاه حين يرى قدمى قد ردت إلىّ ، اصحبنى إليه تلاق أهلا ، وتصادف رحبا وسهلا ..

فلبست جلبابا فضفاضا موشى بالأزهار الحريرية مما أعارنى هيئة الفراعنة وسيماهم ، واحتذيت نعلا خفيفة ، وأنبأت الأميرة هومونتيس أنى مستعد لصحبتها إلى حيث تشاء .

وقبل الرحيل نزعت هرمونتيس من جيدها تمثال البلور الصغير آنف الذكر ، ثم وضعته على الأوراق المبعثرة فوق المائدة وقالت :

– إن من الحق والعدالة أن أعطيك هذا بدلا .

ثم ناولتنى يدها فألفيتها طرية باردة كجلدة الثعبان ، وارتحلنا .

انطلقنا برهة كالسهم النافذ خلال منفسح من هواء رقيق أزرق . ولبثنا هنية لا نرى إلا سماء وبحرا .

وبعد دقائق لاحت لنا من مسافة طائفة جمة من المسلات تسمو صعدا فى السماء ، وتجلت على جانب الأفق سلالم فسيحة باسقة يكتنفها من دفتيها صفان من تماثيل أبى الهول .

لقد بلغنا الغاية ..

وقادتنى الأميرة إلى جبل من الصوان الأحمر قد شق فى صدره فتحة بلغ من شدة ضيقها وانخفاضها أنها لم تكد تتميز من شقوق الصخرة وصدوعها .

وأوقدت الأميرة مشعلا وتقدمتنى ..

فأجتزنا دهاليز تتغلغل فى صميم الصخر منقوشة الجدران بالطلاسم الهيروغليفية ، وصور المواكب الدينية ، مما يخيل أن نقشه قد استغرق مجهود آلاف الصناع فى آلاف السنين .

هذه الدهاليز المتناهية طولا وامتدادا أفضت إلى غرف مربعة قد لحدت فى أوساطها حفر ، فنزلنا إحداها على سلم حلزونى فأفضينا إلى غرف أخرى تؤدى إلى دهاليز أخرى مزدانة أيضا بصور الصقور والأفاعى المطوية حلقات بعضها فوق بعض – بدائع وعجائب من تحف الفن وآيات الصناعة ، وأساطير منقوشة بأحرف الصوان لا يستطيع التوفر على قراءتها سوى الأموات خلال الأبدية الآبدة !

ثم أفضينا أخيرا إلى حجرة فسيحة فيحاء مترامية الأطراف ، تسافر فيها العيون فتحسر من بعد أقطارها ، تمتد إلى أعماق أعماقها صفوف متتابعة من العمدان لا يلحق الطرف أقصاها وينقلب عنها البصر خاسئا وهو حسير ، تتلألأ خلالها نجوم زرقاء تضرب إلى الصفرة ، نقط من الضياء تكشف حجب الظلام عن أعماق من الفراغ لاتنتهى إلى أمد !

وكانت الأميرة هرمونثيس لا تزال تقبض على يدى ، وجعلت تومئ بالسلام إلى أصحابها وأترابها من الموميات .

واعتاد بصرى ذلك الضوء الكامد المختلط بالظلام ، واستبانت لى الأشياء واتضحت .

ورأيت ملوك عالم الأموات على عروشهم شبوخا شيبا ، حجاجح مغاوير ، وإن كان قد هدمهم البلى وأذواهم الدهر وسود جلودهم النفط والقار ، عليهم الدروع المسرودة الحصداء ، والبيض واليلب من خالص الذهب المرصع بالياقوت والزبرجد ، قد جمدت عيونهم لا حراك بها كأعين التماثيل ، وصوحت لحاهم ثلوج الحقب والدهور ، ومن خلفهم الأمم والشعوب محتشدة من ورائها العجول والسنانير والتماسيح المقدسة من بين عاوية ومصفقة بأجنحتها ، وفاغرة أفواهها .

لقد كان مجمعا حافلا يضم بين حاشيتيه كل الفراعنة : خيوبس وخفرس وبساماتبك وسيزوستريس وأمنفتاح ، ساسة النيل وسادة القطرين وبناة الأهرام ، ومن فوق هؤلاء كان يجلس على أريكته العلياء كرونوس وزيزتروس من ساد إبان الطوفان ، وتبويال قابيل من حكم قبله .

وكانت لحية الملك زيزوثروس قد طالت والتفت سبع لفات حول مائدة الصوان التى كان عليها مرتفقا ، قد استغرق فى غيابة أحلامه !

ومن خلف أولئك كان يلوح لى من خلال سحابة غبراء الملوك الذين حكموا بعد آدم وعدتهم اثنان وسعون !

وقدمتنى البرنسيس هرمونثيس إلى أبيها فرعون ، فأومأ إلى برأسه تحية سمحاء .

وصاحت الأميرة وصفقت بيديها من شدة الجذل !

– لقد أصبت قدمى ، لقد ردها إلى هذا السيد الكريم !

فصاحت الأمم والشعوب جمعاء فى نفس واحد :

– لقد أصابت الأميرة هومونثيس قدمها !

لقد بدت آيات السرور حتى على وجه زيروثروس نفسه .

فرفع أجفانه الثقيلة المطبقة ، ومسح بأنامله على شاربيه وألقى على نظرة متئدة قد أوقرتها القرون العديدة وصاح :

– أقسم بربانية جهنم وبابنة الشمس والحق المنير أنه لماجد همام ، وأومأ نحوى بصولجانه :

– ماذا تبغى جزاء على صنيعك ؟

قلت « يد ابنتك للزواج » إذ رأيت أن اليد هى أحق ما يصلح بدلا من القدم .

فحملق فى فرعون مستنكرا مطلبى هذا :

– من أين الرجل ، وما سنك ؟

– فرنسى فى السابعة والعشرين من عمرى ، أيها الملك المعظم .

– ياللعجب ! ابن سبعة وعشرين ويريد التزوج من أميرة سنها ثلاثة آلاف عام ! بذلك صاحت عروش الفراعنة كافة ، وطوائف الأمم جمعاء .

ولكن هرمونثيس وحدها هى التى لم تجد فى طلبى مايدعو إلى الدهشة والاستنكار .

وقال فرعون « لو كنت تبلغ من السن ولو ألفى عام فقط ، لكنت ربما سمحت بتزويجك من الأميرة ، ولكن الفرق عظيم والبون شاسع ، هذا وإنه لمن الواجب علينا أن لا نعطى بناتنا إلا لأزواج صلاب يطول بقاؤهم على الدهر ، وأنتم بنى هذه العصور المتأخرة لا تعرفون كيف تحفظون أنفسكم بعد فراق هذه العاجلة ، فقد نرى من قد هلك منكم منذ ألف عام فقط لم يبق منه سوى حفنة من تراب ، أما نحن فعلى نقيض ذلك ، ألا تنظر إلى لحمى كيف لا يزال صلبا كالرخام ، وهذه عظامى تخالها قضبان الحديد متانة ؟ سأشهد يوم القيامة بجسدى وأعضائى التى كانت لى أيام حياتى ، وابنتى هرمونثيس أمتن من ثهلان ذى الهضاب ، وأبقى على الزمن الباقى من الزمن ، انظر كيف أيدى ومنتى وكيف بطشى وقوتى ؟ » .

ثم قبض على يدى قبضة غرزت خواتمى فى لحم أصابعى .

لقد شد على يدى شدة أيقظتنى ، فانتبهت من رقدتى دهشا مذهولا ، وقصدت المائدة أتفقد قدم المومية ، فماذا كانت دهشتى لما لم أجدها ، وألفيت مكانها تمثال البلور الصغير الذى رأيت الأميرة هرمونثيس تضعه بيدها على المائدة بدلا من قدمها !

الغرفة ذات الكواكب الخمسين

لما قدمت باريز أردت أن أشهد الأوبرا ، فاشتريت لوجا ليعرف الباريزيون أن ضيفهم المجرى لا يعز عليه أن يشغل لوجا حتى ولو كان بمفرده .

وكنت أعرف أنى حسن الصورة وضىء الطلعة ، دلتنى على ذلك مرآتى ، ونظرات الفتيات المجريات تلقائى ، وكنت بجمال هيئتى وبهاء منظرى معجبا تياها .

فلما جلست فى لوجى سحبت منظارى فوضعته على عينى ، ثم أرسلت ألحاظى فى أنحاء المكان كافة معتقدا أنه لن يمضى ربع ساعة إلا وقد أولع بى شغفا وهام بى صبابة جميع من هنالك من السيدات والأوانس ، وما ساءنى إلا أن من كان فوق لوجى وتحته من الغانيات قد حرم الحظوة بمشاهدتى والاستمتاع بجمال منظرى .

ولا حاجة بى أن أذكر أن انتصارى فى ذلك الميدان كان باهرا ، وأن كل منظار فى كف غانية راح مصوبا نحو لوجى ، وأن الكونتيسات والمركيزات جعلن يرميننى بنظرات ملؤها الشوق والصبابة ، وأنه لم يفتنى قط أن أجيب على كل نظرة بأسبى منها وأجذب ، وعلى كل ابتسامة بأحلى منها وأعذب ، ولا غرو فالفتى المجرى يعرف مكانه ويشار إليه بالبنان حتى فى باريز ذاتها .

ثم ماذا جرى ؟ لا أنكر القارئ ، لقد وقعت فى حبائل جاذبيتى أميرة باريزية وقد كانت جالسة فى لوج أمامى ، وكانت أجمل من الملائكة . لقد كان يخيل إلىّ أنها ترفرف فى الهواء فى غلائلها الحريرية ، وشفوفها الهفهافة ، وكان عليها من كثرة الحلى والماس والجواهر ما يخيل إليك أنك تنظر منها إلى السماء ذات الكواكب . وأيقنت أنها لم تكن من السفلة وقد تنكرت فى زى الأميرات ، وإنما هى إلهة متنكرة .

لم تحول الحسناء عنى طرفها من مبدأ التمثيل إلى نهايته ، فلو سألتها ماذا

جرى على المسرح لما درت كيف تجييك .

ولما انتهت الرواية ذهبت إلى الممر الذى عرفت أنها ستجتازه ، وسرعان ما رأيتها مقبلة . ودنت منى فإذا هى على القرب أبهى وأجمل منها على البعد ، ولا يحسبن القارئ أنى ممن يذهل جمال النساء عقولهم ويطيح بألبابهم ، فإنى أثبت الناس قدما أمام فتنة المرأة ، وأوطدهم دعامة وأشدهم ركنا ، وأعلم أن الكثير من محاسنهن مصنوع مزيف ، ولكن جمال هذه الغانية كان يتجاوز كل حد ويفوت كل غاية .

وفى أثناء مرورها بى أحسست لمسة خفيفة على يدى ، فلما أفقت من دهشتى ألفيت فى كفى بطاقة صغيرة مطوية فى حلقه خاتم نفيس . لقد كانت دست به أثناء مرورها فى يدى ، ولكن جمالها الباهر ولمس بنانها سلباني الحس والشعور ، فلم أدر ما وقع لى من ذلك لأول وهلة ، ونظرت فى البطاقة فإذا عليها « المركيزة بارشيشى شارع الطليان » ومن تحت هذا الكلمة الآتية منقوشة بخط مليح كسلاسل الذهب ، أو قلائد الدر النظيم « غدا الساعة الثانية عشرة » ..

وكان الخاتم المطوقة به هذه البطاقة من ذهب بفص من الياقوت ، يساوى خمسمائة فرنك على أقل تقدير .

إن التى تطوى رسائلها الغرامية فى خاتم قيمته خمسمائة فرنك لا بد أن تكون من ذوات البيوتات والأحساب ، وإن من أوضح الشواهد على شرف أخلاقها وكرم أعراقها أنها تستودع مثل هذه الجوهرة إنسانا أجنبيا غريبا لم تقع عليه عينها قط من قبل ، ولم تخش أنه بدلا من غشيان منزلها فى الموعد المضروب ربما آثر أن يغشى دكان الرهونات بذلك الميثاق الغرامى النفيس ، لقد حسبتنى — ولا شك — من أهل بيت المملكة المجرية ، أو على الأقل من صفوة أعيانها .

وفى غداة اليوم التالى لبست أفخر ثيابى ، ولم أطق انتظارا إلى الساعة الثانية عشرة فامتطيت مركبة من الساعة العاشرة ، وطفقت أجوب عليها شوارع باريز . ولما دنا الموعد سألت الحوذى أن ييمم بنا « بوليفار دى إيتاليان » أو

شارع الطليان ، وذكرت له منزل المركيزة فعرفه ، ومن ذا الذى لا يعرف مطلع ذلك القمر المنير ؟

وأفهمنى الحوذى أنه لا يستطيع الدخول من ممر المركبات الذى يتخلل الحديقة ، والذى قد أعد للمركبات الخصوصية فقط ، وقد رأيت عددا عظيما من هذه المركبات فى ذلك الممر .

فقلت فى نفسى : لا بأس .. دعهم يدخلوا من الممر الخصوصى على مركباتهم الخصوصية ، فسيعلمون ، حين أبرز البطاقة فى الخاتم النفيس أينا يسبق إخوانه إلى الحظوة بلقاء الحسناء ، وسيرون كيف يؤذن لى عليها وهم وقوف على الباب تتقطع نفوسهم حسرات .

وقفت بى المركبة فى الباب العمومى ، وتقدم إلىّ بواب ضخم جسيم عبوس الطلعة له وجه مجرم سفاح ، غير أنه ما كاد يلمح البطاقة والخاتم حتى ألان من قسوة محياة وشناعة مرآه ، وأنارت ظلمات وجهه ابتسامة وضاءة ،ودق الجرس فبرز خادم فى أفخر الحلل والحلى كله ذهب وفضة ، فانحنى إلى الأرض تحية لى وإجلالا ، ثم أسلمنى إلى خادم آخر أبهى زخرفا وأبهر زينة ، وهذا الأخير مضى بى خلال عدة من الدهاليز والغرف والردهات الفاخرة والأثاث والرياش .

لقد طالما أبصرت الفخم الفاخر من قصور الأمراء ومنازل الوجهاء ،- ولا مثل ما أبصرت عينى الساعة من هذه البهجة والبهاء ، والرونق واللألاء ، والزخرف والطلاء ، والرفاهية والثراء ، فلست بمبالغ إن قلت « لقد حاقت بعقلى وبناظرى الأخطار ، من ذلك المشهد الباهر الذى يستطير الألباب والأبصار » .

ثم دخل بى فى بهو فسيح يشبه المسرح قد تناهى زينة وزخرفا — ليس كمثله شىء — فثمة العجب العجاب من ستائر الديباج ، وتماثيل المرمر ودمى العاج ، والأزهار الأمريكية والبسط الفارسية ، والتحف الخزفية والفضية من صنعة الهند والصين ، وغرائب الصور من بدائع فحولة المصورين ، وفى أعالى الجدران الأربعة ومن دون السقف نوافذ صغيرة جدا ، الواحدة قدر الكف ،

وهى جميعا مغطاة بقطع من الزجاج الأحمر القاتم ، ومن مجموعها يتألف شبه عقد منظوم يحيط بأعالى الحيطان عند ملتقاها بسقف المكان ، وهذه النوافذ الصغيرة الزجاجية مصنوعة على هيئة النجوم وعددها خمسون ، ومن ثم سميت هذه الغرفة « الغرفة ذات الكواكب الخمسين » .

وبينما أنا من منظر هذه النجوم فى دهشة ، إذ فتح الباب وطلعت علىّ ربة الجمال الفتان ، وكانت أملح منها بالأمس لو أن ذلك فى الإمكان — كان فى عينها نظرة طفولة ساذجة بريئة لا تصنع فيها ولا رياء ، وكان لحركات قدها المياس رشاقة فى أبهة ودلال فى جلال ، ولها عينان حلوتان نجلاوان ، وشفتان عن ندى الأفحوان تفتران ، وإلى الصبابة تدعوان ، وبالوله والهيام تغريان ، — وتبسمت — تبسمت لتسرنى ولأنها كانت برؤيتى مسرورة ، ثم دنت تمد إلى يدا رخصة غضة ، وأومأت لى بالجلوس إلى جانبها على متكأ من الحرير ، وغضت من طرفها حياء وسألتنى أن لا أجعل من سرعة تهافتها على بالأمس سببا إلى سوء الظن بها والحكم عليها ، قائلة « لو علمت ما حل بى حين وقع عليك ناظرى لعذرتنى ، لقد جمح بى الحب جمحة ، لم أستطع لها ردا ولا كبحا ، ولم يكن لى بما تأجج فى جوانحى من حرقة الوجد من يدان ، ولا إلى كتمان برحاء لوعتى من سبيل » .

فركعت تحت قدميها واعترفت لها بفرط صبابتى ، فأصابها الذعر من حدة اعترافاتى وحرارة ابتهالاتى ، فنهضت من مستقرها وجرت إلى أقصى زوايا الغرفة فوقفت بها ، وجعلت من ثمة تقذفنى بنظرات مروعة مذعورة من عينيها النجلاوين البريئتين ، — فرأيت أنى قد بدأت المناوشات بأشد مما ينبغى ، وآثرت أن أخفف الحملة ونجحت فى إعادتها إلى مستقرها بجانبى ، واستمحتها الصفح عما كان من تهورى واعتسافى معتذرا إليها بما أصابنى من خبال الحب وجنونه ، فبدأت تبكى فى هدوء وسكينة وخبرتنى أنها لم تصادف قط رجلا يستطيع أن يفهم مكنونات صدرها ، فأقسمت لها لأكونن ذلك الرجل الذى تلتمس وتنشد ، وشرعت أنشدها رقيق الغزل والنسيب من أشعار « بترارك » و« بوكاشيو » ، فمسحت آثار دموعها اللؤلؤية وافتر ثغرها الوضاح عن أحلى ابتسامة ، وكافأتنى

على مظاهر غرامى بآمثالها ، فانحنت على وقبلت جبينى كما تقبل الأم ولدها . وإنى لجالس تحت قدميها فضممت بنانها الرطبة إلى صدرى ، وألصقتها بأحشائى ، ثم لثمت ثغرها لثمة حارة عنيفة كادت تخمد أنفاسها ، فنظرت إلى نظرة عتاب قتالة ، ثم سمتنى « روميو » وسميتها « جولييت » ، وكذلك مثلنا معا الدور الأول من رواية « روميو وجولييت » – ذلك الدور الذى تعاهد فيه العاشقان على الحب الأبدى والوفاء الدائم .

ثم توادعنا ، ولما هممت بالانصراف مالت على معبودتى فهمست فى أذنى قائلة :

« تعال غدا أيضا إبان الظهيرة ، الساعة الثانية عشرة » .

ثم انسلت منى تفاديا من قبلة الوداع وحرارتها ، وألاحت إلىّ بيدها من أقصى الحجرة قائلة بأخفت صوت وأرخم نغمة :

« حبيبى روميو ! » .

فأجابتها متلعثما :

« حبيبتى جولييت ، معبودتى جولييت ! » .

وغادرت المكان بذهن مخبول ، وفؤاد متيم متبول ، وأنا أشبه الناس بالبطل الخالد « روميو » .

لقد اختبلت فعلا وكاد عقلى يذهب ، وقلت فى نفسى « ماذا يكون من أمرى إن كان قد كتب على أن أرجع إلى وطنى مجنونا ! » .

وأردت أن أعرف من الفتاة ، وممن ، ومن أين ، ومن قومها وعشيرتها ؟ لقد قتلتنى ، وقلبت كيانى ، وبدلت روحى تبديلا ، وأمامى الآن أن انتظر يوما كاملا قبل أن أراها مرة أخرى .

لأعدن الدقائق والثوانى حتى ظهيرة الغد ، ليت شعرى أأرجع إلى بلادى بمسكة العقل التى جئت بها هذه المدينة الزهراء ؟

وفى المساء قصدت دار الأوبرا دفعا للملالة ، ورجاء أن أظفر من معبودتى بنظرة .

فلقيني على طريقي الكونت « آرثر » شيخ مجرى من أبناء جلدتي ، قضى ردحا من الزمان مغتربا في عاصمة فرنسا ، فتعانقنا وقد سر أحدنا بأخيه سرورا لا مزيد عليه ، وبعد المألوف من كلمات الترحاب والحفاوة أخذنا نتناقش كيف نقضى السهرة وأين ، فاقترحت الأوبرا .

فاعترض صاحبي قائلا :

« هذا شيء سئمناه ومججناه ، وماذا يسرك من طائفة ممثلين يتحادثون عن الحب وهم لا يحسونه ، ويحكون لك أمورا لا الحقيقة لها ، ويبدون لك من العواطف أكذبها ، ومن الإحساسات أبعدها من الحق وأقربها إلى الزور والباطل . هلم بنا إلى مكان أعرفه يمثل فيه روايات واقعية كل ما فيها حقائق . حيث واحد من الممثلين – على الأقل – لا يمثل دورا ولا يظن أنه على مسرح تمثيل ، وإنما يعتقد أن كل ما يفعله هو الحقيقة التي لا مراء فيها ، هنا تجد الرواية قطعة من الحياة مفتلذة من صميم أحشائها ، وسنرى الليلة رواية عطيل بذلك الملهى ، وستسر بها إن شاء الله ، هلم بنا » .

فانقدت معه كما يشاء ويهوى ، وكان ثمن التذكرة مائة فرنك ولكن ماذا يهمني من ذلك !

مررنا خلال طرقات عديدة ، ثم دخلنا رحبه مظلمة فارتقينا سلما خلفيا ودفع كل منا مائة فرنك على مكتب بائع الألواح ، ثم استلمنا موظف فدفع بكل واحد منا في صندوق لا يسع إلا إنسانا واحدا ، وكان داخله مظلما وليس فيه سوى نافذة قدر الكف ، عليها زجاجة صغيرة تستغرق العين مساحتها ، كأنما صنعت على قدر عين الناظر ، فوضعت عليها عيني : يا للدهشة الهائلة ! ماذا أرى ! عين الغرفة التي كنت فيها ظهر يومي – وعين الغادة الحسناء – عين معشوقتي ومعبودتي على عين ذلك المتكأ الذي كانت عليه إذ أركع تحت قدميها ضارعا مبتهلا ، وكان إلى جانبها رجل إنكليزي (مغفل مثلي) ومن وراء النجوم الخمسين التي تكلل أعالي جدران الحجرة خمسون عينا (ضمنها عيني أنا) تنظر إلى الرواية المتقنة ، لقد كانت الحسناء تمثل الآن رواية عطيل مع الرجل الإنكليزي ، مثلما مثلت معي من قبل رواية روميو وجولييت –

وكان الإنكليزى الأبله المسكين لا يرى الأمر مهزلة بل يراه أقصى منتهى الجد والحقيقة ، فكان يقوم ويقعد ، ويرغي من شدة الغيرة ويزبد ، — أما المليحة فقد أبدعت فى هذا الدور الدقيق كما أبدعت معى فى سابقة ، وأجادت تمثيل البطلة « ديزديمونا » الباكية المولهة مثلما أجادت تمثيل جولييت الساذجة البريئة ، أجل والله لقد أتقنت دور ديزديمونا أيما اتقان ! لقد استطاعت أن تشعل نار الغيرة فى صدر الرجل الإنكليزى « عطيل » حتى أوشك أن يذبح نفسه ويذبحها .

لقد كانت المهزلة حقا تساوى مائة فرنك وأكثر .

والقارئ يفهم من تلقاء نفسه أنى لم أف للحسناء بموعد الزيارة فى اليوم التالى ،ولم أشأ أن أمثل معها باقى أدوار « روميو وجولييت » لفرجة الجمهور المطل علينا من أبراج الكواكب الخمسين ، وإنما كان من أمرى إنى غادرت على أول قطار ، مخافة أن يلقانى امرؤ فيهنئنى على فرط إبداعى فى تمثيل « روميو » .

الظلال المذلهمة

كان « يوجين فورجاكس » فتى فى السابعة والعشرين من عمره ، رشيق القد ، وسيم الطلعة ، قد احترف فن التلحين والموسيقى ، يصنع الألحان ويقدمها لصغار الفرق التمثيلية الجوالة التى تمثل رواياتها فى المدن الصغيرة ، متنقلة من بلدة إلى بلدة .

ولما بلغ فى فن التلحين شأوا مذكورا ، قدم إلى العاصمة (بودابست) فقصد بها أكبر دار تمثيلية ، ثم تقدم إلى مدير الفرقة فأطلعه على مكانته من الفن وعلى آثاره الموسيقية ، وعلى ما لديه من الشهادات المؤهلات ، وأبدى رغبته فى الانضمام إلى الفرقة ليشغل بها وظيفة الموسيقار .

ولما اقتنع المدير بحسن كفايته وعلو مكانته ، أدى إليه حقه من الترحاب والحفاوة ، ومن الإكرام والإعظام ، ثم اقترح عليه أن يضع بضعة ألحان لرواية جديدة قد اعتزمت الفرقة أن تمثلها بعد أيام ، وأعطاه نسخة من تلك الرواية ، وعلى ذلك افترقا إلى حين .

ولما انتهى الموسيقار (يوجين) من تأليف ألحان الرواية بعث بها إلى مدير الفرقة ، وبعد يومين جاء الرد بالقبول وأن يحضر إلى دار التمثيل فى أسرع وقت .

وفى صباح اليوم التالى كان مدير الفرقة يجتاز بالموسيقار الصغير رحبة المسرح ، حتى انتهى به إلى أقصى أركانه وهنالك ألفيا المسز « إليصابات جلز » رئيسة ممثلات الفرقة وأشهر مطربات العصر ، ومن قد ند صيتها فى البلدان وتغنت بذكرها الركبان .

فتقدم مدير الفرقة إلى الممثلة الشهيرة وقال :

« سيدتى « إليصابات » ، اسمحى لى أن أقدم إليك المستر « يوجين

فورجاكس » موسيقارنا الجديد » .

فمدت الفنانة يدها مفترة عن أعذب ابتسامة ، فانحنى إليها (يوجين) وهيئته تنم عن فرط الحيرة والارتباك .

وأقبل عليه المدير ، فهمس فى أذنه قائلا :

« اسمع يا مستر (يوجين) ، لاتأل جهدا فى سبيل ملاطفتها والتودد إليها ثم كاشفها الحب وطارحها الغرام ، واسلك بها كل ما لديك من أساليب المغازلة فإن مستقبلك فى يديها ، وكل شئ يتوقف عليها » .

بهذه الكلمات همس المدير فى أذنه ، ثم مضى مع الممثلة الكبيرة .

ولم يدر « يوجين » ماذا يقول للمثلة الكبيرة ولا بأى شئ من المديح والتقريظ يتزلف إليها ، وظلت الممثلة الكبيرة تلهو وتستمتع بما كان يبدو على الشاب « الغشيم » من مظاهر الارتباك والحيرة .

فسألته قائلة :

« أين كنت تشتغل قبل الآن ؟ » .

فأجاب الملحن :

« فى المدن الصغيرة ، مع الفرق الجوالة » .

« سيكون لك معنا شأن آخر ، ستدعى إلى العواصم الكبرى فيينا وبراج وباريز وبرلين وموسكو — إلى كل بقعة من بقاع الأرض ! » .

فقال الفتى مكررا ما همس به مدير الفرقة فى أذنه قبل انصرافه :

« كل شيء عليك يتوقف ! » .

فبدت عليها شواهد الاهتمام والجد ، وقالت :

« سأبذل فى صنعتى أقصى مجهوداتى .. ذلك دأبى وديدنى ، ومن حسن حظى أنك قد سهلت على مهمتى بحسن تلحينك ، فلا مشاحة فى أن ما قدمت إلينا من الألحان غاية فى الابداع » .

فابتهج الفتى بهذا الثناء وأخذته له هزة وأريحية ، وتملكته نشوة الطرب فقال :

« أما إنه ما خطر قط ببالى أنكم تنزلون إلى إبراز ما قدمت لكم من الألحان على مسرحكم الفاخر ، وإنى والله حين بعثت بها إليكم لم يخالجنى الشك على أنكم سترمون بها عرض الحائط ازدراء واستسماجا » .

فترة سكوت ، ثم استأنفت الممثلة الكلام قالت « كم سنك » .

« سبع وعشرون » .

فانطفأت ابتسامتها وخلفها سيمياء من الحزن والألم ، وقالت :

« لابأس .. إني استميحك العذر فى انصرافى الآن ... أعمالى كثيرة جدا .. لا تهمل الحضور أثناء البروفات » .

انصرف يوجين يترنح فرحة وجذلا ، ولم يهمل حضور البروفات من أولها إلى آخرها ، وكان يسره أن يسمع ألحانه يترنم بها ويتغني ، وأنه لا يزال يزداد من الأصحاب الجدد ويستكثر ، وأن لا يبرح يستنشق أوائل نسمات شهرته القادمة . وكان شكره للمطربة الشهيرة لا يحد ولا يكف ، لقد وثق أنها ستكلل بالنجاح ثمرات مجهوده . وكانت « إليصابات » لا تزال تشجعه إزاء كل صعوبة وحيال كل عقبة ، وتقدمه إلى فحول فن الأنغام ونوابغ الملحنين ، وتزج به فى غمار عالم الموسيقى .

وأخلص الفتى الود والولاء للمسز اليصابات ذات الشهرة الذائعة ما بين بطرسبرج ولندن ، وكان هذا الإخلاص مشفوعا بنوع خاص من الشعور قد أفعم ساحة قلبه . ولقد زهاه وشمخ بأنفه أن هذه المطربة التى كان يجلها فحولة الملحنين قد راحت وهى جد معجبة بألحانه .

فكان فى نهاية كل (بروفة) يقبل يدها فى ضراعة وخشوع ، وقد حال فرط التأثر بينه وبين النطق والإبانة .

واتفق ذات يوم أن أصابه ما فت فى عضده وفتر من همته ، فأقبلت عليه تشجعه ومسحت بكفها على عارضيه ، وطفقت تعبث بشعره .

ولما كان فى مساء ذلك اليوم أثناء عودته إلى داره يساير صديقا له المستر « هورن » الصحفى ، قال له هذا الأخير .

« حذار يا صديقى (يوجين) ، حذار » .

قال الملحن :

« ممن تحذرنى ومم ؟ » .

قال الصحفى .

« من الأم « إليصابات » .. كأنى بك قد وقعت فى حبائلها .. إنك يا أخى لا تزال حدثا غرا لم تجرب الأمور ولم تعجم الأيام عودك . وإن الجدة إليصابات لا يسرها من الرجال إلا من كان مثلك غمرا ساذجا غير مدرب ولا محنك ، فأنت عندها الغنيمة الباردة واللقمة السائغة ، إذ هى مع مثالك لا تزال تستطيع أن تسطو بآثار محاسنها البالية ، وتصول بخيال جمالها البائد وصدى حسنها الغابر .. كلا ! لا تراجعنى ، لقد رأيتها اليوم بعينى رأسى وهى تمسح بكفها على عارضيك وتلعب بشعرات ناصيتك .. فاحترس ياصاحبى ، وإلا أصبحت هدف سخرية الناس وضحكة كل لاه ومتفكه .. » .

فدهش « يوجين » أيما دهشة ، إنه لم يكد يفهم مرمى كلام صاحبه ولم يدر من كان يعنى بقوله : (الأم اليصابات) و « الجدة إليصابات » . لقد حز هذا الكلام فى كبده وقدح فى أحشائه ، أيمكن أن يكون هذا القذف الشنيع موجها إلى معبودته إليصابات ، سيدة المطربات وأميرة المغنيات والممثلات ، تلك التى خلعت أبهى حلل المجد وأسنى تيجان الفخار ، والتى قد شغلت فوق ذلك حيزا من قلبه وملكت زمام عواطفه ، والتى أصبح يراها النموذج الأكمل والمثل الأعلى للجمال النسائى .

فظل مبهوتا دهشا لا يعى ولا ينطق ..

وقال له صاحبه المستر هورن :

« أراك قد دهشت وبهت ، أنا لا أنكر شدة إخلاصك لها لثقل ما طوقت جيدك من قلائد مننها العديدة وآلائها العتيدة ، ولكن تذكر يا أخى أن المرأة شيخة هرمة .. وأنها لا تستريح إلى الشيوخ ولا تميل إلى الشيخوخة .. وأن دمها الذى لا يزال — برغم سنها الحاطمة — يتوقد فى عروقها تشهيا وتصابيا

يدفعها إلى اقتناص الفتيان والأحداث » .

فجمد « يوجين » كأنما استحال صنما ، وقال على مضض :

« وكم سنها فيما ترى ؟ » .

« كم سنها ؟ مهلا .. لقد كانت – منذ عشرين عاما – ممثلة مشهورة تعد في طليعة نابغات القيان – هذا منذ عشرين عاما ، فلن تكون مبالغا إن ألحقتها بذوات الخمسين » .

ثم افترقا ، ومضى « يوجين » يتخبط في طريقه ، ثم خطر بباله فجأة أنه لم يلق تلك المرأة إلا على ظهر المسرح ، والمسرح بطبيعته مظلم الهواء قليل الضياء ، وأن المرأة كانت لا تزال تعنى بأن لا يكون اجتماعها إلا هنالك ، وأنه لا يحمل في ذاكراته من شخصها إلا شكل قامتها الهيفاء ، وأنه لم يحقق النظر قطر في وجهها ولا فكر قط في سنها ، وإنما كان يخيل إليه أنها نموذج الكمال الإناثي ، ومن ثم أصابت كلمات صاحبه مواقع الطعنات الدامية من صميم أحشائه .

ولما التقى بها اليوم التالي جعل يتقى نظراتها إليه ويتجنب مواقع ألحاظها ، وكان موقفهما بأظلم أركان المسرح وكان يوجين لا يكاد يبصر وجهها ، ولما انتهت « البروفة » أمرته بالانصراف في رقة وحفاوة كشأنها معه في المرات السابقة .

وبعد مضى أسبوع مثلت الرواية الأولى من ملحنات « يوجين » ، وقبل بروز(إليصابات) على المسرح كان« يوجين » واقفا خلف الستار ينتظر ما سوف تسجل له يد القدر في صحيفته – نهبا موزعا بين عوامل اليأس والرجاء – مضطرب الأوصال قلق الاحشاء يرتقب في سماء الفن طالعه ، أيكون بالسعد مسراه أم بالنحس مجراه ، وإذا ذاك تقدمت إليه (إليصابات) فوضعت يديها على كتفيه وكان وجهها بالأصباغ ملونا ، وبغيرها من صنوف الطلاء مصنوعا ، وهمست في أذنه :

« تشجع ! .. » .

وارتفع الستار ..

فارتعدت فرائص يوجين ، وصدحت « إليصابات » بالغناء وأرهف الملحن أذنه يستمع ، وإذ ذاك قرت أحشاؤه واطمأنت جوانحه وقال فى نفسه :

« هذا مدهش .. هذا باهر .. يالله أبدع غناءها .. أية نابغة ! وأية فنانة ! ثم ما أجملها بعد ذلك وما أحلاها » ..

وهاج جمهور النظارة وماج ، واشتد التصفيق والهتاف ، وأحس « يوجين » لشدة خفقان قلبه أنه يهم أن يطفر من بين أضلاعه .

وإذ ذاك تقدم إليه مدير الفرقة وقال له :

« برافوا .. هذا نجاح باهر ! . قاتل الله هذه المرأة ، أية معجزة لا تستطيعها ، وأية غاية لا تفوتها ! » ..

وأرخى الستار واستأنف المتفرجون التصفيق والهتاف وطلبوا رؤية مؤلف الألحان ، فتقدم « يوجين » وانحنى إليهم ذات اليمين وذات الشمال وكله حيرة وارتباك ، ثم اختفى عن أبصارهم فطلبوه ثانية وثالثة .

وطارت نشوة الزهو والتيه بلبه ، فهجم على المغنية فى غرفة لباسها فابتسمت إليه ، وقالت :

« ألم أنبئك بذلك ؟ »

وأكب على يدها يقبلها ، وعينه بدموع الشكر سكرى .

وأمرته بالانصراف قائلة :

« دعنى الآن ، فإنى أريد أن ألبس ثيابى ، ولكن إن كان لديك بعد انتهاء الرواية فراغ من الوقت ، فتعال إلى فى منزلى لتناول الشاى » .

فانصرف يوجين ، وجعلت التهانىء تنصب عليه من كل ناحية .

وبعد انتهاء الفصل الثانى عصفت زوابع الهتاف والتصفيق ثانية ...وكذلك جرى بعد انتهاء الفصل الثالث ..

يا لها من ضجة هتاف تبشر بالشهرة الذائعة والصيت الطائر ..

وتقدم مدير الفرقة إلى « يوجين » فأمسك بضبعه وقال :

« هلم معنا لنقضى نصف ساعة على مائدتنا نتحدث خلالها عن نجاحك الباهر ،

إن إخواننا يريدون أن يحتسوا بضعة أقداح استبشارا بتباشير مجدك المقبل » .

فمضى يوحين معه ، وهتف له الإخوان والزملاء وغيرهم ، وترنمت بتمجيده الألسن ، وأحس من فرط السرور والغبطة فوق ما كانت تطمح إليه قصوى آماله وأحلامه ..

وانصرف الساعة الحادية عشرة ..

ولما خلا بنفسه تذكر دعوة « إليصابات » فنظر فى ساعته فوجد أنه لا يزال لديه متسع من الوقت ، فولى وجهه شطر منزلها خفاق الفؤاد وثابه .

ولما بلغ دارها دق الجرس فأذن له ..

وتلقته المغنية ، وعليها جلباب رقيق لا صق بجسدها وقالت :

« ما كنت أحسب أنك قادم » ..

« كيف تظنين بى مثل ذلك ، أما علمت فرط شكرى لك وإخلاصى .. »

فاختلست إليه المرأة من مؤخرة عينها نظرة استفسار طويلة وأغمضت أجفانها هنية ، ثم جعلت ترفع أهدابها السود المسبلة قليلا قليلا ، وابتسمت إليه ابتسامة حارة جذابة — كلها إغراء واستغواء وقالت :

« هل لك فى قدح من الشاى ؟ » .

« أجل » ..

« ماذا تريد أن تتحفنا به منذ اليوم ، من مبدعات صناعتك ؟ » .

فشرع « يوجين » يعرض عليها خططه ومشروعاته وقد ازداد اطمئنانا إليها وارتياحا ، وبدأ يحدثها حديث أمانيه الفنية وأحلامه — تلك التى قد صحت طلائعها الليلة وتحققت ، وكانت « إليصابات » جالسة فى زاوية من الحجرة مضاءة بضوء خفيف لين ، مقبلة عليه وكلها آذان إلى حديثه ، وأراد « يوجين » أن ينهض ليضع القدح الفارغ ناحية فمنعته قائلة :

« لا تقم ، وهات القدح فسأضعه أنا مكانه » .

ونهضت فتناولت القدح الفارغ فوضعته على المائدة ، وقالت :

« هل لك فى قدح آخر ؟ » .

فقال الملحن :

« كلا » .

وعاودت الممثلة الجلوس ، ولكن ليس فى مقعدها الذى نهضت عنه آنفا ، ولكن لصق « يوجين » فخذا إلى فخذ وكتفا إلى كتف ، وقالت :

« أفى نيتك أن تبقى معنا طويلا ؟ » .

قال الملحن :

« بلا أدنى شك ، إنى أجد السعادة كلها فى البقاء بين ظهرانيكم ... إنى شاكر فضلك .. وليتنى قادر على الوفاء بواجب الثناء » .

فانثنت إليه تلعب بخصل شعره ، وأبصر وجهها من أدنى مدى .. فى أشعة الضوء الخافت .. أبصر وجهها على خلاف ما أبصره قبل ..

كان وجهها مصبوغا بأسلوب دقيق فنى ، ولكن الصبغة على فرط إتقانها لم تستطع إخفاء ما اتبتته بد الزمان من الغضون والأسرّة .

غضون فى غضون .. فى أنحاء الجبين .. وحول الفم .. والأنف والذقن والنحر .. والجلد من تحتها رهل مسترخ .. بال ، رث ، عتيق ، مستنكر ..

عجوز تمنت أن تكون صبية وقد لحب الجنبان وأحدودب الظهر

تدس إلى العطار سلعة بيتها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهـر

عند ذلك برق بخاطره كل ما كان قد سمعه عن المرأة قبل من إشاعات السوء .

وازدادت المرأة التصاقا به وتحدبا عليه ..

فتولاه الرعب والكرب وعرته قشعريرة ، وما ملك أن ارتد عنها نافرا .

ولم تخف عن المرأة تلك الحركة ، فشخصت عيناها ورجفت شفتاها ونهضت واقفة ، فظلت هنبهة صامتة تحدق فى الفراغ .

ثم إنها رفعت رأسها فى عزة وإباء ، ودلفت إلى المرآة تتأمل فيها خيالها وعلى وجهها أنصع أمارات العذاب والجوى ، ثم جلست فتناولت منديلا ومسحت عن وجهها كل ما كان يعلوه من آثار الزينة ... ..الحمرة من خديها ،

والكحل من أهدابها وأجفانها ، والخطوط من حاجبيها ... . مسحت كل شئ بحركة أليمة بطيئة .

وجعل « يوجين » ينظر إليها مفحما ملحما .

ثم نهضت فذهبت إلى المرآة ثانية ، وبدون أن تلتفت وراءها قالت بصوت خافت منهوك تخاطب « يوجين » :

« اذهب ... » .

فنهض الفتى مغمورا مقهورا دامع العينين ، فانسل من الحجرة فى صمت كأنما يترك وراءه « جثة ميتة » .

الذبابة الخضراء

أتاح القدر للشيخ المزارع الهرم « جون جول » أغنى أغنياء القرية ذبابة لسعته فى يده فورمت وعلاها سواد فى حمرة . وتفاقم الداء فلزم الشيخ الفراش ، وأصبح من القبر قاب قوسين أو أدنى .

وأبرقت زوجة المريض ، وهى شابة فى ريعان الشباب ونضرة الحسن والملاحة ، إلى أحد أطباء المدينة فجاء على عجل ، واستقبلته على باب الدار ، وكان فتى نحيفا بنظارة لا روعة له ولا بهاء . وقالت له :

« أنت الطبيب المشهور القادم من مدينة « بودابست » ؟ هلم معى إلى زوجى ، إنه ليضج من لسعة ذبابة ضئيلة كما لو كان قد لسعه فيل » — وكذبت — فلقد كان زوجها أشد الناس كتمانا لألم الداء وبرحائه ، وتجلدا وصبرا على مضضه وحرقته ، ما توجع ولا تأوه ولا ضجر ولا تشكى ، وإنما كان مضطجعا على فراشه يواصل التدخين كأن ليس به شئ .

قال الطبيب :

« ما شكاتك يا شيخ ؟ علمت أن ذبابة لسعتك » .

فأجاب الرجل من بين أسنانه :

« هو ذاك » .

« ما صفة تلك الذبابة ؟ » .

« خضراء » .

فاعترضت الزوجة قائلة :

« سأدعك أيها الطبيب مع زوجى تتقصى أسئلتك واستعلاماتك ، وأذهب لشأنى ، لقد تركت فى الفرن تسعة أرغفة وبطة » .

قال الطبيب فى ذهول وسهو :

« كما تشائين يا أمى » .

فكرت عليه بحدة وصاحت بلهجة بين الدلال والغضب :

« لشد ما تكذبك نظارتك هذه وتقلب فى عينك الحقائق ! تدعونى أمك وأنت أسن من أن تكون لى أبا ! » .

وحاول الطبيب أن يسكن من غضبها بكلمة على سبيل الاعتذار ، ولكن سرعان ما انصرفت .

وأقبل الطبيب على الشيخ فقال :

« أتشعر بألم ؟ » .

قال الشيخ :

« نعم ، بألم شديد جدا » .

وفحص الطبيب الورم ، وتبين فى وجهه أثر الاهتمام والخوف ، وقال :

« الأمر خطير جدا ، تلك الذبابة سامة » .

قال حون جول فى أتم رزانة وتؤدة ، وكأن الملسوع غيره :

« قد يكون ذلك ، وعلى أية حال فلم تكن الذبابة عادية » .

قال الطبيب :

« تلك الذبابة قد انتقلت إليك عن جثة ميت » .

لم يفه جون جول ببنت شفة .

قال الطبيب :

« من حسن حظك أنى وافيتك فى هذه الآونة قبل إعضال الداء ، وإعواز الدواء وتعذر الشفاء ، ولو توانيتم إلى الغد لضاع الأمل ، وسبق السيف العذل » .

قال المزارع وهو يلهو بحشو شبكة بالتبغ :

« هذا عجيب جدا » .

قال الطبيب :

« أما علمت سرعة سريان السم فى العروق ؟ الوقت أمامنا ضيق ، فتذرع بالصبر والجلد يا شيخ ، إذ لابد من بتر ذراعك » .

قال جون جول بدهشة يشوبها شئ من السخرية والتهكم :

« بتر ذراعى ! » .

قال الطبيب :

« أجل ، ذلك لابد منه » .

فصمت الرجل ، ولم يزد على أن هز رأسه واستمر يدخن .

قال الطبيب بلهجة الترغيب والاستمالة :

ولا تخش شيئا ولا تضق ذرعا ، فالأمر أهون مما تتصور . وكل ما هنالك أنى سأنيمك ، فإذا انتبهت فى غدك انتبهت صحيحا مسلما معافى ، لا آفة بك ولا بأس عليك ، فإن أبيت فليس أمامك سوى الموت العاجل ، لا تطلع عليك شمس الغد إلا وأنت جثة هامدة ، وليس فى قوى السموات والأرضين ما يدفع عنك غائلة المنون ، أتعى ما أقول ؟ » .

فأجاب الشيخ كأنما قد ضجر من كثرة كلام الطبيب :

« دعنى وشأنى » .

ثم استدار إلى الحائط وولى الطبيب ظهره وأغمض أجفانه .

دهش الطبيب من شدة عناد الرجل ، فتركه وذهب ليحادث زوجته فى ذلك الشأن الخطير ..

قالت الزوجة للطبيب بلا أدنى اكتراث :

« كيف حال زوجى أيها الطبيب ؟ »

« سيئة جدا ، وقد جئت أسألك بذل جهدك لإقناعه بضرورة بتر ذراعه » فصاحت :

« العياذ بالله ، أذلك شئ لابد منه ؟ » .

« إن لم نصنع ذلك مات قبل مضى أربع وعشرين ساعة » .

فأحمر وجه المرأة كأنما شنف سمعها ألذ الأنباء وأطربها ، ثم أخذت بضبع الطبيب وأسرعت به تسحبه سحبا إلى غرفة المريض ، وهنالك وقفت ووضعت يديها على خاصرتيها وصاحت تخاطب الطبيب :

« انظر إلىّ ، أمن كان مثلى ملاحة وجمالا ، ورشاقة ودلالا ، وروعة وجلالا ، يخلق به أن يكون زوجا لرجل أجذم مشوه الخلق أبتر ؟ الموت أحب إلىّ من ذاك ! » .

ثم التفتت إلى زوجها وقالت بشدة وحدة :

« لا تدعه يبتر ذراعك يا جون ، لا تصغ إليه ولا تقم لكلامه وزنا ! » .

فأومأ الشيخ إليها إيماءة الموافقة وقال :

« لا تخافى ولا تقلقى يا « كريسكا » لن تقام هنا مذبحة ، لا أريد أن أموت أفلاذا ونتفا » .

وعبثا حاول الطبيب أن يخوف العليل بفظائع الموت وظلمات القبر ، ويزين له مناعم ومباهج الحياة ، وعبثا استحضر نخبة سراة القرية وصفوة أعيانها واستجاش فصاحتهم ولسنهم فى سبيل إقناع الرجل بضرورة العملية ، لقد ذهبت جميع مجهوداته سدى .

فانصرف الطبيب خائبا مكدودا ، وخرج يتمشى برهة فى جوار الدار يتصفح وجوه التدبير ليعثر على وسيلة يدرك بها مراده ، فقصد أفرادا من وجوه القرية وأغراهم بالتوجه معه إلى المريض وإقناعه بضرورة البتر ، وقد فعلوا ولكن بلا أدنى ثمرة ولا فائدة ، وكانت امرأة جون لا تكاد تفارقه خشية أن يؤثر كلام القوم فيرضى بقطع ذراعه (فيشفى وهذا ما لم تكن تريده المرأة) . لقد فرحت أشد الفرح عندما أنبأها الطبيب بوشك انقضاء أجله ، فكانت واقفة بالمرصاد لمعارضة كل ناصح ومرشد ، وتفنيد كل مقال ودحض كل حجة ، حتى ضجر منها الطبيب وصاح بها :

« إذا رأيت الرجال فى مناقشة وحوار فاقطعى لسانك ! » .

فردت عليه قائلة :

« الأعور وسط العميان بصير » .

واستعدت للشر والشجار .

فتدخل المريض حسما للنزاع ، قال :

« لا تصخبى ولا تشغبى ياكريسكا ، وأولى لك أن تذهبى فتحضرى زجاجة نبيذ للضيفان » .

« من أى برميل ؟ » .

« من البرميل الأخضر ، ولكن إذا مت وأقيمت وليمة وفاتى فاسقى الضيفان من البرميل الأحمر فإنه أعتق شرابا » .

وكذلك جعل الرجل يمزح وهو على أبواب الآخرة ، وكان جلدا جريئا له قسوة القرويين وجفاؤهم عند لقاء الموت ، كسائر أهل البادية فى كل آن ومكان .

وشرب الضيوف من المعتقة العقار ، ثم انصرفوا وخلفوا جون جول يستعد للقاء الله .

وفى ساحة الدار صادف الطبيب « بريلى » رجلا أجيرا لدى الأسرة ،وكان فتى غض الإهاب ، ناضر الشاب ، وريق العود كخوط البانة الأملود ، وقال له :

« هيئ لى المركبة فإنى راحل ، وأعلم سيدتك أنى لن أبقى ههنا لتناول العشاء » .

ووقف خارج الدار يتمكث لا يدرى ماذا يصنع ، وقد عز عليه أن يترك الرجل فريسة فى مخالب المنية لجهله وعناده ،ولكيد زوجته وخبث غايتها .

وبينما هو كذلك ، إذ أبصر الرجل الأجير آنف الذكر من خلال الباب يعمد إلى سيدته فى جراة لا تحسن من مثله على مثلها ، ثم أخذ يمازحها ويداعبها على حال قد أسقط معها كل كلفة واحتشام ، وأبصر السيدة تنظر إليه نظرات خنثة فاترة لينة ، فأدرك أن فى الأمر شيئا ، وإن لهما لشأنا ، وكل ما بقى عليه هو استقصاء نبأ ما بينهما من العلاقة ، فقال فى نفسه « لابد أن

يكون فى القرية عجوز مطلعة على كل هنالك من الصلات الغرامية بين أهلها ، من اللواتى يتعاطين مهنة تأليف شمل العشاق ، وإطفاء نيران الأشواق ، ومبادرة ألم الفراق بلذة التلاق » .

واستفسر من أحد الفلاحين عن ذلك فدله ، إذ قال :

« لن تجد أحذق ولا أرفق من الساحرة العجوز « ريبيكا » ، إنها نعم دليل الحيران فى أمثال هذه الشئون » .

وإلى تلك العجوز عمد الطبيب فوهبها بضعة دراهم وقال :

« إنى أتعشق امرأة وأريد تعويذة أو رقية تكسبنى حنانها وعطفها ، ولك بعد ذلك حكمك » .

قالت العجوز :

« ما أحسب أن التعاويذ والرقى تنفع فى أمثالك يا بنى . إنك لعارى العظام ، بادى السقام ، توشك أن تخفى على الأبصار دقة ونحولا .

روح تردد فى مثل الخلال إذا ... أطارت الريح عنه الثوب لم يبن

كفى بجسمى نحولا أننى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

ومن كان ذلك شأنه ، فأحر به أن لا يظفر من النساء بطائل » .

« قد يكون ذلك يا أماه ، ولكنى أجعل التحف والهدايا مكان المحاسن والمزايا ، وأهبها ما تشاء ، ولو طلبت نجوم السماء ، وتشهت لحم العنقاء » .

« ومن عسى أن تكون تلك المرأة ؟ » .

« السيدة زوجة جون جول » .

« فى استطاعتك يا سيدى أن تقطف أية زهرة ، إلا ما قد سبق قطفه »

هذا كل ما أراد أن يصل إليه الطبيب ، قال :

« ومن ذا الذى قطف تلك الزهرة الناضرة ؟ من ذا الذى صاد تلك الظبية الشاردة ؟ من ذا الذى قد ظفر بقلب تلك السيدة ؟ » .

« الفتى بول ناجى ، أجير زوجها » .

« وهل فطن زوجها إلى ذلك ؟ » .

« إنه مهما بلغ من ذكائه ، فلا قبل له بكيد النساء ودهائهن » .

عاد الطبيب أدراجه فألفى الأجير « بول ناجى » لا يزال يتحدث إلى المسز جون جول ، وإنه ليمسح أعطاف الخيل لكى يعدها لرحلة الطبيب . وأومأت السيدة جون جول إلى الطبيب واستخرجت من جيبها أوراقا مالية قيمتها ثلثمائة فلورين وقدمتها إليه قائلة :

« هذا نظير تعبك أيها الطبيب » .

فأجاب الطبيب :

– لا بأس ، ساخذها ولكن على رأسك جريمة منعك إياى أن أصنع ما أستحق عليه ذلك المبلغ » .

– إن ضميرى عن كل ما أتيت لراض ، فأرح أنت ضميرك من هذه الناحية » .

« لاجرم ، مرى بحقيبتى أن توضع فى المركبة ريثما أذهب إلى زوجك فأودعه » .

مضى الطبيب إلى غرفة الرجل فألفاه مضطجعا حيث تركه ، وكان شبكه مطفأ وأجفانه مطبقة كأنه فى سنة .

ولما فتح عليه الباب ، رفع رأسه وفتح إحدى عبنيه .

وقال الطبيب :

– لقد جئت مودعا يا مستر جول‌شبك

– أراحل أنت ؟

– أجل ما بى إلى المكث ههنا من حاجة ..

– هل نقدتك المرأة أجرتك ؟

– أجل ، إن لك لزوجة حسناء يا مستر جول ، جل باريها ومبدعها ! ففتح العليل عينه الأخرى ومد يده إلى الطبيب قائلا :

– أجميلة حقا ؟

– هى الجمال مصورا ، والحسن مجسدا ، طرف فاتر ، وظرف فاتن ، وأنف كحد السيف ، ولمة كالليالى ، وثغر كسمطى لآل ، وحلاوة شمائل كأنداء الأسحار ، على صفحات الأنوار ، وشيم أعذب من ماء الغمام ، وأحلى من ريق النحل ، وأطيب من ماء الورد ، وعشرة ألطف من نسيم الشمال ، على أديم الزلال ، فهى ولا جدال بيت القصيد ، وواسطة القلادة ، وإنسان الحدقة ، ونقش الفص ، ودرة التاج ، وملح الأرض وغرة الزمان .

قال جون جول :

– على رسلك يا أخى ، ولا كل هذا ..

وأضاءت محياه ابتسامة الطرب والسرور والفخر .

قال الطبيب :

طوبى للمتشرد الساقط والنكس السافل الحقير ، بول ناجى ، لسوف ينعم ويتلذ بكل هذه المحاسن والمباهج ، لسوف يظفر بزوجتك من الغد عقب وفاتك ..

قال الرجل :

ماذا تقول ؟

– أقول إنى ارتبت بنية زوجتك مذ رأيتها تحول بينى وبين شفائك ببتر ذراعك ، ألم ترتب أنت فى قصدها ونيتها ؟

فزفر الرجل زفرة حارة من أعماق قلبه ، وأمسك بضبع الطبيب بيده السليمة وقال :

– من بول ناجى هذا الذى تعنى أيها الطبيب ؟

– أتقول حقا إنك لا تعرف شيئا ولم تفطن إلى شئ ؟ بول ناجى أجيركم .

فانتقع لون الرجل وارتجفت شفتاه ، واندفع الدم إلى قلبه ، وزال الوجع عن يده تلك اللحظة ، وصك جبينه ورفع رأسه وقال :

– ما كان أغبانى وأبلدنى حيث لم أفطن إلى ذلك الأمر من قبل ! تبا لتلك الغادرة الماكرة ! تبا لتلك الأفعى الخبيثة !

وجعل يحرق نابه كما يفعل الفحل الهائج .

– لا تبلغن منك الغيرة هذا المبلغ يا مستر جون ، أتأبى إلا أنانية واستبدادا حتى موتك ؟ ماذا يهمك بعد مصيرك عظاما نخرة أن تستمتع زوجتك الحسناء وثمرات جمالها ؟ أتأبى وأنت فى قبرك إلا القضاء عليها بإضاعة زهرة شبابها وصفوة زمانها وحيدة منفردة محرومة من أنس الحبيب العاشق ، ووصال الصب الوامق ؟ لقد جرت عن قصد العدالة ، وركبت سنن البغى والحيف والضلالة ، وأما وقد اخترت لنفسك الموت فدعها تنعم بخلها بول ناجى ، فذلك أدنى إلى الكرم ، وأشبه بالبر والمروءة ..

وجم المستر جون جول واستمر يصرف أنيابه ، كأنه فيل يصك نابا بناب .

وقال الطبيب :

– دعك من هذا الجشع والنهم يا مستر جون ، إن من الظلم الفادح أن يترك بدن زوجتك هذا الغض الناعم يذوى ويذبل دون أن تغذيه اللثمات وتعله الضمات ، وعهدى بالفتى بول حازما أريبا ، وما كان مثله ليدع زوجتك الحسناء تمر به دون أن يحسو منها حسوة ، أو ينال منها قضمة ، فلينعم بها ولتنعم به وإلى مهواة جهنم من يموت ، ولعن الله أحمق الثلاثة ، أعنى إياك !

فزفر الرجل زفرة كادت تقصف أضلاعه وكلل العرق جبينه وكادت كبده تنشق فتصدع .

وقال الطبيب :

– وكذلك ترى يا مستر جول أن ضمك إياها بذراع واحدة أولى لك من أن لا تضمها مطلقا ..

إلى هذا الحد فنى صبر الرجل ونفذ جلده ، فوثب من مضجعه ومده يده العليلة وصاح :

– مبضعك أيها الطبيب وابترها ..

السيف ذو المقبض الذهبى

فى صبيحة يوم من أيام الخريف وقد برزت الشمس من خدرها ، كان يتصاعد دخان أزرق من إحدى مداخن القصر العتيق الذى كان يسكنه الكونت الأحمر ، أو كما كان يسميه أهل الوادى الشرير الأحمر ، وكان مرسل هذا الدخان هو الكيميائى « كونراد » ، الذى كان الكونت استخدمه منذ عامين لصناعة الذهب ، وما برح طول هذه المدة يعالج كيمياءه ويروض صعابها ويمترى أخلافها ، لتدر عليه فيضها الذهبى بلا جدوى .

وكان الكونت واقفا إلى جانبه فى ردائه الأسود الفضفاض ، وكان على النار الموقدة مرجل تغلى فيه أخلاط خفية مجهولة ذات رائحة غريبة منكرة ، وكان للكيميائى لحية بيضاء ضافية تضرب إلى ما دون ركبتيه ، وكان إذا أراد أن يمسح عليها بيده — وذلك كثير جدا — انحنى إلى الأرض ، وقلما استطاع مع ذلك أن يبلغ نهايتها .

وكان هذا الكيميائى محفوفا من كل جانب بآلات عجيبة غير مألوفة ، فعلى الجدران خرائط تبين حركات الكواكب . والسموات عليها مقسمة إلى أبراجها المدون على صفحاتها كتاب القدر ، تقرأ فى ثناياه تصاريف الحظوظ والقسم ، وحيثما التفت ألفيت مسابك وأفرانا من الآجر ، ورأيت أباريق من الصوان لا تؤثر فيها الصواعق ويكل دونها لهيب جهنم ، وصفائح من الرصاص والقصدير ، وألواحا من الرخام والمرمر المسنون ، ومنافيخ تزفر كزفير الصب الولهان ، أو كفحيح الحية الأفعوان ، وفى إحدى زوايا المكان منضدة بديعة النقش تلوح عليها هناة من الذهب فى نصف حجم القمحة ، موضوعة على وسادة صغيرة من القطيفة ومغطاة بكوبة من الزجاج .

ونظر الكيميائى إلى نتفة الذهب تلك ، وحك رأسه وذكر ما كان بالأمس من غضبة الكونت وثوراته ، وتعنيفه إياه بأنه ما برح منذ عامين يعلله بالأمانى

الكاذبة ، ويخدعه بالأباطيل وبالترهات والأضاليل ، وإنه فى خلال ذلك يسرف عليه فى النفقة طعاما وشرابا واستمتاعا بسائر مطايب العيش ومناعمه ، خلاف ما قد بدد من الوفر فى سبيل تجاربه العقيمة ، كل ذلك ولم يستطع أن يصنع من الذهب سوى تلك الهناة الضئيلة . ولقد كان الكونت منذ ستة أشهر عزم على طرد الرجل لولا ما وفق إليه إذ ذاك من صنع تلك الذرة الدقيقة . ولو اطلعت على الحقيقة لعلمت أنه لم يصنعها ولكنه اشتراها ودسها دسا فيما كان يسبكه من الرصاص ، وأوهم الكونت أنه حول ذاك الرصاص ذهبا ، وجازت عليه الخدعة فلم يفطن إلى الحقيقة .

وبديهى أن الكونت لم يكتف بتلك الذرة فألح على الكيميائى أن يزيده .. ومما خاطب به الكيميائى فى تلك الليلة التى تبتدئ فى صبيحتها هذه القصة قوله « تبا لك من ماكر محتال ، ولص ختال ، قد أعرف أنك قادر على استخراج الذهب ولكنك لا تفعل ، وجل قصدك الآن أن تستدر مالى .. تحاول سلبى ونهبى . ويمين الله إن لم تتحفنى غداة غد بكتلة من الذهب لأسحبنك إلى أعلى أبراج قصرى ، ثم لأقذفن بك فى الهاوية » .

قال ذلك ومضى إلى مضجعه .

ولم يذق الكيميائى طعم المنام تلك الليلة ، ولما طلع عليه الفجر كان لا يزال فى حيرة من أمره ، وجعل يناجى نفسه بأمثال هذه العبارة :

« ويلى ثم ويلى ! أنا هالك لا محالة ، أنّى لى بالذهب وما أنا بقادر على صناعته ، ولا عندى من المال ما اشتريه به ، أبعد تسعين عاما قضيتها بالغش والخداع والزور والتمويه ، أقع اليوم فى هذه الورطة ثم لا أستطيع منها خلاصا ؟ إنى لا محالة هالك ! ضلة لى إذ ألقيت بنفسى فى براثن هذا الشرير الأحمر . لقد كان لى فيما صنعه منذ خمس سنين بزميلى « باجاس » عبرة ومزدجر ، إذ صلبه على باب قصره ودق بالمسامير أذنيه حتى تركه كالوطواط الشارد ، ليت شعرى ماذا أصنع ، وكيف أنجو ؟ » .

وبينا هو فى تلك الهواجس دخل عليه الكونت عابسا مكفهرا ، وكان الكونت طويلا مشذبا معروقا ، نحيفا بارز عظام الوجه واليدين والركبتين ، ذا

شعر أحمر شنبع المنظر ، وقال للكيميائى :

« ما فعل الله بك يا كونراد ؟ » .

فأطرق الكيميائى مليا ، ثم رفع رأسه وقال :

« لاذهب عندى أيها الكونت » .

« إذن فاشدد حيازيمك للموت ، لأقتلنك شر قتلة ، ولأمثلن بك تمثيلا . سر أمامى » .

« على رسلك أيها الكونت ، وإن لم يكن دهب فعندى لك ما هو أغلى قيمة وأعظم خطرا » .

« وما عسى أن يكون ذلك ؟ » .

وكانت قريحة الكيميائى قد جادت عليه فى هذه الأزمة الحازمة الكاربة ، بخدعة بكر واكذوبة جديدة أيقن أن فيها نجاته ، قال :

« شىء وأيم الله أنفس من الذهب وأجل قدرا » .

« خاتم الملك ؟ » .

« كلا ! » .

« إكسير الحياة ؟ » .

« كلا » .

« ماذا إذًا ؟ » .

« الغلبة على النساء ، والقدرة على استصبائهن واستباء عقولهن » .

« أكذوبة جديدة تخدعنى بها كما خدعتنى بأمثالها عامين طويلين ، مدة إقامتك عندى ترتع فى مراد خصيب من الرخاء والنعمة يا شيخ الدجالين ، وإمام الأفاكين ، ويا وصمة سوء فى صحيفة العلم الناصعة ؟ » .

قال الكيمائى فى نفسه :

« أراه يشك ، والشك أول مرحلة فى سبيل الاعتقاد ، وهو حلقة باب اليقين » .

وانبرى يزيف أكذوبته ويموهها على الكونت بكل رزانة وثبات ، قال :

« تعلم أيها الكونت . أنى فى أثناء تجاربى العديدة ، قد عثرت عرضا على سبيل الوصول إلى قلب المرأة والتغلب على عواطفها » .

فحملق الكونت وفغر فاه وبرقت أساريره طربا ، وكان كلفا بالنساء صبا مستهاما ، على أنه كان كريها مبغضا إليهن لم يفز منهن قط بطائل .

« لقد سحقت الفضة وأغليت المسحوق فى عصير ورق النارنج ، ثم فى ماء الورد ، هذه هى عناصر الخليط ، فأما المقادير والنسب فذاك سر المهنة ، وحق لى كتمانه » .

ثم إنه كشف مرجلا فإذا فيه فعلا كرات صغيرة من الفضة تغلى فى سائل ، وكان قد صنع ذلك المزيج بالأمس تجربة جديدة وآخر سهم فى الكنانة .

قال الكونت : ثم ماذا ؟ » .

« ثم إنى صانع لك من هذا المسحوق صفيحة رقيقة من الفضة تكسو بها مقبض سيفك ، وإذا جلست بعد ذلك إلى سيدة تخطب مودتها فاجعل يسراك على مقبض سيفك ، فما من سيدة مهما سمت منزلتها وعز مكانها ، بارونة كانت أو كونتيسة أو مركيزة أو دوقة أو ملكة إلا عجزت عن مقاومة ذلك السحر المبين وألقت إليك بالإقليد ولست مبالغا إن قلت إنك ستستطيع بسيفك هذا أن تغزو قلوب النساء جميعا .

قال الكونت :

« هل لى أن أثق بزعمك هذا ؟ » .

« تمام الثقة » .

فى مساء ذلك اليوم فرغ الشيخ « كونراد » من صناعة المقبض الفضى وقدمه إلى الكونت .

وقال الشيخ فى نفسه « لاجرم لقد ربحت فسحة من الوقت » . وليكفى نفسه مئونة الانحناء إلى الأرض ، رفع لحيته على كفه وأقبل يمسحها بوقار

وتؤدة .

* * *

ذاع الخبر فى أنحاء المقاطعة ، وجعلت السيدات النبيلات من ساكنات القصور المجاورة ذوات المقامات السامية والأخطار العالية ، الرافلات فى وشى الدمقس والديباج ، المتألقات فى حلل الجوهر والذهب الوهاج ، يتهامسن بذلك النبأ العظيم ويتغامزن ، وكان مدار حديث القوم فى كل واد ، ومجال سمرهم فى كل محفل وناد ، هو مقبض سيف الكونت الأحمر .

لم يمض ثلاثة أيام على هذا حتى كانت الطلبات تتوافد على الكيميائى من أشراف الناحية وسراتها ووجوهها ، يسألونه بيع ذلك السر بما شاء من مال ، خلاف الاستمتاع بأطيب عيش وأرغده مدة حياته ، ولكن الكونت مولاه أربى على جميع أولئك الطلاب فى الرغد ، وأبر عليهم فى العطاء ، وبذلك استبقى الشيخ فى خدمته .

وفى اليوم الرابع غادر الكونت منزله بنية الزحف على نساء المقاطعة ، وغزو قلوبهن بسيفه .

وكانت أولى غاراته على القصر المجاور ، وكان ربه متغيبا فى سياحة بأقاصى الأرض ، فلم يكن بالقصر سوى ربته المليحة الحسناء ووصائفها الثلاث والثلاثين ، وقد كان الكونت الأحمر قبل ذلك اليوم المعهود لا يزال يتردد إلى القصر يتودد إلى صاحبته الفتانة فلا يرجع من لدنها إلا بالخيبة والفشل ، وكم له بساحة ذلك الميدان من هزيمة شنعاء ، وعن حومة ذلك المكرّ من نكصة شائنة رخيصة نكراء ، ولكن شأنه اليوم خلاف ذلك ، إذ كان لمقدمه جلال غير معهود ، وروعة أحدثت فى أركان المكان رجة أى رجة ، وأبدى الثلاث والثلاثون وصيفة لمولاتهن مزيد رغبتهن فى استقبال الكونت بأنفسهن ، مصرحات بأنهن غير خائفات من مقبض السيف الذى سارت بذكره الركبان ، وعلم نبأه كل قاص ودان ، ولكن سيدة القصر صرفتهن وأزمعت — وهى المشهورة بالعفة والحياء والأمانة والوفاء — أن تتلقاه وحدها فى خلوة .

ولما دخل عليها الكونت الأحمر — وكان أهل الناحية يلقبونه (العظمة

الحمراء) – نهضت من مقعدها وتقدمت لاستقباله ، ثم أجلسته وجلست بإزائه ، وكان الكونت قد وضع السيف بين رجليه ، وجعلت السيدة تسترق النظر إلى مقبضه الفضى ، ترمقه شزرا عن شئ من الهيبة والوجل ، وكان للمقبض بريق كبريق الثلج موحش مستنكر .

وكانت الثلاث والثلاثون وصيفة واقفات خلف باب الحجرة ونوافذها بنظرن إليهما من خلال الأستار والسجوف ، وقد أجمعن كلهن على أن منظر الكونت كان بخلاف المعتاد رائعا باهرا – وذلك من تأثير الوهم فى مخيلاتهن – على أنهن كن يرينه قبل ذلك سخرة وأضحوكة .

وقال الكونت لربة القصر :

« ما أرق النسيم اليوم وما أصفى أديم السماء ! » .

قالت السيدة وسرها أن الكونت لم يضع يده على مقبض سيفه ، إذ كانت تخشى عواقب ذلك أشد خشية ، وتخاف منه على نفسها فتنة الهوى وزلة القدم :

« نعم ما أطيب الهواء وما أصفى السماء ! » .

« الهواء سجسج لا حار ولا قار » .

قالت السيدة :

« نعم رقيق الغلائل مصقول الحواشى » .

« قد تسخن الهجائر وتحمى الودائق ، ولكن الأصائل عطرة أذيال الصبا ، والأسحار خصلة مدامع الندى ، على أن أطيب الأوقات ما ينعم فيه الصب بقرب الحبيب » .

وهنا وضع يده الغليظة الحمراء على مقبض سيفه .

وكانت السيدة ترقب حركاته ولا تزال تتوقع منه ذلك الحادث الخطير ، فما هو إلا أن وقع حتى امتقع لونها وأرعدت أوصالها ، وبدأت الستائر – والسجوف تهتز وتضطرب وقد سرت فى أبدان الوصائف هزة مستلذة .

وقال الصف الأول منهن لمن خلفه :

« لقد وضع يده على المقبض ! » .

وقال الصف الثانى لمن خلفه .

« لقد وضع يده على المقبض ! » .

ورددت الألسن جميعا :

« لقد وضع يده على المقبض ! » .

وانعقد طرف السيدة بكف الرجل المستقرة على مقبض سيفه ، حتى أعياها انتزاع لحظها عنه .

ومضى الكونت فى هذره وهذيانه ، ولكن السيدة لم تصغ إليه وقد أقبلت بكل روحها على يد الرجل المستقرة على المقبض .

على أنها استجمعت قواها ومالت بناظريها عن السيف وصاحبه وهى تقول فى نفسها :

« حديث خرافة لعمرى كل ذلك » .

ولكنها مالبثت أن أقبلت بوجهها على المقبض مدفوعة إلى ذلك بعامل خفى قوى .

وأدنى الكونت مقعده من السيدة ، وشد على مقبض السيف بكل ما أوتى من أيد وقوة ، وتملك الرعب السيدة وحفز الروع أحشاءها .

وقال الكونت مبتسما :

« أمنى تخافين ، وإنى لأحدب عليك من الظئر على رضيعها ؟ » .

وهمست إحدى الوصائف لاترابها قائلة :

« أولى لنا أن نتركهما وشأنهما » .

وهنا تسلل الوصائف من موقفهن فى أتم خفوت ، أناملهن فوق شفاههن إيذانا بالصمت ، لا تسمع لهن من حس سوى جرس الحلى وحفيف إبراد الوشى المفوف .

وقال الوغد الخبيث :

« لقد طالما والله أحببتك وشد ما لقيت فيك من ألم الهوى ، وبرح النوى ، ومضض الجوى » .

فأحست السيدة بغصة نشبت فى صدرها ، وشجا فى حلقها .

وقال الخبيث :

« إنى أعبدك » .

ولم تستطع المرأة أن تنزع لحظها من يده المستقرة على المقبض ، وابتهلت إليه قائله :

« إن كنت تحبنى فارفع يدك عن مقبض سيفك » .

فصاح اللعين فى سورة صبابته ، وأدنى مقعده حتى لصق بالسيدة :

« تالله لا أفعل ذلك أبدا » .

وكانت المرأة ترتجف كالورقة فى مهب الصبا والشمائل .

ونطق الخبيث :

« ما أحلاك ، لأنت أبهى رونقا من نجمة الصباح ، ولا مناص من اتخاذك خليلة لى ومعشوقة » .

واشتدت قبضته على قائم سيفه :

وقالت المرأة الوجلة المذعورة فى نفسها :

« ما أراه نازعا يده عن سيفه أو يذهب بعقلى ، لقد زلت قدمى » .

وهم الرجل بالوقوف ولكنها أحست فى تلك اللحظة بشعرات شاربه الشائك على شفتيها .

وأرادت أن تصيح ، ولكن الرجل كان قد سجنها بين ذراعيه القويتين ، فنكس رأسها كالزهرة آدها الطل والندى ، وكانت اللثمات تسح على شفتيها كشؤبوب ساخن من الغيث .

وصاح الكونت بين لثمتين وهو لا يزال قابضا على قائم سيفه .

« أنت ملك لى » فردت السيدة قائلة .

« إنى ملك لك » .

* * *

واشترى الكونت الأزرق – أحد أعيان المقاطعة وسراتها – ذلك الكميائى من مولاه الكونت الأحمر بمائة ألف دينار ، ولما حصل فى حوزته قال له :

« خبرنى الآن عن سر ذلك التركيب العجيب يا كونراد » .

وكان الكونت الأزرق من المولعين بالنساء ، وقد رأى أن الكونت الأحمر قد جنى فى خلال العشر السنين الأخيرة محصولا وافرا من أجمل الغانيات بقوة سحر المقبض الفضى ، فأجابه الكميائى قائلا :

« والجحيم ذات اللظى والسعير ، وزبانيتها وزقومها وغسلينها ، إنه لا سر هنالك ولا تركيب ، وسواء عليك أهاجمت النساء بالمقبض الفضى أم بمسمار من الحديد أم بزر من النحاس ، أم بحدوة حصان أم بفجلة أم ببصلة ، فكل هذه سواء وسر الأمر أنك إذا هاجمت المرأة فاجعل سلاحك وعدتك ثقتك بنفسك ، واعتدادك بمواهبك ومزاياك – فهذا هو سر التركيب ، فإنه لا مفر للمرأة من الرجل الواثق بنفسه . ولكن هذه الثقة بالنفس ينبغى أن تعزز بالعقيدة الراسخة ، فإن العقيدة لتفعل كل شئ ، يجب أن تؤمن وتعتقد بقوة بأسك وشدة بطشك ، فإنك إن لم تؤمن به وتعتقد ، فالنساء أولى أن لا تعتقد وأن لا تؤمن ، وسواء عليك اعتقدت فى مقبض فضى ، أو فى مسمار من الحديد ، أو فى زر من النحاس ، أو فى حدوة حصان ، أو فى فجلة أو بصلة ، أو فى جمال طلعتك أو فى رشاقة قدك ، أو فى شمائلك ، فالنتيجة واحدة – الظفر موكول بقوة الثقة وصحة العقيدة فى النفس ، والآن إذا أطلعتك على حقيقة الأمر ، وتبين لك أن حديث المقبض الفضى زور وتمويه ، وقد زالت عنك الثقة والعقيدة فيه ، فعبثا تزحف به على قلوب النساء ، إذ أصبحت تعوزك العقيدة التى هى وسيلة الظفر وسر النجاح » .

بهذه الكلمات الأليمة صرح الشيخ وهو على سرير الموت ، وكان قد بلغ المائة ووقف به على خافة القبر داء البقاء ، ولم يكد يتم عباراته حتى وثب إليه الكونت بضربة من حسامة سبق بها إليه عزرائيل .

وكذلك مات الكذاب « كونراد » وكان الحق على لسانه .

الجرح الخفي

طرأ على احد الجراحين ذات صباح ، رجل من علية القوم وذوى الجاه واليسار ، وكان يبدو على محياه أمارات الألم الشديد ويمناه مشدودة برباط إلى عنقه ، وهو يتأوه من حين إلى حين ، وقال للجراح :

« لم أذق مناما منذ أسبوع ، وإن بيدى اليمنى لوجعا شديدا لا أفقه له كنها ، ولا أستبين له سببا ، وإنه ليلتهب التهابا ولا يزال يشتد ويزداد حتى لا أطيقه ، ولودام على ساعة أخرى لذهب عقلى . وقد جئتك لتستأصله من موضعه كيا أو افتلاذا – بالنار أو بالشفار ، أو بما شئت من آلة » .

فطمأن الجراح الرجل ، وأفهمه أن الأمر قد لا يحتاج إلى ذلك ، وأنه ربما شفاه بعلاج أخف وأرفق .

قال الرجل :

« ما أحسب أن هنالك من طريقة سوى بتر الجزء المعتل ، ومن أجل ذلك أتيت » .

ثم رفع يده من الرباط بمشقة وجهد وقال :

« لا يأخذنك العجب والدهشة إذا أنت لم تبصر بيدى جرحا أو غيره من آثار العلل والأوجاع ، فإنها حالة استثنائية شاذة » .

فأخبر الجراح الرجل أنه ليس من عادته التعجب والدهش من الشواذ والخوارق ، ولكنه على الرغم من تصريحه هذا أظهر منتهى العجب والدهشة حين فحص يد الرجل فلم يجد بها أدنى ما يدل على مرض أو علة . لقد ألفاها كسائر أيدى المخلوقات لا يميزها منها شئ ما ، حتى ولا تغير فى لون البشرة ، ولكن الرجل كان مع ذلك تبدو عليه علامات الألم المبرح الفتاك ،

قال الجراح :

« أين موضع الوصب ؟ » فأشار الرجل إلى موضع مستدير بين عرقين كبيرين ، ولكنه جذب يده بسرعة حينما مس الجراح ذلك الموضع بمنتهى الرفق والحذر .

« أهذا موضع الوصب ؟ » .

« نعم ، أشد الوصب وأوجعه » .

وجس الجراح ثانيا موضع الوجع وقال :

« أتحس ألما حين أضع عليه أصبعى ؟ » .

لم يجب الرجل على سؤال الجراح ، ولكن دموعه المتحدرة كانت أفصح بيانا من الإجابة .

« هذا من أدهش المدهشات ، إنى لا أرى علامة ولا أتبين أثرا » .

« وأنا مثلك لا أرى شيئا ظاهرا ، ولكن الألم كائن ، وإنى أطيق الموت ولا برحاء هذا الألم المضاض » .

وأقبل الجراح على يد الرجل ففحصها بالمجهر ، وقاس درجة الحرارة ، ثم هز رأسه :

« البشرة سليمة ، والأديم صحيح ، والشرايين على حالها الطبيعية ، وليس ثمت أدنى ورم ولا التهاب ، وإنها لكأية يد أخرى تحت قبة الفلك السيار »

قال العليل .

« أظن أنها أشد حمرة من المعتاد فى هذا الموضع » .

« أين ؟ » .

فرسم العليل فى نفس الموضع الذى أومأ إليه من قبل دائرة على ظاهر يده فى سعة القرش وقال : « ههنا » .

فنظر الجراح إلى ذلك الموضع ، فلم ير فيه أدنى احمرار ، ثم صوب بصره إلى الرجل ورنا إليه طويلا ، وخيل إليه أنه يخاطب مجنونا ، ثم قال :

« خير لك أن ترجع إلى منزلك ، وسأوافيك هنالك بعد أيام قلائل » .

« لا أستطيع أن أصبر ولا دقيقة واحدة ، لا تحسبنى مجنونا أيها الطبيب ، ولا أنى من تأثير الوهم فى ضلالة ، فاعلم أن هذا الجرح الخفى يؤلمنى أشد الألم ، وإنى أريدك أن تقطع ذلك الجزء المستدير إلى أن تبلغ العظم من تحته » .

« ما كنت لأفعل ذلك ولو سيقت إلى الدنيا بحذافيرها » .

« ولم لا ؟ » .

« لأن يدك سليمة مابها من علة ، وأنها لصحيحة معافاة كيدى » .

« أراك تحسبنى مجنونا أو أنى أغشك وأخدعك » .

ثم أخرج العليل من محفظته بنكنوتا بألف فلورين ووضعها على المائدة ، وقال :

« ترانى جادا في مقالتى غير هازل الظن وأن الأمر من الأهمية والخطورة بحيث يستدعى أن أنفق عليه مثل هذا المبلغ ، فتكرم على يا سيدى بإجراء العملية » .

« والله لو منحتنى جميع ما فى الأرض من ذهب وفضة ، ما كنت لأمس بمبضع الجراحة جارحة سليمة » .

« ولم لا ؟ » .

« لأن ذلك يكون مخالفا لقانون المهنة ، ولو طاوعتك على ما تريد لسماك الناس أبله معتوها ، واتهمونى باستضعافك واستثمارى حماقتك وغباوتك ، أو رمونى بالجهل والغفلة فى فنى وحرفتى » .

« إذن اسمح لى يا سيدى أن أتولى بنفسي إجراء هذه العملية ، وكل ما أطلبه إليك أن توجه عنايتك إلى الجرح بعد أن أحدثه بسكينى » .

ثم إن الرجل نزع رداءه وشمر كميه ، وأخرج من جيبه سكينة (مطواته) ، وقبل أن يتمكن الجراح من اعتراضه كان قد طعن نفسه فى يده طعنة عميقة .

فصاح الجراح وقد خاف أن يقطع الرجل شريانا :

« حسبك ! وأما وقد أبيت إلا العملية ، فدعنى أتولاها عنك بنفسى » .

ثم أعد العدة لإجراء العملية ، ولما هم أن يقطع سأل العليل أن يزوى وجهه

ناحية لئلا يزعجه منظر دمه ، فأجابه الرجل قائلا :

« لا موجب لذلك ، هذا ولابد لى أن أسدد يدك فى حركتها لتعرف أين تبتدى ، وأين تنتهى » .

وتحمل الرجل العملية بمنتهى الجلد والثبات ولم ترتجف يده ، ولما افتلذ الجراح ذلك الجزء المستدير الذى حدد له تنفس العليل ، إذ تنفس عنه الكرب والغمة ، وكأنما رفع عن عاتقه أفدح الأعباء .

وقال الطبيب :

« أنت لا تحس ألما الآن ؟ » .

قال مبتسما :

« كلا لا أشعر بأدنى ألم ، ويخيل إلىّ أن الألم قد اجتث من جرثومته واصطلم من أعراقه ، بل يخيل إلى أن ما أحسه الآن من أثر حزة المبضع لأشبه شيء بنفحة من النسيم البليل غب لفحات من سموم جهنم ، فدع الدماء تسيل وتجرى ، إنه لأروح لصدرى وأندى لكبدى » .

وبعد تضميد الجرح بدت على الرجل سيما الغبطة والسعادة ، وقد تبدلت حاله وهيئته وكيانه فكأنما هو شخص آخر .

وصافح الجراح بيده اليسرى ، شادا على كفه اعترافا بمنته وإقرارا بفضله ، وقال له :

« إنى شاكر لك حسن صنيعك » .

وجعل الجراح يعود عليله كل يوم بعد ذلك في منزله مدة من الزمن ، وعظم الرجل فى عينه لما عرف رفعة مكانه . وعلو شأنه ، وبعد شأوه فى العلو والمعارف ، ورسوخ أصله فى محتد الحسب وبسوق فرعه .

ولما اندمل الجرح عاد الرجل إلى موطنه بالريف .

وبعد مضى ثلاثة أسابيع عاد العليل ثانيا إلى محل الجراح ، وكانت يده مشدودة بالرباط إلى عنقه كما كانت أول مرة ، وشكا من برحاء الألم المضاض عين ما كان شكاه من قبل وبالموضوع ذاته .

وكان وجهه كالمنحوت من الشمع صفرة وشحوبا والعرق البارد يتلألأ على جبينه ، فألقى بنفسه على مقعد ومد يده اليمنى إلى الطبيب دون أن يلفظ كلمة واحدة .

– رحماك اللهم ماذا جرى ؟

قال العليل :

– إنك لم تستأصل الداء يا طبيب ، ولقد عاد أمضّ ما كان وأنكى ، لقد كاد الألم يودى بى ، وقد احتملت حتى تفاقم الداء وبلغت الروح التراقي ، ولما وهى جلدى ونفذ صبرى ، أسرعت إليك لما لم أجد سواك ملجأ ، فأجر العملية ثانيا ..

ففحص الجراح الموضع فألفى مكان العملية الأولى قد التأم ونبتت عليه بشرة جديدة ثم لم يجد أدنى أعراض على مرض أو وجع ، وألفى النبض منتظما ولم يجد أثرا للحمى ، ولكن الرجل مع كل ذلك كان ينتفض ألما من فرعه إلى قدمه .

وقال الطبيب :

– تالله ما رأيت لا سمعت . بمثل هذا قط ..

لم يكن ثمت من حيلة سوى إعادة العملية ، وقد أعادها الطبيب فعلا على منهاجها الأول ، وسكن الألم ، ومع ما وجده العليل من الروح والراحة لم ينشرح صدره ، ولا أضاءت وجهه ابتسامة السرور هذه المرة ، ولما أدى للطبيب فريضة الشكر والثناء كان على وجهه سيما الحزن وآية القنوط ..

وقال للطبيب لدى انصرافه :

– « لا تعجبن إذا رأيتنى طالعا عليك بعد شهر أو زهاءه ..

– لا تجعلن لأمثال هذه الهواجس سبيلا إلى قلبك ..

قال بلهجة المستسلم لقضاء الله :

– لا شك فيما أقول ، كما لا شك فى أن للكون إلهًا يرعاه ، وسلام عليك .

وانصرف ...

مر شهر ولم يرجع العليل ثم بضعة أسابيع ، وأخيرا ورد – بدلا منه – الرسالة الآتية من مقره فى الريف ، ففضها الطبيب فرحا بها مستبشرا ، وقد يظن أن فيها ماينبىء بتمام الشفاء وعدم عودة العلة .

وإليك الرسالة :

عزيزى الدكتور :

لقد آن لى أن أطلعك على سر علتى ومصدرها ولقد عاودنى الداء ثلاث مرات منذ آخر عهدى بك ، ولست أريد أن أواصل مقاومة هذا الداء العضال الذى لا تصده مقاومة ولا ينجع فيه علاج ، وإنى لقضاء الله لمستسلم ، هذا ولم أستطع أن أكتب إليك هذه الرسالة إلا بعد أن وضعت على مكان الألم جمرة ملتهبة لتكون بمثابة دواء مسكن لنيران الجحيم المحتدمة فى يدى ..

– لقد كنت منذ ستة أشهر ممتعا بتمام الصحة والعافية ، واسع الثراء منفسح النعمة ، وكنت قد تزوجت منذ عام بفتاة من أملح الغانيات بعد أن شغفت بها حبا وهمت فيها صبابة ووجدا ، وكانت وصيفة لسيدة « كونتيس » غنية وكانت تحبنى أضعاف حبى لها ، ولبثنا على ذاك ستة أشهر تطلع علينا شمس كل يوم جديد بلذات جديدة ، وكنت إذا أقبلت عائدا من بعض جولاتى سعت على قدميها الأميال العديدة لاستقبالى ، وكانت لا تكاد تصبر على فراقى طرفة عين ، حتى هجرت من أجلى سيدتها وأترابها وصواحبها ، وبلغ من فرط وفائها لى وإخلاصها ، أنها كانت تعد نفسها مذنبة آثمة إن هى رأت فى أحلام المنام رجلا سواى ، لقد كانت طفلة حلوة بريئة .

ولا أدرى ما الذى أوقع بخلدى أن هذا الحب والعطف والحنان منها لم يكن إلا تصنعا ورياء ، تبا للإنسان ما أحمقه ! كيف تراه يفصح بيديه عن دواعى الكدر وأسباب الشقاء فى مراتع الصفاء والأنس ، ويستثير على نفسه بوادر النقمة والمحنة من مسرح الأمن والسلام ، ومستراد النعيم والرفاهية .

لقد كان لزوجتى هذه صندوق تحفظ فيه أدوات الخياطة وكان لا يزال مغلقا ، فأثار عندى دوام إغلاقه نوعا من الشك والريبة وأشعل فى فؤادى غليلا وحرقة ، ولاحظت أنها لم تكن قط لتترك المفتاح فى ذلك الصندوق ولا تدعه

مرة مفتوحا . ماذا عساها تخبئ فى ذلك الصندوق ؟ لقد قدحت الغيرة فى أحشائى وأكلت قلبى وكاد يجن جنونى ، وجعلت لا أصدق نظرات الإخلاص المنبعثة إلىّ من عينيها الساحرتين ، ولا أشعة الحب المتألقة فى ألحاظها ، وجعلت لا أصدق لثماتها الحارة ولا ضماتها المتدفقة صبابة وحنانا ، وقلت لعل ذلك كله خداع ونفاق .

وجاءت الكونتيس ذات يوم فألحت على زوجتى أن تصحبها إلى قصرها لتقضى معها سحابة اليوم هنالك ، فوعدت أنى سألحق بهما بعد برهة .

وما كادت المركبة تنطلق بهما حتى عمدت إلى صندوق زوجتى وعالجت فتحه ، وما زلت أجرب عليه ما لدى من المفاتيح حتى فتحته وأخذت أفتش فيه بين شتى أمتعتها ، إلى أن عثرت على رزمة من الرسائل تدل هيئتها لأول وهلة على أنها رسائل غرامية مربوطة بخيط من الحرير الأحمر .

فحللت الخيط وقرأت الرسائل واحدة تلو أخرى ..

هذه الساعة كانت أفظع ساعات حياتى وأهوالها !

لقد نمت تلك الرسائل عن أفحش الغدر والخيانة ، وكانت مرسلة من رجل من أخص أصدقائى وكانت تشف عن أقصى غاية الوجد والغرام ، والشغف والهيام ، وكان فيها حض شديد على لزوم الكتمان والتستر ، وفيها تعريض بغباوة الأزواج وسخافتهم ، وثقل أرواحهم وبلادتهم ، وفيها بيان ما يجب اتباعه من الخطط والتدابير لإبقاء زوجها فى عماية من الأمر وجهالة ، وقد كانت تواريخ هذه الرسائل جميعها بعد عهد زواجنا .

كل هذا يحدث وأنا أخال نفسى فى نعيم وغبطة ! لست شارحا لك مبلغ كربى فى تلك الآونة وعذابى ، لقد تجرعت السم إلى آخر صبابة فى كأسه ، ثم طويت الرسائل وأعدتها إلى مخبئها ، وأغلقت عليها صندوقها .

ولقد علمت أنى إن لم ألحق بزوجتى فى قصر الكونتيس ، فلن تلبث أن تعود إلىّ ، وكذلك كان ..

فلما رنقت الشمس للمغيب ، وجرى ذهب الأصيل على زبرجد الرياض ،

ولجين الجداول ، أقبلت المركبة تقل زوجتى ، وسرعان ما أسرعت إلىّ تعدو فطوقتنى بذراعيها وغمرتنى لثما وتقبيلا ، وكتمت البلاء بين جوانحى وبدوت لها فى هيئتى العادية من البشر والانبساط .

وجلسنا نتسالب أهداب المحاورة ، ثم تعشينا وذهب كل منا إلى فراشه كالمعتاد ، وكنت قد رسمت خطة وعزمت على تنفيذها .

ودخلت عليها مضجعها فى جوف الليل ، ونظرت إلى وجهها الجميل البرئ وقلت فى نفسى « عجبا للطبيعة البشرية ، كيف تخبئ آلام النفوس تحت أحسن الوجوه ! كيف تزود الإثم والرذيلة بأجمل مظهر وأطهر عنوان ! وكان السم قد سرى إلى روحى ودب فى كل ذرة من جسدى ، فوضعت يدى اليمنى على عنقها وضغطت بكل ما أوتيت من أيد وقوة ، ففتحت عينيها لحظة ونظرت إلىّ مندهشة مبهورة ، ثم أغمضت أجفانها وماتت .. لم تبد أية حركة دفاعا عن نفسها ولكنها ماتت فى أتم هدوء وسكينة كما لو كانت فى حلم ، وأعجب ما فى الأمر أنها لم تغضب ولم تحقد على لأنى قتلتها ..

وندت قطرة دم من بين شفتيها فسقطت على ظهر يدى .. وأنت أيها الطبيب تعرف موضعها تماما .. ذلك الموضع الذى هو منبع ألمى والتياعى ، ومصدر أوصابى وأوجاعى .. ولم ألاحظ هذه القطرة من الدم إلا فى الصباح وقد جفت ، ثم لحدنا لها ودفناها فى أتم صمت وسكينة ، ولما كنت أعيش فى أملاكى الخاصة فى أعماق الريف لم يكن ثمة سلطة تقوم بمهمة الفحص والتفتيش ، هذا ولم تكن الريبة لتتسرب إلى أى انسان لما كان مقررا عند الجميع من حسن الصلات بينى وبين زوجتى ، وفضلا عن كل ذلك لم يكن لها أهل ولا أقارب ولا أصدقاء ، فلم أكن مسئولا أمام أى مخلوق .

لم أشعر بندم ولا بوخز ضمير ، لقد كنت قاسيا ولكنها كانت تستحق ذلك ..

ولما عدت إلى المنزل بعد الدفنة ألفيت الكونتيس فى انتظارى وهى على أشد ما يكون من الجزع والأسى لهول ذلك النبأ وفجأته ، وحاولت أن تعزينى فلم أعبأ بأقوالها لأنى لم أكن بحاجة إلى التعزية ، ثم إنها قبضت على يدى وقالت

إنها تريد أن تسر إلي بشيء من خاصة شئونها ، وأنها ترجونى التستر والكتمان ، فوعدتها ذاك ، فأنبأتنى أنها كانت قد استودعت زوجتى لفافة من الرسائل مما لم يكن فى استطاعتها أن تحتفظ بها فى دارها ، ورجتنى التفضل برد تلك الرسائل . فأحسست كأن تيارا من الزمهرير قد تسلط على عظامى حين فاهت بهذه الكلمة ، وأن الأرض تهوى من تحت قدمى ، فسألتها ماذا تحتوى تلك الرسائل فارتجفت لسؤالى هذا وقالت :

– رحم الله زوجتك ، لقد كانت أطهر من وطيء أديم الأرض وأشرف من أظلته السماء برد الله مثواها ، إنى حين سلمتها الرسائل لم تسألنى هذا السؤال ، بل لقد وعدتنى إذ ذاك أنها لن تنظر فيها ..

قلت لها : وأين حفظتها زوجتى ؟

قالت : لقد خبرتنى أنها حفظتها فى صندوق أدوات الخياطة ، وهى مربوطة بخيط أحمر .

فذهبت بها إلى حيث كان الصندوق ، ثم فتحته واستخرجت اللفافة ووضعتها فى يدها ، وقلت أهذه رسائلك ؟ ولم أستطع أن أرفع بصرى إليها لئلا ترى فرط جزعى واضطرابى ، فقالت : أجل .. ثم مضت .

وبعد أسبوع من ليلة الوفاة أحسست ألما مثل كى المياسم ولذع الأفاعى ، فى الموضع الذى سقطت عليه قطرة الدم فى تلك الليلة المشئومة ، وأنت يا سيدى الطبيب عليم بما كان من الأمر بعد ذلك . قد أعلم أن دائى ليس سوى أثر من آثار الوهم ولكنى عاجز عن استئصاله ، هذا جزائى وعقابى على ما جنيت من الطيش والتهور والقسوة بإعدام زوجتى الحسناء الطاهرة البريئة ، ولن أحاول منذ الآن مقاومة هذا الألم ولا مصادرة هذا الجزاء العادل ، وحسبى أنى سألقاها عما قريب فى عالم الأرواح ، وهنالك أحاول جهدى أن أستميحها العفو والغفران ..

وإنى أيها الطبيب أقدم إليك أجزل الشكر والثناء على آلائك الغر ، وأياديك البيضاء ..

الحذاء الأحمر

كان بإحدى القرى صبية صغيرة حسناء ، لكنها فقيرة ، قد بلغ من فقرها أنها كانت تمشى حافية ، فرثت لها إحدى جارتها فصنعت لها حذاء من نسيج أحمر ، ولم يكن آية فى حسن الصناعة ولكنه كان للصبية خيرا من الحفاء ..

وكان أول ما لبسته الصبية يوم وفاة أمها ، ولم يكن لونه القانى مما يناسب الحداد ولكن الصبية لم تكن تملك سواه ، وفيه شيعت جنازة أمها .

وبينما هى عارية الساقين وراء النعش أبصرتها سيدة عجوز فى مركبتها ، فنظرت إليها نظرة إشفاق واشتياق ، فدعت القسيس واستوهبته الصبية على أن تتبناها ، وتكرم مثواها .

وكانت « كارين » (اسم الصبية) معجبة بحذائها مزهوة بحسن لونه ، فظنت أن السيدة المسنة لم تعطف عليها ولم تشغف بها إلا إعجابا بحذائها الأحمر ، ولكن السيدة استنكرته وأمرت بإحراقه ، فأحرق ..

وعاشت الصبية مع السيدة على خير حال ، وعنيت بأمر تربيتها وتهذيبها ، وقال الناس إنها جميلة ، وقالت المرآة « إنها لفوق الجميلة ، إنها آية فى الجمال » ..

واتفق ذات يوم أن ملكة البلاد مرت فى موكبها بتلك القرية ، وكان معها ابنتها تلبس حذاء أحمر حسن الشكل عجيب الصنعة ، فما هو إلا أن رأته (كارين) حتى راعها حسنه ورونقه ، فتمنت لو يكون لها حذاء مثله .

فسألت السيدة أن تشترى لها حذاء جديدا ولم تسم لها لونه ، إذ كانت تعرف أن السيدة لشدة روعها وتقواها تمقت اللون الأحمر لأنه عنوان التأنق والتبرج ، مما ينافى الحياء والحشمة .

ولما ذهبتا إلى حانوت الأحذية تصفحت الفتاة — وكانت قد كبرت — مابه

من الضاعة فلم تأخذ عينها سوى حذاء أحمر جد شبيه بحذاء ابنة الملك ، ذلك الذى أعجبها وراعها ، وقال صاحب الحانوت إنه كان قد صنع لابنة مركيز من سراة القوم ولكنه جاء أوسع مما ينبغى ، وعرضه على السيدة فتناولته وجسته فأعجبها منه النعومة والمتانة ، ولكنها لضعف بصرها لم تستبن لونه وكتمتها الفتاة ذلك ، وعادت بالحذاء إلى المنزل .

وفى اليوم التالى ذهبتا إلى الكنيسة ، فجعل المصلون جميعا يتأملون قدمى الفتاة فى الحذاء الأحمر حتى ألهاهم ذلك عن الصلاة والعبادة - وخيل إلى الفتاة أن الدمى والتماثيل المنصوبة كانت تنظر أيضا إلى قدميها ، وصدح (الأرغن) بنغماته العميقة الحزينة ، وامتزجت أصوات الأطفال الحلوة بأصوات المنشدين - ولكن (كارين) لم تفكر إلا فى حذائها .

ولما بلغ السيدة فى مساء ذاك اليوم أن (كارين) غشيت الكنيسة فى حذاء أحمر ، تأسفت وحزنت وزجرت الفتاة ولامتها ، وأمرتها ألا تذهب إلى الكنيسة إلا فى حذاء أسود .

وفى يوم الأحد التالى ، لما كانت الفتاة تتأهب لزيارة الكنيسة جعلت تردد عينها بين الحذاءين الأسود والأحمر ، ثم تغلبت فيها الشهوة الشيطانية على واجب البر والتقوى ، فمالت إلى الأحمر فلبسته .

وكان الجو مشرقا ، فسارت والفتاة بين الحقول ، وكان الطريق تربا فعلا الغبار حمرة الحذاء .

وكان على باب الكنيسة جندى طويل أعرج يتوكأ على عصوين ، ذو لحية طويلة حمراء تضرب إلى صدره ، فانحنى على الأرض تحية وإجلالا ، وعرض على السيدة أن يمسح حذاءها - ومدت إليه (كارين) قدمها اللطيفة فصاح معجبا ما أجمل هذا الحذاء الأحمر - إنه لا يصلح إلا للرقص ، حاذرى حين ترقصين - أن يسقط عن قدمك » .

وأمر يديه على الحذاء ..

فجادت السيدة على الجندى بدرهم ، ثم دخلت الكنيسة مع الفتاة .

وأقبل المصلون جميعا يتاملون الحذاء إعجابا كما فعلوا أول مرة ، وألهاهم ذلك عن الصلاة والعبادة - حتى الدمى والتماثيل ذاتها صوبت نظراتها إلى الحذاء ، ولما ركعت الفتاة أمام الهيكل لم يك فى فكرها ولم يشغل بالها سوى الحذاء - كأنما هو من دون الله عز وجل معبودها حتى ذهلت عن الصلاة والعبادة ، ولم تشارك الجماعة فى نشيد التسبيح والتحميد ، ولم تقل « اللهم اغفر لنا خطايانا » .

وغادر الناس الكنيسة وركبت السيدة مركبتها ، ولما كانت الفتاة تهم أن تتبعها تقدم الجندى الطويل المسن نحو الفتاة وصاح جد معجبا :

« ما أجمل هذا الحذاء الأحمر ، إنه لا يصلح إلا للرقص ! » .

وعلى أثر هذه الكلمات أحست الفتاة بدافع شديد يدفعها إلى الرقص فرقصت شأوا ، ثم أرادت أن تقف فلم تطاوعها قدماها ، ولكنهما جعلتا تتحركان وحدهما وعلى الرغم منها ، كأنما قد أصابهما مس من الجن ، فاستمرت ترقص ثم ترقص وطافت بالمقابر رقصا مرات عديدة ، لا تستطيع تراخيا ولا فتورا .

واضطر الحوذى إلى أن يعدو وراءها ، وبعد الجهد الجهيد أمسكها واحتملها إلى المركبة ولكن قدميها استمرتا ترقصان ، وفى خلال رقصهما تركلان السيدة العجوز بشدة وبقسوة حتى أوجعتاها ، وأخيرا خلع الحذاء فسكن القدمان واستراحتا .

وعلى ذلك حجب الحذاء عن بصر الفتاة فى إحدى خزائن الدار ، ولكن شغف الفتاة وولوعها به لم يفترا على رغم ما قد حصل ، فجعلت لا تزال تتردد على الخزانة لتقر عينها برؤية الحذاء ..

ومرضت السيدة العجوز ، ويئس منها الطبيب وقال لتموتن عما قليل ، وكانت فى أشد الحاجة إلى من يعنى بها ويمرضها - ومن لذلك سوى الفتاة كارين » ؟

ولكن « كارين » بلغها أنه ستقام حفلة رقص بالمدينة ، ودعيت فعلا إلى تلك الحفلة .

وجعلت تنظر إلى السيدة العجوز التى تعانى سكرة الموت ثم تنظر إلى الحذاء الأحمر ، وأخيرا لبسنه وإلى المرقص هرعت .

وشرعت ترقص ، ولكنها كانت إذا أرادت أن تتحرك إلى اليمين اندفعت بها قدمها إلى اليسار ، وإذا خفت إلى الأمام ذهبت بها قدماها إلى الوراء ، وبعد هنيهة - ألفت نفسها مدفوعة بقوة خفية إلى باب الحجرة فمرت منه راقصة ، وانحدرت على درجات السلم راقصة ، وهامت على وجهها راقصة خلال طرقات المدينة ثم خلال باب المدينة ، فخرجت منها راقصة ، وكذلك استمرت ترقص موغلة فى الغابات ..

وهنالك لاح لها من خلال الأشجار شىء يضىء ويشرق ، فظنته لأول وهلة وجه القمر المنير يتألق أحمر الصفحة من خلل الضباب ، ولكنه لم يكنه وما كان سوى لحية الجندى الحمراء ، وكان جالسا هنالك يهز إليها رأسه ، ويقول :

« ما أجمل هذا الحذاء الأحمر ، إنه لا يصلح إلا للرقص » .

فارتاعت الفتاة وحاولت أن تخلع حذاءها ، ولكنها لم تستطع حل رباطه ، فأسرعت إلى تمزيق جواربها عسى أن ينخلع معه الحذاء ، ولكنه بقى لاصقا بقدميها كأنما قد ضرب بجذوره فيهما ، وكذلك استمرت ترقص وقد كتب عليها أن لا تزال ترقص خلال الحقول وخلال المروج ، فى الصحو وفى الغيم ، فى الضح وفى الظل ، بالليل وبالنهار ..

بالليل ! ما كان أخوف ذلك وأروعه ! وجعلت ترقص بين المقابر المقفرة الموحشة ولكن الأموات لم ترقص ، لقد ظلت ساكنة وكان بودها لو استطاعت أن تجلس على بعض تلك القبور فتسكب الدموع ، ولكن قدر لها أن لا تذوق راحة ولا طمأنينة ، ومرت راقصة على باب الكنيسة فألفت عليه ملكا من الملائكة فى ثياب بيض ، له أجنحة من منكبيه إلى الأرض ووجه جهم عبوس ، وفى كفه حسام ذرب يتألق :

صفحتاه عقيقتان من البر ق ، وفى مضربيه صاعقتان

فقال لها الملك :

« ارقصى فإنه لا مناص لك من الرقص ! ارقصى فى حذائك الأحمر حتى يعقد منك اللسان وتصفر البنان ويذبل الجثمان ، لقد قضى عليك ألا تزالى ترقصين من دار لدار ، وأن يراك الفتيات فترتاع لرؤيتك وتفر من طلعتك ، وتكونى عبرة لمن اعتبر وتذكرة لمن ادكر .. فارقصى ثم ارقصى ! » .

فصاحت « كارين » :

« مرحمة وغفرانا ! » ولكنها لم تسمع جواب الملك ، لقد قذف بها الحذاء الأحمر فى ظلمات الغابات .

وعلى تلك الحال استمرت الأيام والليالى ..

وفى ذات صباح مرت راقصة على باب دار كانت تعرفها جيدا ، فسمعت من داخلها نشيد جنازة ، ثم خرج من بابه نعش ميت مجلل بالزهر والريحان ، فعرفت « كارين » أن سيدتها البارة الكريمة قد ماتت ، وقد ذهب من كان يرفها ويحفها وانهدم آخر ملجأ لها فى الحياة الدنيا ، فأصبحت منبوذة من أهل الأرض ملعونة من ملائكة السماء .

وكذلك استمرت ترقص وقد قضى عليها أن لا تزال ترقص ، وجعل الحذاء يطيح بها بين الأعشاب الشائكة حتى تمزق ساقاها ودميتا — وأخيرا دفع بها الحذاء إلى دار حريدة . وكانت تعرف أنها دار الجلاد ، فنقرت بأصبعها على زجاج النافذة وصاحت ..

(اخرج يا صاحب الدار ، اخرج إلىّ ، فإنى لا أستطيع الدخول إليك — إنى أرقص ...)

فأجابها الجلاد .

« إنك لا تعرفين من أنا ، إنى جلاد المدينة أقطع رءوس المجرمين ، وسيفى صارم » ..

قالت « كارين » :

« لا تقطعن رأسى لأنى لا أحب أن أموت قبل أن أندم على جنايتى وأستغفر لذنبى وأكفر عن سيئاتى ، ولكن اقطع قدمى ، والحذاء معا »

فخرج الجلاد بسيفه فقطع قدميها وعليهما الحذاء ، ولكن الحذاء بعد كل ذلك استمر يرقص بالقدمين اللطيفتين فى الهواء ، ضاربا فى أعماق الفضاء ..

وصنع لها الجلاد قدمين من الخشب ، واخترط لها عودين من شجرة لتتوكأ عليهما ، ولقنها النشيد الذى يتلوه المجرمون قبل الإعدام ، وقبلت الفتاة اليد التى أنقذتها من أليم العذاب بحد الحسام ، ومضت تتوكأ على عصويها فى أرض الله ..

وناجت نفسها قائلة :

« لقد قاسيت كثيرا وطويلا ، وحسبى بما قاسيت مكفرا عن سيئاتى ، فما على الآن إلا أن أذهب إلى الكنيسة حتى يرى الناس ما آل إليه أمرى ، وكيف كانت عاقبة غرورى .. » .

وعلى ذلك ذهبت تريد الكنيسة ، فلما دنت منها أبصرت الحذاء الأحمر يرقص وحده فى الهواء فهربت وولت فرارا ..

وظلت أسبوعا تكابد أنكى الألم والعذاب ، وتذرف ساخن العبرات ، ولما أقبل يوم الأحد قالت لنفسها « أرانى الآن قد استوفيت من الجزاء حقى ، ولعل الله سبحانه وتعالى قد تاب علىّ وشملنى بعفوه ورضاه . فما على إلا أن أعيد الكرة إلى الكنيسة » .

ثم أمضت عزيمتها ومضت ، ولكنها لم تكد تلج باب الكنيسة حتى تراءى لها الحذاء الأحمر يرقص فى الهواء ففزعت وانقلبت على عقبيها ، ونالها من الحزن مانالها .

وبعد ذلك ذهبت إلى القسيس فتضرعت إليه أن يقبلها بداره خادمة ، وتعهدت أن تقوم بواجباتها خير قيام ، وقالت إنها لا تريد على ذلك أجرا ولا جزاء ، وإنما تبغى ملجأ تأوى إليه وقوما أتقياء تعيش بينهم ، فرثت لها زوجة القسيس وأوطأتها من كنفها سهلا رحبا ، ولم تأل (كارين) خدمة لولية نعمتها الجديدة وإخلاصا لها وولاء .

وكانت تجلس كل ليلة إلى جانب القسيس تصغى إليه يرتل آيات الإنجيل ، وأحبها أطفال البيت حبا شديدا وكانوا لا يملون عشرتها وحديثها ، وكانت إذا سمعتهم يذكرون الثياب المحلاة والحلل المزركشة الموشاة ، هزت إليهم رأسها أسفا واغرورقت عيناها ..

وجاء يوم الأحد ثانية فسألها أهل الدار : هل تود أن تصحبهم إلى الكنيسة ؟ فتنهدت من أعماق قلبها ، وأشارت لهم نحو عضويها وأجفانها بالدموع مترعة . ولما ذهبت الأسرة إلى الكنيسة وخلت عليها الدار ، توجهت إلى حجرتها الحقيرة المتطامنة – وكانت لا تسع سوى الفراش ومقعد واحد – وهنالك جلست والإنجيل فى يدها فأقبلت تتلو آياته ، وبينا هى كذلك حملت إليها الريح نغمات أناشيد الكنيسة ، فرفعت وجهها إلى السماء وقالت :

« رب اغفر لى ! » .

وهنالك أضاء الجو وأشرق وفاض بالأنوار – وماراعها إلا شخص الملك الكريم فى أثوابه البيض – ذاك الذى تراءى لها ليلة الروع والفزع على باب الكنيسة ، فى يده الصارم الصمصامة – ولكنه كان يحمل الآن مكان السيف الحسام عودا أخضر ناضرا ، بالورد مكللا . وبهذا العود الأخضر لمس سقف الحجرة فسما صعدا إلى ارتفاع شاهق ، وحيث مسه الملك بعوده أبصرت الفتاة كوكبا من الذهب وهاجا ، ثم لمس الجدران فانفسحت أركان الحجرة ، فابصرت « كارين » – مكان الحجرة – الكنيسة بالذات بتماثيلها ودماها ومحرابها وهيكلها ، و « الأرغن » والجماعة جالسين للصلاة يرتلون الأناشيد من أسفارهم .

لقد جاءت الكنيسة تسعى إلى الفتاة المسكينة ، أو لعل الحجرة قد اندمجت فى الكنيسة ، وعلى أية حال لقد ألفت الفتاة نفسها جالسة بالكنيسة بين أفراد الأسرة ، ولما انتهى الإنشاد والترتيل التفتوا إليها وقالوا :

« لقد أحسنت صنعا بقدومك يا كارين » .

فقالت الفتاة :

« هذا من فضل ربى » .

وصدح « الأرغن » بالأنغام ، وامتزجت برنينه أصوات الأطفال العذبة الرخيمة ، وأفاضت الشمس من خلال النافذة أشعتها الساطعة على وجه « كارين » وأعطافها ، وأفاض الرحمن أشعة السلام والسرور والغبطة على قلبها فاكتظ بها حتى انفطر ، وهنالك فاضت روحها فطارت على بعض الأشعة إلى خالقها ..

الحب والخبز

لما تقدم الشاب « جوستاف فوك » الكاتب بإحدى المصالح إلى والد الفتاة لويزا معشوقته فخطبها إليه ، كان أول سؤال ألقاه عليه ذلك الشيخ هو :

« ماذا تتقاضى فى الشهر عن عملك ؟ » .

« ثمانية جنيهات ، ولكن لويزا تحبنى وأنا واثق .. » .

« دعك من لويزا ومن حبها إياك ، هذا مبلغ طفيف لا يكفى معاشكما » .

« ولكن الحب المتبادل بينى وبين لويزا قد بلغ مبلغا ينسى معه كل شئ ، وتضمن معه السعادة مهما كانت الحالة المادية » ..

« دعنا من ذلك ، وهل الثمانية الجنيهات هى كل ما تربح ؟ » .

« لقد كان أول التقائنا وتعارفنا فى حديقة .. » .

« أما لك مورد رزق خلاف وظيفتك المصلحية ؟ » .

« أظن أننا سنرزق ما يكفينا ، ثم لا تنس حبنا المتبادل فأنا على يقين .. »

« دعنا من يقينك ، وهلم نحسب أقصى ما تستطيع أن تربح » .

« أستطيع أن أربح من الأعمال الخصوصية شيئا لا يستهان به » .

« أى نوع من الأعمال الخصوصية وكم ؟ » .

« أستطيع إعطاء دروس خصوصية فى اللغة الفرنسية ، وأترجم وأصحح بروفات » .

قال الشيخ « كم تربح من الترجمة ؟ » .

واستخرج من جيبه قلم رصاص وورقة .

أجاب الفتى :

« لا أعرف بالضبط ، ولكنى أزاول الآن ترجمة كتاب فرنسى بسعر الملزمة

نصف جنيه » .

« من كم ملزمة يتألف الكتاب كله ؟ » .

« من أربع وعشرين ملزمة » .

« أى اثنى عشر جنيها من هذا الكتاب . وماذا غير ذلك ؟ » .

« لا أدرى ، هذا شئ غير مضمون » .

« ماذا تقول ؟ غير مضمون ومع ذلك تريد الزواج ! الظاهر أن مذهبك فى الزواج عجيب يا سيدى ، أنسيت أنك سترزق البنين ، عليك أن تقوتهم وتكفلهم وتربيهم وتعلمهم ؟ » .

« ولكن من يدرينا قد يبطئ قدوم البنين فلا يردون علينا إلا وقد حسنت حالنا وأثرينا ، ولقد بلغ من فرط المحبة بيننا .. » .

« إن مجىء الأولاد أصبح حتما مقضيا ، اسمع منى أيها الشاب ، أرى أنكما عزمتما على الاقتران بأية حال وأنى مضطر إلى الموافقة على ذلك ، فابذل جهدك فى زيادة إيرادك بكل وسيلة » .

فبلغ السرور من الفتى وأكب على يد الشيخ فقبلها ، لله ما كان أشد فرحه وفرحها أيضا ، وما كان أشد خيلاءه وزهوها حينما خرجا متخاصرين للنزهة لأول مرة ، ولقد لاحظ عليهما ذلك أهل البلدة فمن بين حاسد لهما وغابط على مانالا من ذلك الظفر المبين !

وجعل يزورها كل ليلة وهو متأبط أوراق البروفات التى كان تعهد بتصحيحها ، فأكسبه ذلك رضا الشيخ وأكسبه كذلك قبلة من خطيبته ، ولكنه أكثر من الزيارات مما أدى إلى انقطاعه عن إعطاء الدروس الخصوصية وإلى زيادة إنفاقه من مرتبه .

ولما دنت ليلة الزفاف فكر العروسان فى أمر الجهاز والأثاث اللازم لفرش المكان الذى شرعا فى إعداده لذلك . فاشتريا سريرين من أحسن خشب الجوز بمراتب من السلك ومخدات مكسوة بالحرير ، ومصباحا له مظلة حمراء ، وطقما كاملا من أدوات الخوان من البلور والفضة ، وقد استعانا بمشورة الأم

عند استحضار أدوات المطبخ ، ومرت مدة الاستعدادات هذه على أتم ما يكون من الفرح والابتهاج . ولا تسل عن فرط نشاطهما أثناء ذلك يروحان ويغدوان فى كل ناحية يطوفان فى أرجاء البلدة يبحثان عن دور خال يسكنانه ، ويغشيان الدكاكين والحوانيت لاشتراء الأثاث والأمتعة ، ويتفقدان الصناع فى الورش والمصانع لينظرا ما صنعا لهما ويستحثانهم على إنجاز مطالبهما فى أقرب وقت .

وكذلك يتضح لنا أن الفتى جوستاف لم يجد أدنى فرصة لمزاولة أى عمل إضافى يرجى منه زيادة مرتبه ، ولكنه جعل يقول إنه سيلتفت إلى أعماله ويعوض تلك الخسارة المالية متى تم زواجهما .

وكذلك اتخذ مسكنه فى دور عال بأجرة قدرها أربعة جنيهات شهريا — أعنى نصف مرتبه — فيه غرفتان ومطبخ وكيلار .

ثم فرشت الغرف ، وتراءت غرفة النوم بعد فرشها وكأنها محراب قديس ، وقد وضع السريران جنبا لجنب كأنهما مركبتان تبدآن مسيرهما على طريق الحياة ، وما كان أزهى وأبهى الملاءات البيضاء والوسائد الزرقاء فى أكياسها المفضضة المذهبة ، منقوشا عليها اسما العروسين قد اشتبكت حروفهما وتعانقت . وكان بإحدى زوايا هذه الغرفة خدر محجوب بستار لتقضى به العروس حاجتها الخاصة ، وفى الغرفة الثانية كان البيانو وثمنه ثلاثون جنيها من جيب والد العروس ، وهذه الغرفة الثانية كانت بمثابة صالة استقبال ومطعم ومكتبة فى آن واحد ، وقد جهزت بمائدة للطعام ومنضدة للمطالعة والتحرير ، وكراسى ومرآة مذهبة الإطار ومتكأ وقمطر للكتب ، فكانت مثرية من الأثاث والرياش ، قد سطرت عليها يد السعادة عنوان النعيم والرفاهية .

وأقيمت شعائر الزواج فى ليلة أحد ، ولما ارتفع مصباح النهار فى اليوم التالى كان العروسان لا يزالان نائمين ، وكان أول من استيقظ جوستاف . ومع أنه أبصر أشعة الشمس تطل من خلال الستائر ، فلم يشأ أن يفتح النوافذ ولكنه أشعل المصباح ذا الظل الأحمر ، فألقى ضياء جلناريا عجبا على تمثال الزهرة (ربة الجمال) مصنوع من الصينى ، وكانت العروس الحسناء راقدة على سريرها تحفها الغبطة والسعادة . وفى تلك اللحظة شرعت نواقيس الكنيسة

تدق كأنها تحتفل بقداسة الحياة الزوجية ! وتقلبت العروس على مهادها ، وانطلق جوستاف إلى المطبخ ليأمر بإعداد الفطور ، لله ما أبهج رونق الآنية الفضية تتلألأ فى بهجة الصباح وتتألق ! وكلها ملكه – ملكه وملكها . أمر الطاهية أن تذهب إلى المطعم المجاور فتجلب منه ما كان أوصى به أمس من ألوان الطعام .

وعاد جوستاف إلى غرفة النوم فدق على بابها دقة خفيفة وقال :

« أتسمحين لى بالدخول ؟ » .

فصافح مسمعيه صيحة ضئيلة تلتها هذه الكلمة :

« كلا يا حبيبى ، انتظر دقيقة ! » .

وفرش جوستاف الخوان بنفسه ، ولما أحضر الطعام كان قد فرغ من صف الصحاف والآنية والقوارير والشوك والسكاكين والملاعق على غطاء الكتان الأبيض الناصع ، ووضع باقة الأزهار أمام مكان العروس من المائدة ، ولما دخلت الغرفة حيتها شمس النهار بأشعتها العسجدية ، وإنما حيث من غرتها الوضاحة أجمل منها طلعة وأحسن رواء ، وكانت لا تزال تشعر بوهن وتعب فأجلسها على كرسى وثير المقعد وأداره بها تلقاء المائدة .

« هاك رشفة من النبيذ يا عزيزتى ، إنها مروحة لك منعشة ! وهاك قطعة من تون ، إنها تفتح شهيتك ! » .

وكذلك قام جوستاف أثناء الإفطار على قدم وساق فى خدمة عروسه الحسناء ، وما كان ألذ ذلك عنده ! وكم من أكلة شهية استمتع بها أيام عزوبته ، ولكن أين لذة تلك الأكلات مما يباشر الآن ! وأين من لذة الأرواح لذة الأشباح ، ومن نعيم الوجدان نعيم الأبدان ؟ هذه الخواطر وأمثالها تواردت على باله وهو يلتهم طبقا من الجنبرى وقدحا من البيرة . قبحا للأغبياء معشر الأعزاب ، لقد حرموا أنفسهم أنفس نفائس الحياة وأكرم أعلاقها ! ما أقل خيرهم وأكثر أنانيتهم ، وما أحرج صدورهم وأضيق أعطانهم ! لقد كان ينبغى أن تفرض عليهم ضريبة كالتى تفرض على الكلاب . وكانت لويزا أقل قسوة من زوجها على الأعزاب وأكثر اعتذارا لهم ، فقالت إنهم على العزوبة لمكرهون لضيق ذات أيديهم ، ولو كانوا فى سعة من العيش لتزوجوا . فتذكر جوستاف ما هو فيه

من الفقر فاهتم واغتم وقال فى نفسه « ما أرانى إلا كهولاء الأعزاب عسرا وضيقا ، ولكني باذل جهدى لتحسين حالى وزيادة رزقى ، فعسى الله جاعل لى من هذه الأزمة مخرجا ، وسأنظر فى التماس الأعمال ذات الأرباح عما قريب ، أما الآن فحسبى من الدنيا هذه الحمامة المشوية وهذه السمانة ، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء » .

ولكن هذه التحف واللذائذ أثارت القلق والهم فى صدر لويزا لما وراءها من الغرامة والخسارة ، فسألت جوستاف هل يستطيعان الاستمرار على مثل هذه الحال من الإسراف والتبذير ؟ فقال « هذه فلتة يا حبيبتى ، هذه فرصة وليس للفرصة إلا اغتنامها ، الحمد لله ، ما أطيب الحياة وما ألذها ! » .

وفى الساعة السادسة جىء بمركبة فاخرة ، وركب العروسان للنزهة ، فما كان أشد ابتهاج الزوجة الصغيرة واغتباطها متكئة على أريكة المركبة ، تنساب بها بين جماهير المشاة ممن لا يستطيعون نفقات هذا النعيم والترف والأبهة ، ومن بينهم الكثيرون من معارفها وبعض أصحابها وأترابها ، وقد جعل هؤلاء ينظرون إليهما دهشين مذهولين والحسد ملء قلوبهم ، وكأنهم كانوا يقولون فى أنفسهم « لقد وقع جوستاف على عروس موسرة غنية » .

كان الشهر الأول سلسلة من الملاذ والمناعم ، حفلات ومراقص وولائم وتياترات ، وأسعد من ذلك وأمتع أوقاتهما داخل المنزل ، وأى لذة كان يجد جوستاف فى حمل زوجته بعد السهرة من بيت أبيها والذهاب بها إلى مسكنهما البديع الأنيق ، كما ينطلق الطائر بأليفته إلى وكره ، فهنالك كانا يجهزان عشاءهما اللذيذ ويتناولانه فى سرور وهناوة ، ثم يجلسان متكئين على الأرائك يتحادثان فى شئون حياتهما وعيشتهما المنزلية ، وكان كل حديث جوستاف يدور على محور الوفر ، لقد جعل نصب عينه شيئا واحدا وذلك هو الاقتصاد ، ليس الاقتصاد العملى ولكن نظرية الاقتصاد ليس إلا !

ثم إن لويزا على سبيل الاقتصاد حددت يوما فى الأسبوع — الأربعاء — ليعمل فيه صنف رخيص من الطعام (تحريشا للمعدة) كالفول مثلا أو العدس أو السردين المشوى أو البطاطس الحاف ، وقدمت إلى زوجها صحنا من ذلك

السردين وبدأت تتناول قطعة وقالت ما ألذها وما أطيبها ، ولكن جوستاف قطب حاجبيه وتناول قطعة بيد منقبضة لا تكاد تطاوعه ، ثم ابتلعها وكأنما ابتلع زلزالا ولكنه كظم غيظه ، ولما جاء ثانيا يوم « السردين المحروق » شكك من المطعم المجاور جوز أرانب على الحساب ، وجعل وهو يأكل منه ينظم فى تقريظة قصيدة من أروع الشعر الخالد ضمنها أبياتا عديدة فى هجاء العدس والسردين وطوائف المأكولات السمجة السخيفة ! ولما لامته زوجته على هذا الإسراف قال لها إنها مسألة بسيطة !

وفى خلال هذه المدة حملت لويزا ، كل ذلك ولم يبذل جوستاف أدنى مجهود فى سبيل زيادة إيراده بالتماس أى عمل من الأعمال الحرة .

ولما دنت ساعة المخاض حاول جوستاف عقد سلفة فلم يوفق .

ولكنه ذهب بالرغم من ذلك إلى السوق واشترى سلتين من الموز والتفاح ، وجاء زوجته يحملهما فرحا مبتهجا .

« انظرى يا لويزا ، سلتان من الموز والتفاح ، بكم تظنين ؟ هل يخطر ببالك أنى لم أدفع فيهما سوى نصف جنيه ؟ » .

« ولكنا يا عزيزى جوستاف لا نستطيع أن نستمر على هذا المنهج ! » .

« لا تحملى للعيش هما يا لويزا ، الأرزاق على الله ! وقلبى يحدثنى أن الفرج حاصل عما قريب ، هذا وإنى موعود بعمل إضافى بعد أيام » .

« ولكن ماذا نصنع فى الديون ؟ » .

« الديون ؟ سأستلف قرضا كبيرا أسد به جميع ديوننا فورا » .

« ولكن أليس معنى هذا أننا سننغمس فى دين جديد ؟ » .

« لا بأس ، ولكنا سنرزق مهلة ننفس فيها عن كربنا ونروح عن نفسنا ، ولكن لماذا الكلام فى هذه الشئون المؤلمة ؟ ما أطيب هذا الموز وما ألذ هذا التفاح ! ألا ترين أن قدحا من نبيذ الملاجا يكون أنسب شىء لهذه الفاكهة ؟ »

ثم أرسل الخادمة فى شراء زجاجة من الملاجا .

ولما استيقظت لويزا من نومها عصرا عاودت الكلام مع زوجها فى مسألة

الدين ، وسألته المعذرة فيما ترى نفسها مضطرة إلى إبلاغه مما عساه لا يسره ، فقال لها « كلا يا عزيزتى ابلغينى ما تشائين ، فما كان كلام منك ليسوءنى قط ، أتريدين شيئا من النقد لقضاء بعض حوائج المنزل ؟ » .

« كلا ! ولكنى أقول إن البقال والجزار والخضرى جاءوا صباحا يصيحون ويضجون يطلبون ديونهم ، وكذلك الحوذى أبى إلا أن يأخذ حقه فورا ، هددونا جميعا بالحجز على أدوات المنزل » .

« أذلك كل ما فى الأمر ؟ لا جرم سينقدون غدا كل حقوقهم ، ولكن هلمى نفكر فى شئ آخر أروح للنفس وأجلى للصدر ، ما أقبح الكدر والهم ، ما رأيك فى نزهة على مركبة إلى بعض البساتين والحدائق ؟ تقولين لا داعى للمركبة ؟ فليكن كذلك ، ولنذهب على الترام إن شئت » .

ذهبا إلى الحديقة وتناولا الغداء فى غرفة خاصة بمطعم « الهمبرا » ، ولقد أصابا فى مسلكهما هذا متفكها ومتلهى إذ جعل الناس يحسبون أنهما عشيقان طائشان من ذوى النزق والخلاعة . وطفقوا يتغامزون عليهما ويتهامسون ، فطرب جوستاف من ذلك أشد الطرب ، وأغرب فى الضحك . ولكن لويزا كان يعروها شئ من الكآبة والانقباض ، ولاسيما حين قدم إليهما كشف الحساب ! لقد كان فى الإمكان أن ينالا من اللذة والمتاع أضعاف ذلك بأقل نفقة فى منزلهما .

مرت الأيام وآن للزوجين أن يعدا المعدات للولادة والمولود ، فقد أصبحا فى حاجة إلى مهد وإلى أرجوحة وإلى ثياب للقادم الجديد وهلم جرا !

وتوقف الجزار والبقال والخضرى عن استمرار المعاملة ، وقالوا أنهم أيضا أرباب أسرات يعولونها ولا بد لهم من النقد ، قبحا لهؤلاء الماديين وسحقا لماديتهم !

وجاء اليوم الموعود ووضعت لويزا صبية ، وما كان أشد كربة الوالد وأحرج موقفه ، لقد اضطر والمولودة الصغيرة بين ذراعيه إلى أن يخرج للدائنين فيسكن من ثورة غضبهم ، لقد أثقلت كاهله تلك المسئوليات الحديدة ! لقد كاد ينهدم تحت هذا العبء الفادح !

وأخيرا استغاث جوستاف بوالد زوجته ، فاستقبله الشيخ بشيء من الفتور والجفاء :

« سأعينك هذه المرة فقط ، حسبى مصائبى . واعلم أنك إن كنت ابنى فإن لى بين غيرك ، ثم إياك أن تخرج إلى الدنيا أولادا آخرين ! » .

واستمر الزوجان مدة قصيرة يعيشان على الحب والديون المتزايدة . وأخيرا هبط عليهما شبح الإفلاس يقرع الباب بقبضته الجهنمية ، وأعلن مبيع أثاث المنزل بالمزاد العلنى ، وعندئذ جاء الشيخ والد لويزا فاحتملها وابنتها إلى داره وقال لجوستاف وهو راحل « الحمد لله لقد أعرت ابنتى لرجل ردها إلى بعد عام موصومة الكرامة » .

وقد كان بود الزوجة أن تبقى مع زوجها ، ولكنه لم يكن يملك ما يقوتها به . وكذلك لبث جوستاف وحده ينظر إلى طائفة المحضرين مخربى البيوت العامرة ، الذين لم يبرحوا حتى جردوا بيته من كل شئ وتركوه قاعا صفصفا .

ورخص له حموه أن يزور زوجته وابنته مرة فى الأسبوع بشرط أن لا يخلو بهما ، وكانت لويزا وابنتها على صدرها تشيعه عقب كل زيارة إلى باب المنزل ، ثم يفترقان وأعينهما بالدموع مترعة .

ما أوجع الحياة وما أمضها ! إن الوحوش الضارية لا تشكو مجاعة فى فلواتها وأحراشها ، والإنسان وحده من بينها قد كتب عليه الكد والشقاء فى إحراز قوت يومه !

إن من البلية — من شر البلية — ألا يرزق كل إنسان شبعه من الحمام والسمان مجانا .

القرد الماجن

في عهد الدوق « لودوفيكوسفورزا » صاحب مقاطعة « ميلان » ، كان يوجد بقصر ذلك الأمير قرد عظيم الجثة ، رائع الهيئة ، ظريف النوادر والفكاهات ، جم الألاعيب والمهازل ، وكان له من حسن السلوك ورقة الآداب ما أطلق له معه حرية التجول في أنحاء القصر ، بل في أرجاء المدينة وضواحيها ، يسعى في مناكبها ، ويتجول في أقطارها كما شاء ، يجالس هذا ويسامر ذاك . وكان معظم الأهلين يتودد إليه ويتزلف من أجل نسبته للدوق أولا ، ولذات نفسه وعجيب صفاته ثانيا ، فكان الناس إلى إكرامه يتسارعون ، وفي إتحافه بمطايب الحلواء والفاكهة يتنافسون . وكان أحب الديار إليه دار سيدة حسيبة من ذوات البيوتات العتيقة العريقة ، بضاحية « سان جيوفاني » . فكان لا يزال يتردد على هذه الدار استئناسا بأهلها وطمعا فيما كانوا يلطفونه به من مناعم المطاعم ، وقد عقدت الخلطة بينه وبين صاحبي الدار ، ابني السيدة ، صحبة متينة ومودة مكينة . وأمتن من هذا وأمكن ما كان بينه وبين أمهما ربة الدار ، إذ أصبح لأفانين طرفه وأعاجيب ملحه نزهة سمعها وبصرها ، وسلوة ضعفها وكبرها . ولولا أنه كان ملكا للدوق لما ادخر ولداها نفيسا ولا غاليا في سبيل اشترائه ، أو اقتنائه بأية وسيلة ، وكانا قد أمرا جميع خدام المكان أن لا يألوا جهدا في إكرامه وإعظامه ، وتعرف ميوله وأهوائه ، لاستيفاء رغباته وشهواته ، واجتناب مكارهه ومضراته ، حتى بلغ من فرط شغفه بتلك الدار وحبه لأهليها ، أنه هجر من أجلهم سائر معارفه وجيرانه ، وعكف على تلك الأسرة من دونهم . فكان يقضي سحابة اليوم بين ظهرانيهم ، مع شدة مواظبته على العودة إلى قصر الدوق مساء .

في خلال هذه المدة مرضت السيدة ولزمت غرفتها ، وأقام حولها أفراد الأسرة لا يكادون يفارقونها ، وكان لا يزال يدخل عليها بذلك القرد المتفنن

ليسليها بمستطرف نوادره ، ثم يتناول من يدها أجره وجزاءه من فاكهة وحلوى .

انتقلت السيدة إلى جوار ربها وأقيمت شعائر الجنازة ، وجثتها مسجاة على سرير الموت ، وشهد القرد الحفلة يرهف مشاعره وحواسه تأملا لكل ما كان يجرى من تلك المراسم الخطيرة . واجتمعت الراهبات حول الفقيدة وشرعن يرتلن الصلوات والأدعية والتسابيح على روحها ، ثم حملت الجثة ليذهب بها إلى مقرها الأخير ، والقرد واقف بباب الغرفة يسمع ويرى ويشيع ببصره النعش ومشيعيه حتى تواروا عن العيان . ولما خلت الغرفة من الإنس ، أقبل القرد على الكعك والفطير ، ذلك القربان المقدس المتمم لشعائر الجناز حسب مراسم الملة الكاثوليكية فالتهمها التهاما ، وشرب من النبيذ حتى سكر وراح نشوان يترنح ويتمايل ، ثم عمد في نشوته إلى خزانة الملابس ففتحها واستخرج كل ما بها من ثياب ، وكان قد أبصر الميتة فى أثوابها الأخيرة وعلى رأسها خمارها الملفوف بهيئة خاصة ، وهى مسجاة على سرير الموت ، فأقبل على تلك الثياب فلبسها على الصورة التى كان شاهدها فى الميتة تماما ، وبلغ من فرط الشبه أنه كان يتعذر على الطبيب ذاته أن يتبين الشبهة لو قد جاء إذ ذاك وأبصر القرد وقد رقد فى ذلك الزى العجيب على فراش الميتة ، وغطى نفسه إلى قصبه أنفه بلحافها .

وعلى هذه الصورة لبث الخبيث حتى جاء الخدم إلى غرفة الفقيدة ، وما كادت تقع أبصارهم على ذلك المشهد حتى تولاهم الرعب فولوا فرارا يضجون ويصيحون ، وقد حسبوا أنهم أبصروا جثة السيدة أو روحها ، وبعد أن ثاب إليهم من عازب عقولهم ما أمكنهم من النطق ، صرحوا بأنهم أبصروا سيدتهم راقدة على فراشها كعادتها . ولما عاد الإخوان وسائر الأسرة والمواسون من المدفن وبلغهم ذلك النبأ العظيم ، توجهوا جماعة إلى غرفة الفقيدة ، وعلى الرغم من مزيد تجلدهم وتظاهرهم بالرزانة والثبات ، عرتهم هزة من الروع لدى دخولهم الغرفة ، إذ كان الظلام قد أرخى سدوله ، وخيمت على أرجاء المكان سحب مكفهرة من الوحشة والكآبة .

ولما دنوا من الفراش خيل إليهم أنهم يبصرون ويسمعون شخصا يتنفس . ولما شاهدوا اللحاف يتحرك كما لو كان الراقد تحته يهم أن يثور من مرقده ، انقلبوا على أعقابهم مهطعين يتبادرون الباب ، وانحدروا فى السلم يتسابقون هربا إلى ساحة الدار . ولما استجمعوا نافر جأشهم واستجموا شارد ألبابهم ، تشاوروا فيما بينهم فاستحضروا قسيسا وأبلغوه الأمر ، فلما علم بما هنالك أرسل إلى الكنيسة من جاءه بالآلآت المستعملة فى طرد الأبالسة والشياطين ، – صليب العاج الكبير ، وإبريق الماء المقدس ، ومجامر البخور والشموع ، والكتب السماوية ، والتوراة والإنجيل والزبور – وبعد أن تسلح الجمع من هذا السلاح الكامل بما لا يقوى على مواجهته أعظم جيش من الجان ، ولو أيد بكل شيطان مريد ، وجبار عنيد ، وضرغامة صنديد ، صعدوا السلم ثانيا يرتلون التسابيح السبع ، ومساعد يحمل الصليب الضخم فوق رءوسهم . وكان القسيس قد طمأن الأخوين على روح والدتهما وأفهمها أنه لا خوف عليها ولا تحزن ، وأن مثواها الجنة ونعم عقبى الدار ، بما أسلفت من الحسنات الطيبات ، والصالحات الباقيات ، وإن من كان هذا شأنه وذلك مكانه ، فلا ضير عليه من الأبالسة ولا سبيل للشيطان على روحه . وأكد لهما أن ما شاهده الخدام فراعهم وأذهلهم ليس مما يخشى ويحذر ، وإنما هى خيالات شيطانية يسهل عليه طردها وإزهاقها ، كما سبق له ذلك من قبل غير مرة ، ثم وعدهما أنه متى طرد تلك الأرواح الخبيثة من المنزل ، فلسوف يستنزلن عليه رضوان الله سبحانه ، ويستهبطن ملائكة الرحمة ، فتروح الدار بعد ذلك فى حرز من الأبالسة .

ولما وصلوا باب الحجرة ، تقهقر القوم جميعا فهبطوا إلى الساحة ، رغما مما كان يتلوه القسيسان من التسابيح ومن رشهما الماء المقدس ، ثم إن القسيس أمر مساعده أن يتقدم باسم المسيح ، ففعل وتبعه رئيسه ، حتى وقفا قريبا من القرد المتنكر فى زى الميته ، وبعد أن تمتما بشىء من الأدعية وهز الصليب مرارا، خالجهما الشك فى نجاح خطتهما ، ولكنهما خجلا من الهزيمة والعودة إلى الجماعة بالخيبة والفشل ، فعاودا رش الماء المقدس بيد أسخى وكميات أعظم ، وأتحفا صاحبنا القرد

بشؤبوب غزير فى أنفه وعينيه وسائر وجهه ، وخشى القرد أن يحيى بعد ذلك بضربة من الصلبب الضخم ، فبدأ يكشر عن أنيابه ويقهقه بأفظع صوت وأنكره ، فسقط الإناء المقدس من يد القسيس ، ووقع الصليب فى الوقت نفسه من يد المساعد ، وذهبا على وجهبهما فرارا ، وعثر أحدهما بالآخر لفرط العجلة على السلم فندحرجا معا من أعلى درجاته ، حتى وصلا أسفله على ظهريهما .

ولما سمع الجماعة صوت الصدمة تتلوه صيحات القسيس « يسوع ! يسوع ! سيدى المسيح ! ربنا ومولانا ! ارفع عنا غضبك ونقمتك ! » أسرعوا إليه يسألونه أى خطب مدلهم أصابه ! ولكن القسيسين جعلا ينظران إلى الجماعة مسلوبى النطق مفحمين ، على أن ألحاظهما المولهة الحيرى وصفرة وجهيهما كانت تنطق بألف لسان وتتلو ألف بيان ، عن كل ما كان يجول بخواطر القوم من الأسئلة ، وخر مساعد القسيس مغشيا عليه من هول الفزع ومن هول الوقعة ، وبعد إسعاف الرجلين بالمفوقات والمنعشات استطاع القسيس أن ينطق : « حقا يا ولدى ، لقد أبصرت أمكما التعسة الشقية فى صورة شيطان مريد » وما كاد يفوه بهذه الكلمة حتى سمع الجماعة وقع خطوات المجرم الأثيم مصدر كل هذا البلاء والشقاء ، وهو ينحدر فى سلم الدار يبتغى المزيد من الكعك والفطائر بعد استنفاده ما كان موجودا منها بغرفة المينة .

وكذلك طلع فجأة دون أن يمنحهم مهلة يهربون فيها من طلعته المشئومة إلى أى ملجأ ، أو يعطيهم فرصة يستعدون فيها لاستقباله ، فما راعهم إلا وثوبه وسط الساحة مسلحا من فرعه إلى قدمه فى « كركة » الميتة وفى سائر أثوابها المخوفة ، لابسا فوق رأسه قناعها على نحو ما كان يلوح على رأسها ، حذوك القذة بالقذة ، وقد غرس نفسه وسط القوم الذين ثبتوا مكانهم لا حس ولا حراك كأن على رءوسهم الطير ، مذعورين مروعين ، يتوقعون ما سوف ينجلى عنه هذا الحادث الجلل من أفظع المشاهد ، وشاء الله فى هذه اللحظة أن يفطن أحد الأخوين إلى حقيقة الأمر ويعرف المجرم الأثيم ، وكان هذا الفتى من دون الجماعة هو الذى استطاع بفضل ما قد أوتى من الإقدام والشجاعة أن يجرؤ على النظر بلا رهبة فى وجه القرد ، وكان القوم قد أخذوا فى تلاوة الأدعية

والتسابيح ، فسرعان ما تبدلت صلواتهم ضحكات دوى برنينها أرجاء المكان . وما هى إلا هنيهة حتى خرج القرد الماكر من وقاره المتصنع وأبهته المتكلفة ، إلى حقيقة حاله من خفة الروح ورشاقة الحركات وطيب الأنس والدعابة . ولكنه أبى كل الإباء أن تنزع عنه تلك الثياب المستعارة ، وكان يحمل على كل من دنا منه لذلك الغرض . وجعل يلعب ألاعيبه المعهودة بمنتهى الحذق والبراعة وهو فى زيه الجديد المدهش ، وفى ذلك الزى كر راجعا إلى قصر مولاه الدوق ، يجتاز طرقات الضواحى والبلدة مستثيرا أثناء ذلك بمنظره العجيب ضحكات الناس وهتافهم الشديد وتصفيقاتهم الحادة ، وفى ذلك الزى استقبله خدام القصر لدى وصوله ، وكم أثار من ضجات الطرب وضحكات العجب والسرور بين رجال الحاشية والبلاط .

ولم يغضب الأخوان من فعلته تلك ولا جزياه شرا عليها ، بل زاداه مبرة وإحسانا ، وأباحاه من كنفهما موردا ومرتعا خصيبا ، وداما له على هذه الحال حتى بلغ من الكبر عتيا .

السعادة

كان فتيا ، رشيقا ، حسنا ..

ما الذى ينقصه ؟

السعادة ... .

كان لا يزال فى كل آونة ولحظة يتحرق تلهفا ، ويتلظى تشوفا ، كان شبح الأمانى يحدو به فى أودية الرجاء ، ويزجيه فى شعاب الأمل . كان قلبه الخفاق لا يبرح ينبض فى قبضة الشوق المبرح ، وكانت عينه الشاردة المتلهفة لا تنفك طماحة فى الفضاء ، تسبح فى آفاق عوالم مجهولة .

وماذا كان ينبغى ، وماذا كان مطمح أمله ؟ ... . شىء ما ... . كل شىء!

كان البلبل بالألحان بصدح ، يغازل فى ألفاف الجنان وردة ، كان لحنه صافيا شفافا كنسيم الصباح ، يذهب مع الصبا والشمال كل مذهب .

وقد ساد السكون وقد حبس كل امرئ أنفاسه يتسمع ... والسموات والنجوم ، والقمر الباهر ، قد ملكها الطرب فكلها منصت يتسمع .

لقد أقبلت تصغى إلى شجىٍّ أنغام البلبل ، تموت من فرط الوله والهيام وتحيا .

وكلما سكت البلبل هنيهة ، انبعثت من أعماق الكون زفرة وجد وطرب وهيام ، إذ تتنهد الأرض قائلة :

« آه ! » وهذه الزفرة « آه » تحملها الريح إلى الأشجار والأعشاب ، وإلى الكواكب والقمر ، ثم يموت صداها على قمم الجبال .

وكل شىء يتنهد ، وكأنما يتنهد من أعماق أحلام مسحورة ، وكأن فى هذا التنهد يكمن الشوق الملوع الولهان .

واستمر البلبل يغرد ... . وأشعة القمر المرنحة طربا تعانق الورد والياسمين

صبابة وتلثم البلبل – والنجوم تصغى لألحان الغرام ، وتشجع بابتسامتها الغضة اللينة شاعر الغرام ، تناجبه :

– صح وغرّد ! ..

والبلبل منغمس فى ندى ألحانه الشجية ، تلعب برأسه نشوة الغرام ، ويجيش في قلبه طرب الغرام – فيشد العناق حول أجياد الورود الناضرة ويناجيها تفتحى ياأميرات الجنان ، ومليكات الشقائق والأقحوان ... دعينى مرة واحدة أنشق أريج أنفاسك العذراء – دعينى أغيب رأسى فى طيات غلائلك الشفافة الحمراء » ..

كذلك استمر البلبل يبتهل إلى الورد ويتضرع ، مناجيا ، شاديا ، متلهفا ، هاتفا ، حتى مضى من الليل هزيع ، لقد كان نحيبه يعلو ثم يعلو ، وكان غليله الملتهب يئن ويصيح فى أثناء أغاريده ، إلى أن خفت صوت المغرد الغزل ، فاستحال زفرة لينة عميقة آ – آ – آ – ه ! » .

وفى هذه الزفرة الطويلة الساحبة أذيالها بين آرائك الورد السندسية ، كنت تسمع بكاء الأمل – الأمل الكاذب الخائب !

وقف الفتى طويلا تحت سرادق الليل المرصع بسبائك اللجين الوضاءة ، ينصت إلى صدى غناء البلبل ، ويكحل بمرود السهاد طرفه المؤرق .

وماذا كان بعد ذلك ؟

لقد ازدادت جمرة الشوق رسوبا فى أعماق روحه ، واتقادا على صميم كبده ..

وكذلك لبث تحت ظلال أدواح الآلام مضطجعا على بساط العشب الأخضر ، ليل نهار ، يجيل فى عرض الفضاء عينه الحيرى .

وسرت نسمة تتخلل الغصون والقضبان ولا تكاد تمس أوراقها ، وتحرك ذوائب اليراع باعثة من أطرافها اللماعة شبه ابتسامة .

والأشجار العادية العدملية ، ناشرة أذرعها الماردية ، صامتة ما بها من حراك ، تنبعث منها أنفاس النعاس السرمدى – إذ كانت فى غمار النوم العميق غارقة ،

وفى أحلامها الأبدية تكمن عظائم الأسرار وجلائل الألغاز والخفايا ، ولقد كان النسيم اللعوب إذا مر بها متأدبا متهيبا ، وانساب مترققا مترفقا ، لا يمس منها سوى حواشى ورقها ، - إذ كان يخشى أن يؤرق هجوعها المهيب وهجودها المقدس .

ولماذا كانت تنام نوم الموتى ؟

ما يدرينا ؟ لعل الفتى كان يتلمس فى نومها المسحور تفسيرا لسر تلهفه واشتياقه .

ثم أصغى إلى هدير السيول الجارفة ...

لقد كانت السيول تنحدر من قلل الجبال المكللة بالثلوج الكثيفة ، وكانت تتدفق هدارة تكافح الصخور وتناطح الجنادل ، وتحط الجلاميد من ذرى الشامخات وشماريخ الشواهق ، وتمزق ترائب الراسيات وتتقاذف بالخناذيد فى تيارها المتقاذف - مرغية مزبدة ، هوجاء خرقاء ، طموح الموج مجنونة العباب ، تقصف بأشد من الرعود ، وتضرب الجلمود بالجلمود .

أيان تترامى هذه السيول وتتبارى ؟

لا أدرى ... .

إنها لكذلك منذ طفولة الزمان ، تتدافق وتتدافع منهمرة منهارة ، لا تدرى هى ذاتها أيان تتهاوى ، ولعلها سوف تفنى فى غمار الخصم ، أو فى حومة سيل آخر ، أو فى الرمال المهيلة ..

وما ذاك الهدير منها والجرجرة والزئير ، وما هذا الإرغاء والإزباد ، والإبراق والإرعاد ، والعصف والقصف ، والعسف والنسف ، والجيشان والغليان ، والثوران والفوران ، والتمرد والطغيان - أليس هذا كله هو مظهر مجهوداتها الضائعة فى سبيل استجلاء سر السعادة ؟- مظهر صدماتها المتوالية على صخرة المجهول - تلك الصخرة الصماء التى تأبى تفتحا عن مكنوناتها وانصداعا ، ولا تزداد على قرع أبوابها إلا تلملما واجتماعا ؟

الحنين والتلهف !

لقد وهن عن احتمال عبء الحنين والتلهف ، ذلك العبء فداح ، ما له به يدان .

وعلى ذلك شرع يذرع أجواز الفضاء ، ويجوب أقطار المعمور والخلاء ، ابتغاء السعادة ..

وكم طلعت عليه الشمس وغربت ، وكم تعاقب عليه الجديدان واختلف العصران ، وكم أولج النهار فى الليل ، والليل فى النهار ، وأدمج الشهر فى الشهر ، والعام فى العام .

والفتى دائب السعى يضرب فى الأرض ويجوب البلاد .

وفى بعض القرى صادف قوما من الفلاحين نياما ، قد بسط عليهم الوسن ظله الرطيب بعد طول الكد والإعياء ، وقد شمل الظلام الأكواخ وساد السكون .

وصاح الفتى ..

« السعادة !! .. أين السعادة ؟ » ..

ولا مجيب ..

فدنا من باب كوخ وقلبه يخفق تفاؤلا ..

وبعد لأى سمع من وراء الباب رنة حزن مكتومة ، وزفرة يأس عميقة .

أهذه هى السعادة تئن وتندب فى ظلمة هذا الكوخ الموحش ؟

فتراجع الفتى ومضى فى سبيله .

وعبر الجم العديد من الأنهار والبحيرات والوديان ، وصعد جبلا شامخا .

وهنالك بصر براع يرتع قطيعه ، وكان العشب المريع يتألق بلآلئ باكورة الأنداء ، والنسيم يعبث بأصواف الشاء ، وإنها لترعش فى قرة الصباح ، وتتلمس الدفء فى أشعة ذكاء .

والراعى فتى فى ريعان الشباب قد افترش صخرة ، وهو يعزف على بوقه ، يسرح الطرف فى زرقة السموات ، ويرسل عنان الفكر فى شعاب الذكريات والتخيلات .

فدنا الفتى من الراعى وسأله قائلا :

« خبرنى خبرنى ، بأى شىء تترنم ، وعن أى شىء تتغنى ؟ » .

فأجابه الراعى :

« تسألنى بأى شىء وعن أى شىء أتغنى ، فخبرنى يارعاك الله عن أى شىء تترنم الرياح ؟ إنى أغنى لأنه لا غنى لى عن الغناء ، إنى أغنى عن أشياء لا توجد ، آه ! ما أحزن هذه الحال ! » .

قال الفتى :

« اتعرف السعادة يا راعى ؟ » .

فأجاب الراعى :

« السعادة ؟ تالله ما صادفتها قط على هذه الجبال ، وليس ههنا – كما ترى – إلا أنا وهذه الثاغية ، وإلا قليل من الثلج والضباب .. وما أحسب السعادة من ظبيات القاع ، ولا من وعول اليفاع ، ولا هى من جنيات هذه الرياض والغياض ، وعفاريت هاتيك الآجام .. هنالك على مدى البصر مدينة بهجة ، فلعل السعادة بها ثاوية ... لا أدرى ، إنى لم أغشها قط » ..

فانحدر الفتى إلى حضيض العلم ، ثم قصد إلى تلك المدينة العجيبة .

فألفاها حقا عجيبة ، ولم يك قط شاهد مثلها ، ماشئت من طرق فيحاء ، ومنازل شماء ، وحدائق غناء ، ومن قصور زاهية ، ومقاصف حالية ، والكل منغمس فى لجة من باهر الضياء ، وساطع اللألاء – فثمة مجمع الرغد والرفاهية والثراء .

واجتاز طريقا وولج آخر ، وألفى أمام سياج بستان أغر غلاما شحاذا يرعش قرة ، يستجدى القوت بصوت حزين .

فمضى الفتى فى سبيله ..

ثم وقف لينظر من خلال نافذة بإحدى دور التمثيل ، هنالك كان جمهور المتفرجين يواصلون الهتاف والتصفيق لممثلة فنانة ، قد عقدوا بشخصها الأبصار ، وكللوها بأسنى تيجان الفخار ، وكانت هى تنحنى إليهم إيماء بالثناء ، وكأنها

تبتسم عن السعادة ضاحكة السنا والبهاء ..

غير أنه لم تك سوى بضع دقائق حتى دخلت غرفة ملبسها ، فتهالكت على كرسى مكدودة منهوكة ، فصكت يدا بيد وأجهشت بالبكاء ..

فغادر الفتى المدينة العجيبة باخلا عليها بالتفاتة المودع ، ومضى فى شأنه ، وأعجلت خطاه انتخابات الغلام الشحاذ والممثلة المعبودة من جماهير الأنصار والعشاق .

ولبث مدة طويلة يضرب فى الآفاق رحالة جوالة ، حتى ألقى عصا التسيار بجانب صومعة راهب بين جدران كهف يعبد الله ، بمنأى عن الناس وبمقربة من الله .

وخاطب الراهب قائلا :

« أتدرى أيها الشيخ أين مستقر تلك التى يسمونها السعادة ؟ » ..

وكان الراهب عاكفا على أسفاره ، ينشد بين طياتها حكمة الأجيال — وطال إبطاؤه بالجواب على سؤال الشاب ساكن الأرض ، ولما رفع أخيرا هامته الشهباء نظر من عينه الكليلة فى مقلة الشاب ، وعلى شفتيه ابتسامة استهزاء ..

أكان يتذكر عهد الصبا الغابر ؟

وقال الراهب بصوت يختلج فى نبراته الشك والارتياب : « تقول السعادة ؟ » ثم تاه فى مجاهل الأفكار ..

ولما رفع رأسه ثانية جهر بصوت خشن عنيف ..

« غرور فى غرور ! ... . لا سعادة فى الحياة ... . إنما هى أحلام فى أحلام ! » .

فتنهد الشاب ، وقال :

« أى ثمرة — إذن — فى الحياة ، وما حاجتى بعد ذلك إلى الحياة ؟ وفيم احتمالى هذه الأرزاء ، وصبرى على طول المحنة والبلاء ، وأى فائدة فى هذا الطواف والتجوال ، والحل والترحال ؟ » .

وأجهش بالبكاء ، فرق له قلب الراهب فقال :

« لا تبك : هذا هو الطريق الذى تنشد ، فاركبه إلى غايتك المقصودة ... إنك لا تزال فتيا ! على أن هذا الطريق لم يركبه إنسان فعاد ، فإن عدت منه فلتحملن إلى هذه الدنيا السعادة المنشودة » .

فمضى الفتى وقد جدد هذا الأمل المستحدث قوته ، وأيقظ همته ، وسل عزمته .

وارتقى صاعدا فى الجبال ومن حوله الصخور الملساء تلمع ، شؤما ونحسا فى أخريات أشعة الشفق ، ومن فوق الشاهقات يحوم الموت ينفخ الفضاء بمسموم أنفاسه ، هنالك لا دليل على الحياة ، ولا آية على الحداثة والشباب ، هنالك كل شيء صامت فى تشاؤم كأنه تحت سطوة القضاء المبرم والقدر المحتوم .

ثم بدت للفتى فى طريقة هاوية سحيقة .. فوقف منها مبهوتا مبهورا على بضع خطوات .

وكانت هذه الهاوية صدعا فى الصخر يمتد من أعلى قمة الجبل إلى أوهد الحضيض ، وكانت ضيقة يستطيع الإنسان إن يثب من فوقها بلا عظيم مئونة ، وكان يتصاعد من أسافلها ضباب كثيف ، ولاصطخاب أوازىّ السيول من أعماقها ضجيج أيما ضجيج .

وبالحافة المقابلة على صخرة يعلوها الطحلب ، كانت ترتفق إحدى جنيات الغابات ..

كانت غدائرها الذهبية تتألق حمراء فى وهج الغروب .

وأبصر الفتى من تحت بشرتها الرقيقة الصافية جولان دمها فى جثمانها المرمرى ، وأبصر ثدييها المخروطين يصعدان ويهبطان ، ومن خلال أجفانها الناعسة تنبعث ألحاظ ساحرات .

فجمد الفتى فى مكانه ومد إليها يدا مبتهلة ضارعة .

لقد عرف فيها بغيته وأمنيته ، عرف فيها ضالته المنشودة ، عرف فيها السعادة المقصودة ..

فخر لها راكعا دون أن يحول عنها عينه المسحورة .

ومن وراء غادة الغابات هذه كان يكمن شبح الموت ذاته ، مكلحا بارزة أنيابه ، شاهرا سيفه من فوق الهاوية ..

وجعلت غادة الغاب تومىء إلى الفتى بأناملها تستدنيه بعينيها السحورين وتجتذبه ، ثم تفتنه وتستبيه ببارق ثغرها الوضاح .

والموت يضحك شاهرا سيفه .

أيها الأحمق المغرور ..

أيان تقذف بنفسك ؟

وقاس الفتى فوهة الهاوية بعينه ، ووثب يريد أن يقع فى حضن غادة الغاب .. فى حضن السعادة ، ولكنه وقع على صارم المنون .

ومن ذاك الوقت فصاعدا سماها الناس :

« هاوية السعادة ! » .

لوريلا

أسفر الصباح على الخليج الضيق الممتد تحت هضاب سورنتو .. الواقعة على مقربة من نابلز الثغر الإيطالى المعروف ، وكان البحر هادئا على طول الساحل ، والملاح الصغير أنتونيو يهيئ قاربه لعبور الخليج من قرية سورنتو إلى جزيرة . « كابرى » إجابة لطلب قسيس القرية .

قال القس وأخذ مجلسه من القارب :

« ألا ترى هذه السحابة الممتدة من فوق هامة « فيزوف » إلى نابلز ؟ إنى لاوجس خيفة منها » .

قال الفتى أنتونيو :

« سحابة صيف عن قريب تقشع » .

« انطلق إذن حتى نصل قبل ارتفاع النهار » .

وما كاد أنتونيو يلمس المجداف حتى لاح له على رأس الثنية المنحدرة من شاهقة « سورنتو » إلى الساحل ، شبح فتاة ممشوقة القوام تجتاز الثنية وتليح إليه بمنديلها ، وكانت تتأبط صرة صغيرة وعليها ثياب الفقراء المساكين ، ولكنه كان يلوح عليها سيماء الزهو والكبرياء ، وكان لها شمخة بأنفها تشف عن الوحشية والجبروت .

فلما أبصر أنتونيو الفتاة وقف .

وقال القس « فيم انتظارنا الآن يا فتى ؟ » .

« أرى شخصا قادما يريد الذهاب إلى « كابرى » ، فمعذرة أيها القس فما انتظارنا لحظة بمؤخرنا عن الوصول فى الميعاد » .

ولما اقتربت الفتاة من القارب عرفها القس فصاح :

« هذه لوريلا ! وما الذى جاء بها هنا الآن ؟ عمى صباحا لوريلا ، كيف

حالك ؟ أتصحبيننا إلى كابرى ؟ » .

« إن شئت يا أبت » .

« المشيئة لأنتونيو إنه رب القارب » .

قالت لوريلا ولم تتنزل فتعير أنتونيو أدنى التفاتة :

« هاك نصف كرلينو أجرته » .

فتمتم أنتونيو بين أشداقه « لأنت أحوج إليه منى » .

ثم أزاح سلة البرتقال ليفسح مجلسا للفتاة ، وكان يتجر بالبرتقال يبيعه فى « كابرى » .

قالت الفتاة وقطبت حاجبيها ما كنت لأركب معك بلا أجرة » .

قال القس « لا تتشاجرا ، إنه فتى كريم يا لوريلا ، وقوله صادر عن شريف عاطفة وحسن نية ، هلمى انزلى ! ألا ترين كيف قد فرش لك رداءه ليكون أوطأ لك وأوثر ؟ » ..

نزلت لوريلا وجلست إلى جانب القسيس بعد أن أزاحت رداء الفتى جانبا (لم ترد أن تقبل منه أدنى شئ ولا أن تجعل بينه وبينها أدنى علاقة) .

فتمتم الفتى متسخطا مغتاظا ، وأطلق القارب فانطلق يمخر عباب اليم .

قال القس والسفينة تنساب بهم من صدر الأزرق الشفاف على مثل صرح ممرد من قوارير ، فرط رقة وصفاء وسكينة وهدوء ، وحاجب الشمس البارزة من خدرها يضاحك صفحة الماء ، فكأنما يكسر عليها الجواهر والحلى :

« ماذا تحملين فى صرتك هذه ؟ » .

« حرير وخيط ورغيف يا أبت ، وسأبيع الحرير فى « أنا كابرى » لامرأة تصنع الوشى والخيط لامرأة أخرى » .

« لقد كنت تصنعين الوشى بيديك قبل اليوم ، فماذا جرى الآن ؟ » .

« نعم ، ولكن أمى مريضة فلا أستطيع أن أقضى مدة طويلة فى مزاولة تلك الصناعة بعيدة عن المنزل ، وليس فى طاقتنا اشتراء منسج نجعله فى دارنا » قال القسيس مستفهما :

« أما بلغك شيء جديد يا لوريلا عن ذلك المصور الذى كان شديد الحرص على الاقتران بك ؟ » .

فهزت رأسها نفيا .

قال القس « لقد كان جاءك ليصورك ، فلم أبيت عليه ذلك ؟ » .

« ماذا كان يريد من صورتى ؟ لو شاء الجمال لقد كان له فى سواى ممن هن أملح منى بمراحل مندوحة عنى ، ولكن من يدرى ماذا كان يبغى من صورتى ؟ فلعله كان ساحرى بواسطتها أو قاتلى أو مخرجى من الإيمان إلى الكفر ، كذلك قالت أمى » .

قال القس « زعم باطل ! الحركة والسكون بيد الله ، وما كان لمخلوق أن يبدل بشعوذته أو سحره ما كتب الله ولا تبديل لكلماته ، ولكن خبرينى لماذا رفضت ذلك المصور ، وإنه ليجمع بين محاسن الخلق والخلق ، ولو تزوجته لعالك أنت وأمك ، ولأغناكما عن فتل الحرير وغزل الخيوط »

« نحن لانرضى أن نكون عالة على امرئ أيا كان » .

« إن من الصعب أن توفقى إلى مثل ذلك الفتى ، وليس يرجى ولا ينتظر أن يهبط الله عليكما من السماء رجلا آخر لينقذكما من وهدة البؤس والفاقة ، كما أهبط عليكما ذاك الفتى » .

قالت الفتاة بمنتهى الشدة والعناد :

« لا أريد ولن أريد زوجا ألبتة » .

« أهذا قسم آليتيه على نفسك ، أم ستصيرين راهبة ؟ » .

فهزت الفتاة رأسها وقالت :

« لقد آليت على نفسى ألا أتزوج بعد الذى رأيته من قسوة المرحوم والدى على أمى ، وسومه إياها سوء العذاب بالضرب الأليم على فرط ما كان من حبها إياه وتفانيها فى ذاته ، فإذا كانت هذه نتيجة الحب وعاقبته فلأحذرن الحب جهدى ، ولأفرن منه فرارك من الأسد » .

قال القس « متى شاء الله أن تحبى نزل بك كارهة أو راضية ، لا حيلة لك

فيه ولا مناص منه ، وهل تجزمين أن كل الرجال كأبيك المرحوم قسوة وغلظة ، فهلا علمت أن فيهم البر الكريم والرءوف الرحيم ، وهل الزواج كله شقاء أم فيه السعيد المبارك الميمون ؟ إنك لا تزالين طفلة عريزة بلهاء ، فاصرفى من خاطرك هذا التشاؤم واطردى من ساحة قلبك تلك الوساوس والأوهام ، وفوضى الأمر لله يهبك الزوج الصالح ليكون لك ولأمك حرزا منيعا ، وروضا مخصبا مريعا إن شاء الله»..

وصلت السفينة إلى ساحل « كابرى » ، وأقبل الملاح أنتونيو على القسيس فاحتمله وخاض به بضع أذرع من الوشل حتى أنزله على الشاطئ ، ولم تنتظر الفتاة أن يصنع بها مثل ذلك فجعلت حذاءها فى يمينها والصرة فى يسارها ، ووثبت من القارب إلى الضحضاح كالظبية فخاضته بخطوتين إلى اليابس .

وقال القسيس لأنتونيو :

« لا حاجة بك إلى انتظارى يابنى ، فسأبيت الليلة بالجزيرة ، وأنت يابنيتى إلى أين ؟ » .

« إلى كرمة فى قرية « أنا كابرى » .

« قال القسيس « سترجعين إلى دارك قبل الغروب بلا شك » .

« إذا سمحت الظروف يا أبت » .

قال أنتونيو فى ضجر وتأفف :

« سمحت الظروف أم لم تسمح ، إنى على أية حال باق ههنا إلى الغروب حيث أكون قد فرغت من مبيع برتقالى ، وسيان عندى أرجعت أم لم ترجعى » .

قال القس مبتسما :

« أرى من الواجب عليها أن ترجع ، فما يحسن بها أن تترك أمها فى مرضها ، لابد من رجوعك يالوريلا ، سلام علبك يا بنيتى ، وعليك يا بنى » .

وقبلت الفتاة يدا القسيس وألقت سلاما واحدا للرجلين - أنتونيو والقسيس - ليتقاسماه بينهما ، فاستأثر به القس ، وتنازل أنتونبو عن نصيبه منه فأومأ بالسلام إلى القسيس وحده ، دون أن يعير الفتاة أدنى التفاتة ، ولكنه بعد

ما منحاه وأكتافهما جعل ينظر فى أثر الفتاة ومازال يشيعها بنظراته حتى بلغت قمة الساحل ، ولما أوشك الطريق أن ينعطف بها وراء الجدران فيحجبها عن الأبصار التفتت وراءها ، لا تدرى عفوا أو عمدا فالتقت عينها بعين الفتى فارتبك كل واحد منهما وأدار وجهه ناحية ، ومضت الفتاة عابسة مكفهرة فى سبيلها .

عرج أنتونيو على حانة فقضى عامة الصباح وشطرا من العشى ، وكان بادى الاضطراب والقلق يتململ على مثل جمر الغضا ، ولا يزال من آن لآن يثور من مكانه فيهرع إلى الطريق ، ثم يظل يتلفت يمنة ويسرة حائرا مترددا مشرئب الجيد مستشرفا يرمى ببصره أقصى مواقع البصر كمن به مس أو خبال ، وفى أثناء ذلك كان يحادث ربة الحانة ويحاورها ، وقد حملته برغم أنفه على احتساء قدح من نبيذ « كابرى » . وبينما هو فى طرف من الحديث معها سمع وقع أقدام على كثب ، ثم ظهرت أمامهما الفتاة « لوريلا » وحنت رأسها قليلا بالسلام ثم وقفت مترددة .

فوثب أنتونيو من مقعده وقال « لا بد لى من الذهاب ، هذه فتاة صغيرة من « سورنتو » وقد حملتها صباح اليوم مع القسيس من ثمت على قاربى ، وحتم عليها أن ترجع إلى أمها العليلة قبل الغسق » .

ثم سلم وانحدر مسرعا إلى قاربه فحل حبله ووقف ينتظر لوريلا .

فمشت الفتاة إلى الماء الهوينا كالكارهة المرغمة ، وجعلت تتلفت فى كل ناحية تؤمل قدوم ركاب آخرين ولكن الساحل كان مقفرا ، ولم يمهلها أنتونيو أن تطيل التلفت فانقض عليها كالصقر فاختطفها كما لو كانت هرة ، ثم أجلسها وتناول المجداف ، وما هى إلا ضربة أو اثنتين حتى أوغل فى حومة الخضم .

جلست الفتاة فى أقصى القارب أبعد ما تكون من الفتى ، ومنحته كتفها منصرفة عنه بجيدها الحسان وطرفها الفتان إلى صفحة الماء ، وألبست وجهها سيما الغضب والكبرياء ، وكان جبينها المكفهر مظللا بشعرها الفاحم الغربيب ، وشفتاها العقيقتان مطبقتين بقسوة وعناد ، وكل ما بها فى جمد سوى أرنبة أنفها الأشم التى كانت تضطرب من آن لآخر . وبعد مضى برهة طويلة فى سكوت أحسست لفحة الشمس ، ففكت صرتها وتناولت المنديل فنشرته فوق

رأسها وشرعت تأكل من رغيف كان معها بلا أدام ، ولم تكن ذاقت الطعام يومها . فلم يحتمل أنتونيو أن يراها تأكل الخبز بلا إدام ، فتناول برتقالتين من سلته وقال « هاك شيئا من الفاكهة يا لوريلا تأدمين به خبزك » .

« ادخره لنفسك ، فما بى إليه من حاجة ، وإن فى الخبز وحده لكفاية » .

« إنه مرطب فى هذا الحر اللافح ، وإن له فى العظام لبردا ، وعلى الكبد ندى وقرة » .

« لقد شربت من الماء النمير ، وكان ذلك حسبى » .

« كما تشائين » وألقى البرتقالتين فى السلة .

وعاد إلى الصمت ، وكان صدر الماء مصقولا كالسجنجل .

واستأنف الكلام أنتونيو ، قال :

« ماذا عليك لو أخذت البرتقالتين معك إلى البيت ؟ » .

« لدينا البرتفال فى دارنا ، وإن نفد اشترينا غيره » .

« فما بالك لا تأخذين هاتين البرتقالتين هدية منى إلى أمك ، مع عاطر تحياتى ؟ » .

« أمى لا تعرفك » .

« يصح أن تعرفيها بى وبمكانى » .

« وأنا كذلك لا أعرفك » .

لم تكن هذه أول مرة أنكرته الفتاة هذا الآنكار ، وجحدته هذا الجحود ، وصدمته هذه الصدمات .

وكذلك ظلا جالسين وحدهما معا فى هذا القارب كألد عدوين ، وأحقد خصمين ..

أعداوة كانت فمن نكد الهوى   أن يصطفى فيه العدو حبيبا

جلسا كأنهما قرنان متنابذان ، على أن قلبيهما كانا يخفقان خفقا يكاد يقتلهما ، وكان وجه أنتونيو – الذى من عادته البشر والتهلل – قد توهج احمرارا ، وتأجج نارا ، واشتدت ضربات المجذاف من كفيه حتى أطار الزبد من غوارب الموج فملأ

به فراغ القارب ، ورمى به شخص الفتاة فى أخرياته ، وكانت شفتاه تتحركان كأنما كان يتمتم بألفاظ خشنة غليظة . وتظاهرت الفتاة بأنها فى غفلة تامة عن حالة الفتى هذه من الحنق والهياج ، وبأنها لا تشعر مطلقا بفوران هذا البركان فى صدره ، فأقبلت على الماء تلاعب ببنانها الرخصة ذوائبه المتطايرة ، ثم ألقت المنديل عن رأسها وأخذت تسوى شعرها وتصف طرتها كما لو أنها جالسة وحدها بلا رقيب ولا مشاهد ، وكل ما كان يبدو عليها من آثار الاضطراب هو اختلاف طرفها وحاجبيها ، ومسحها بيديها المبلولتين على جبينها وخديها الملتهبين لتطفئ حرهما .

لقد أوغلا فى أعماق اليم وخلفا الجزيرة وراءهما تلوح كالذرة على جانب الأفق ، وخلا الجو فما من سارية به ولا قلع حتى ولا أدنى طائر من بنات الماء ، فكأنهما فى صحراء من المياه ديمومة بلقع . وتلفت أنتونيو حواليه كالذى ينضج رأيا أو يدبر خطة ، وقد نصلت الحمرة من صفحة وجهه ، وألقى المجذافين من يديه فالتفتت الفتاة مرهفة حواسها ، ولم تبد أدنى مخافة ولا هيبة .

وانفجر الفتى قائلا :

« لابد لى أن انتهى معك إلى غاية ، لقد تقادم العهد وطال المدى . والذى أعجب له أنى للآن لم أمت . تقولين إنك لا تعرفيننى ، ألم تريني لا أزال أمر بك وأعترض سبيلك كمن به مس أو جنة ؟ وقلبى بما أود أن أسره إليك ملآن مفعم ، ولا أدرى منك إزاء كل ذلك إلا النفور والصد والهجران » .

فأجابت فى اقتضاب :

« ماذا تريد أن أقول لك ، وهبنى رأيتك تريد التدخل فى شأنى ، أليس من حقى أن أمنعك ؟ أنا لا أحب أن أروح مضغة فى أفواه المرجفين نلوكها الألسن الجارحة نهشا وتمزيقا ، دون أن يكون لك من وراء ذلك مأرب وغاية ، ولقد عزمت أن لا أتخذ منك ولا من غيرك زوجا » .

« إنما تقولين ذلك الآن لأنك لا تريدين الزواج من ذلك المصور ، ولكنك ستحتاجين يوما إلى الزواج ، ولا بد لك على مدى الأيام منه ، ويومئذ تقبلين أول من يعرض عليك نفسه » .

« من يدرى ؟ ومن ذا الذى يعلم الغيب ؟ وهب أن ذلك يكون ، فما يعنيك

أنت وما يهمك ؟ » .

« ما يعنيني وما يهمني ؟ » .

قال ذلك منتقضا واثبا من مجلسه وثبة تركت القارب يرقص ويتنزى « ماذا يعنيني وماذا يهمني ؟ إن الرجل الذى سيظفر بك من دوني ليزفن على قبره قبل أن يزف عليك ! » .

« وهل كنت وعدتك شيئا ؟ وما ذنبي إذا كنت مجنونا ؟ أى سبيل لك على وأى حق لك عندى ؟ » .

« بلى ! لا حق لى عندك ، لا حق مما يدونه القسيس ويسجل فى دفاتر الزواج ، ولكن لى فيك من الحق مثل مالى فى الجنة إن مت مؤمنا . أتحسبين أنى أطيق أن أراك تزفين على رجل غيرى ، وأرى الناس يرمقونني بعين الرثاء والرحمة ؟ لتسقطن السماء على الأرض من دون ذلك ! » .

« اصنع ما بدا لك فلن تخيفني وما كنت ممن يخاف مخلوقا . أبرق وأرعد كما تشاء فما وعيدك لى بضائر . كل امرئ حر طليق فى ذات نفسه يتصرف بها كما يشاء » .

قال وانتفض من فرعه إلى قدمه « لن أدعك تفوهين بمثل هذا ، لست ممن يبيح لصبية عنيدة مثلك أن تنغص عليه موارد عيشه وتسمم كأس حياته ، اذكرى أنك الآن فى سلطانى ، وأن فى قدرتى أن أصنع بك ما أريد » .

قالت على رسلها وطار الشرر من عينها :

« اقتلني إن تشأ » .

قال بصوت مختنق :

« وأقتل نفسي معك . إن فى ضمير الأزرق الجياش لمنفسحا لنا جميعا ، لا حيلة لى فيك سوى ذلك يا صبية » .

قال الكلمة الأخيرة بعطف ورقة وحنان :

« سنذهب معا إلى القرار متعانقين فنثوى كذلك إلى يوم القيامة » .

ثم صاح صيحة منكرة زاختطف الفتاة بين ذراعيه ، ولكنه مالبث أن قبض يمناه والدم منها يتفجر ، لقد عضته عضة شنيعة .

ثم صاحت ودفعته عنها بحركة مباغتة :

« أتراني فى سلطانك الآن تتصرف بى كما تشاء ؟ » .

ثم وثبت فى البحر فغاصت ثم برزت وأقبلت تضرب الموج بيديها ورجليها كأمهر سابح تؤم الشاطئ .

وقف الفتى ذاهلا مسلوب القوى وقد كاد الرعب يختلس مشاعره وحواسه ، ممدود الذراعين كالمبتهل المتضرع ، مشرئب الجيد طامح العين فى أثر الفتاة ، ساهى الطرف كأنه قد أبصر معجزة من الخوارق ، ولكنه مالبث أن نفض عطفيه وتناول المجدافين واندفع إثرها على مناكب الموج يعسف النجاء ، وما هى إلا لحظة حتى أدركها .

« حنانيك يا لوريلا عودى إلى القارب ، مغفرة أيتها الآنسة ، ما كنت إلا مجنونا ، والله وحده يعلم ما كان قد أصابنى فأطفأ سراج ذهنى ونزل بى كالصاعقة فألهبنى الهابا ، فلم أدر ما أقول ولا ما أفعل ، ارجعى يا لوريلا ! » .

فتمادت فى تيارها كأن لم تسمع .

« ما أنت بقادرة على بلوغ الساحل وهو منا على فرسخين ، اتقى الله فى نفسك وفى أمك ، ولو غرقت لقضت حسرة وقضيت أنا جنونا » .

فقاست المسافة ببصرها ثم انكفأت إلى القارب دون أن ترد عليه بكلمة ووضعت يديها على الحافة ونهض لعينها ، وبينما القارب يميل ناحية من ثقل الفتاة وقع فى الماء رداء الفتى وكان ملقى على مقعده ، ووثبت الفتاة فى القارب بمنتهى الخفة والرشاقه . ولما اطمأن بها المجلس استأنف التجديف وجعلت هى تعصر ثيابها وتنفض الماء من شعرها . ولما أبصرت قرارة القارب مصبوغة من دم الفتى نظرت إلى يده الدامية القابضة على المجداف كأن لم يصبها أذى .

فمدت إليه الفتاة يدها بمنديلها وقالت :

« خذ هذا فاربط به يدك » .

فهز رأسه إباء واستمر يجدف .

فنهضت إليه الفتاة ودنت منه وشدت منديلها على جرحه الدامي ، ثم تناولت أحد المجدافين على الرغم من ممانعته إياها ، وشرعت تجذف معه بأقصى ما لديها من قوة ، وكان كلاهما أصفر الوجه صامتا .

ولما بلغا الساحل نزلا ، وقالت لوريلا دون أن تنظر إليه « سلام عليك » .

قال « وعليك » دون أن ينظر إليها أيضا ، وانصرفت .

وتناول الفتى مجدافيه وسلته ومضى إلى كوخه .

وهنالك جلس على مقعد وحل المنديل من حول يده ، فانهمر الدم المحبوس من جرحه ، وأبصر الورم شديدا حول الجرح .

ثم إنه غسل يده جيدا وأبردها في الماء ، وإذ ذاك تبين له مغارز أسنان الفتاة في لحمه .

قال « لقد أصابت فيما أتت ، ولقد عاقبتنى بما أستحق ، لأبعثن إليها غدا بمنديلها ، وسوف لا تقع على عيناها بعد اليوم » .

ثم غسل المنديل ونقاه جيدا ونشره في الشمس ليجف .

وربط يده ثانيا واستلقى على فراشه وأغمض عينيه .

وإنتبه بعد هجعة فأبصر القمر يغمر الكون بفيض لألائه ، وأحس ريح إنسان لدى الباب ، ولم تك إلا لحظة حتى أبصر لوريلا أمامه . فوضعت بين يده سلة كانت تتأبطها وتنهدت .

قال « لعلك جئتى لتستردى منديلك ؟ » .

« كلا ، جئتك بأعشاب لأضمد جراحك » .

« لقد جشمت نفسك مئونة ونصبا ، وفى مثل هذه الساعة من الليل ؟ ماذا يقول الناس إذ يرونك تطرقين الآن دارنا ؟ إن للناس ألسنة حدادا لا تترك أديما

صحيحا » .

« لست أبالى الناس ولا ألسنتهم ، لقد جئت لأعودك وآسو جرحك » .

ثم أخذت يده ، ولما أبصرت الجرح والورم من حوله ريعت وصاحت :

« رباه ! ما أبلغ هذا الجرح وما أشد ورمه ! » .

ثم شرعت تغسله وتنقيه ووضعت عليه الأعشاب فأطفأت حرارته وربطته بنسيج نظيف .

ولما فرغت شكر لها الفتى حسن صنيعها ، وسألها الصفح والمغفرة على ما كان من تهوره وخرقه .

قالت « أنا أحق بالعفو والغفران منك ، لقد كان ينبغى لى أن أترفق بك وأتلطف وأقول لك قولا لينا ، وأراك بعد قد أضعت رداءك فى اليم وفيه – على ما أعتقد – ثمن البرتقال برمته ، وإنها لخسارة فادحة ، ولكننى أردها عليك من كدى ومن عرق جبينى ، فأمهلنى أياما فلن أستريح حتى أوفيك المبلغ بحذافيره » .

« ما كنت لآخذ منك درهما واحدا ، وبعد فخذى منديلك » .

« كلا ، أبقه لديك تذكارا » .

وبينما هى تتأهب للرحيل نظر إليها ، فما راعه إلا الدموع تنحدر على نحرها وجلبابها ، فصاح « رباه ! ماذا أرى ؟ إنك لترتجفين من فرعك إلى قدمك ، أبك علة ؟ » ..

« كلا ! مابى من علة ، وقد آن أن انصرف » .

وما كادت تبلغ باب الكوخ حتى خنقتها العبرة فاجهشت بالبكاء وأسندت رأسها إلى الحائط تنتحب انتحابا ، ثم عمدت إليه وارتمت على عنقه ، وصاحت وهى تتشبث به تشبث الميت بالحياة :

« لا أستطيع أن أدعك وفى عنقى هذا الإثم العظيم ، لقد أذنبت إليك أعظم ذنب وأسأتك أشد إساءة ، فاثأر لنفسك منى ، اضربنى إن شئت أو العنى ، أو إن تكن حقا تحبنى فخذنى لك ملكا تتصرف فيه كما تشاء ! » .

« إن كنت أحبك ؟ أتحسبين أن أزكى دمى وأحره قد أهريق من هذا الجرح ؟
ألا تحسين خفقان قلبى كأنما يحاول الوثوب من جوانحى ليمتزج بفؤادك ؟ » .

وكذلك شاء الله أن يكون زواجهما على يد صاحبنا القسيس الذى كان معهما فى القارب فى ذلك اليوم المعهود . ولما فرغ ذلك الرجل الصالح من شعائر القران قال وهو يبتسم ابتسامة المتعجب :

« سبحان من ألان من قلبك الذى كان أشد وأصلب من الصخرة الصماء » .

الخادم الأمين

قال السيد لخادمه الأمين « أندى » :

« اذهب إلى المدينة وانظر هل هنالك رسالة باسمى ؟ »

« نعم يا سيدى » .

« أتدرى إلى أين تذهب ؟ » .

« إلى المدينة يا سيدى » .

« ولكن أتدرى إلى أى مكان فى المدينة تذهب ؟ » .

« كلا يا سيدى » .

« ولماذا لا تسأل يا أحمق الحمقى ؟ » .

« لأنى أعرف أننى سأهتدى بإذن الله إلى المكان المقصود » .

قبح الله حماقتك وغفلتك . ألم آمرك المرة بعد المرة أن تسأل عن الشىء إذا جهلته ؟ » .

« نعم يا سيدى » .

« ولم لم تسألنى الآن ! » .

« لأنى لا أحب أن أثقل عليك بالسؤال فأكون عندك ثقيلا بغيضا » .

فقال السيد ، ولم يملك أن ضحك تعجبا من ذلك الاعتذار المدهش :

« شفاك الله ! أراك قد فطنت وأنت أغبى الأغبياء ! اسمع منى ، اذهب إلى مكتب البريد واسأل هل ورد هنالك رسالة لى » .

« نعم يا سيدى » وانصرف حتى بلغ كاتب البريد ، وكان هذا الكاتب يقيم فى دكان يزاول فيه فوق أعماله المصلحية الاتجار بأصناف البقالة والخردوات والأقمشة .

تقدم البطل « أندى » إلى كاتب البريد فى دكانه ، وقال بكل بساطة .

« اعطنى رسالة من فضلك » .

قال الرجل :

« لمن تريد الرسالة ؟ » .

فغضب صاحبنا « أندى » من هذا السؤال واعتده تطفلا وفضولا . مستنكرًا ، وتهجما على قداسة أسرار الحياة الخاصة ، فأظهر استنكاره واحتقاره بإهمال سؤال الرجل حتى لكأنه لم يسمعه ، فقال مكررا سؤاله .

« أعطنى رسالة من فضلك » .

فأعاد الرجل سؤاله السابق ، قال :

« لمن تريد الرسالة ؟ »

قال « أندى »

« ما هذا الدخول فيما لا يعنيك ؟ »

فضحك كاتب البريد من سذاجة الفتي ، وأفهمه أنه لن يستطيع معرفة ما ينبغى أن يقدم إليه من الرسائل ، إلا إذا أعطاه تعليمات باسم صاحبها وعنوانه .

قال أندى :

« أما وقد سألتنى عن التعليمات الصادرة الىّ هو أنى أجىء إلى هنا فآخذ منك رسالة ، هذه هى كل التعليمات لا أكثر ولا أقل »

« ومن أعطاك هذه التعليمات ؟ »

« سيدى »

« ومن هو سيدك ؟ »

« وماذا يهمك من ذلك ؟ »

« يا شيخ المغفلين ويا أبلد البلداء ، كيف أستطيع إعطاءك رسالة دون أن تخبرنى اسم سيدك ؟ »

« ذلك خارج عن الموضوع ، أما إعطاؤك الرسالة فموقوف على مشيئتك إن شئت أعطيت وإن شئت أبيت ، ولكنى أراك مولعا بكثرة الأسئلة الباردة لما قد جلبت عليه من الوقاحة والفضول » .

« قبح الله غفلتك وبلهك ، أراك حمارا ، ومن أرسلك أشد حمارية »

« لا قبح الله غيرك يا أوقح الوقحاء ، أمثل سيدى الوجيه الأمثل – « إيجان» يقال له حمار يا مجرم ؟ »

« الحمد لله الذى أخرجنا من ظلمات غباوتك إلى ضياء الحقيقة البلجاء ، وكذلك أنت خادم السيد النبيل « إيجان » ؟ »

« أفى ذلك شك ؟ »

« نعم ، لأنى لا أعرفك ولم أرك قبل الساعة »

« ولن ترانى بعد الساعة إن تركت ومشيئتى ، لا أرانى الله وجهك أبدا »

« لن أعطيك أية رسالة لسيدك إلا إذا صح عندى أنك خادمه ، أليس فى المدينة من يعرفك ؟ »

« كثير جدا ، أتحسب الناس كلهم جهالا مثلك ؟ »

فى هذه اللحظة دخل رجل كان يعرف الخادم « أندى » وتطوع بضمانته لدى كاتب البريد ، ثم سأل عن رسائل .

فأجابه كاتب البريد :

« أجل يا سيدى عندى لك هذه الرسالة » وقدم إليه ظرفا فتناوله الرجل ، وقدم أربعة بنسات أجرة البريد وانصرف .

وقال كاتب البريد يخاطب « أندى » :

« هاك رسالة لسيدك ، فادفع إلى أحد عشر بنسا أجرة البريد »

« أحد عشر بنسا يا حرامى ! ألم أرك الآن تأخذ أربعة بنسات من ذلك الرجل على رسالة ضخمة تربو على ضعف هذه الرسالة حجما ، وتريدنى الآن أن أدفع أحد عشر بنسا على هذه الورقة الحقيرة ؟ أتظننى عبيطا ؟ »

« كلا لست أظنك عبيطا ، بل أعلم يقينا وأقسم بالإنجيل إنك عبيط »

« أعتقد ما تشاء وأقسم بما تشاء ، ولكن لا تؤخرنى لديك ، هاك أربعة بنسات ثمن الرسالة فأعطنيها ودعنى »

« اذهب فى سبيلك يا لص ! »

وأعاد الرجل الرسالة إلى موضعها ، وانصرف عن بطلنا « أندى » إلى امرأة أتت تطلب مصيدة فيران ، وجاء آخرون يبغون أصنافا شتى من السلع .

وبينما كان كاتب البريد يقضى لكل حاجته ، كان صاحبنا « أندى » يتمشى فى الدكان جيئة وذهابا ويخاطب الرجل من آن لآن بمثل هذه الألفاظ .

« اسمع ! أربعة بنسات ، هات الرسالة وخذ المبلغ ، لا تطمع فى أية زيادة ، أسلك ، الأربعة البنسات خير لك من ألف رسالة لا تسمن ولا تغنى من جوع لو كنت تعقل ، ولكنك لا تعقل ، ما أنشف رأسك وما أوسخ مخك ! ألست معطينى الرسالة ؟ أمضغها يا أبله ، بلها واشرب ماءها »

وبعد ساعة قضاها فى هذا الهذيان انطلق عائدا إلى سيده .

فى هذه الأثناء كان السيد يتململ من مضض الانتظار على مثل جمر الغضا ، ولما ظهر أمامه « أندى » قال :

« هل وجدت هنالك رسالة لى ؟ »

« أجل يا سيدى »

« هاتها »

« ليست معى »

« ماذا تعنى ؟ »

« لم يشأ أن يسلمها إلىّ » .

« من هو الذى لم يشأ أن يسلمها إليك ؟ » .

« ذلك الغشاش المجرم الحرامى الذى أبى إلا أن يأخذ فيها ثلاثة أمثال السعر الجارى » .

« ربما كانت رسالة مزدوجة . لم لم تعطه ما طلب ؟ » .

« كلا يا سيدى ، إنها ليست مزدوجة ، هى دون نصف حجم الرسالة التى أخذها أمام عينى صديقى المستر دارفى بأربعة بنسات فقط » .

« أراك لن تكف عن سخافتك هذه أو أحطم رأسك يا أحمق ! ارجع إلى الرجل فهات الرسالة وادفع إليه كل ما يطلب » .

« عجبا لك يا سيدى ! أتشجع الرجل على نهبنا وسلبنا ؟ لقد رأيته بعينى رأسى يبيعها بسعر أربعة بنسات الواحدة » .

« ارجع إليه يا شقى أو لأقطعن بطون السياط على ظهرك ، ولئن تجاوزت الساعة لألقينك فى اليم .

بلغ « اندى » دكان الرجل وهو مشغول بالكثيرين من ذوى الحاجات .

قال « لقد جئت من أجل تلك الرسالة » .

« انتظر قليلا » .

« سيدى على عجل » .

« فلينتظر سيدك حتى تذهب عجلته » .

« لقد أقسم ليذبحنى إن أبطأت » .

« ذلك مما يسرنى » وبينما كاتب البريد مشغول بزبائنه ، انتقى بطلنا « اندى » بعينه الثاقبة ثلاث رسائل من أضخم الموجود على المكتب ثم اختلسها بمهارة » فائقة وأخفاها فى جيبه ، وانتظر حتى فرغ إليه الرجل وأعطاه الرسالة المطلوبة .

وذهب إلى سيده يتهلل وجهه بشرا وتبرق أسرته سرورا ، وعليه سيماء الظافر المنتصر على خصمه ، وعجب سيده لما رآه يتقدم إليه على هذه الحال الخفية الأسباب من الفرح والطرب .

وأخرج « أندى » من جيبه أربع رسائل ورفعها فوق رأسه وصاح « انظر ! انظر ! أربع رسائل ! » .

ثم وضعها على المائدة بصكة شديدة من يده وقال :

« أتحسب أن فى هذا العالم بأسره من يستطيع أن يخدع خادمك « أندى » مهما بلغ من مكره ودهائه ؟ لقد أخذ منا أحد عشر بنسا ، ولكنى أخذت منه ما يساوى ضعف هذا المبلغ .

تاتاشا

للروائى الروسى ماكسيم جوركى

طوحت بى الأقدار ذات ليلة من ليالى الخريف إلى مدينة موسكو ، فدخلتها خاوى الوفاض بادى الأنفاض . لا أملك درهما أحرز به مسكة الحوباء ، ولاأجد ملجأ أدفع به عادية العواصف والأنواء .

وجعلت أجوب أنحاءها ، وأذرع أقطارها وأرجاءها ، لا أستروح أملا ، ولا أجد متعللا . فلما ضاقت بى الأرض بمارحبت ، خرجت إلى بعض الضواحى حيث مراسى السفن البخارية ، وذلك مكان تراه أشد ما يكون عمرانا وازدحاما أيام موسم الملاحة ، أما فى تلك الليلة فقد كان قاعا صفصفا ما به ديار ولا نافخ نار ، إذ كنا فى أخريات شهر أكتوبر .

فجعلت أتهادى وأتحامل من شدة الوهن والإعياء متخاذلا مطرقا أدمن النظر إلى أديم الترى ، أقول عسى أن أعثر بفتات من بقايا طعام أسد به رمقى . وعلى هذه الحال طفقت أطوف فى أنحاء تلك الضاحية القفرة الخراب ، أجوس خلال مصانع عاطلة ، ومنازل غير آهلة ، وأسواق مهجورة ، وأندية غير معمورة ، أناجى نفسى قائلا : « من لى برغيف وصحن طبيخ ، وأذهب بعدهما إلى جهنم ؟ » .

رنقت شمس الأصيل للمغيب ، واستهلت السماء بديمة ، وهبت الشمال هوجاء عاصفة ، تصيح وتعول خلال الدكاكين والحوانيت الخالية ، وتحطم زجاج نوافذ الحانات والخانات الخاوية ، وتستجيش مياه النهر حتى ترغى وتزبد وتنشر فى الهواء أعرافها وذوائبها الفضية ، متسابقة متلاحقة كأنها حلبة الطراد فى المضمار ، وأربدت السماء واكفهرت تسح وتهطل بواكف رجاس . لقد كانت الطبيعة فى حداد وهذه مرثيتها من حولى قد نقشتها أيدى العناصر ، وأضافت إلى سطورها سطرين من شجر الصفصاف الحزين الواجم ، وسطرا

من قارب متحطم مقلوب ظهرا لبطن مربوط فى أصول الشجر .

لقد كان مشهدا قفرا موحشا يشعر النفس أسى والقلب حزنا ، يخيم على أرحائه البؤس والخراب واليأس والشؤم والنحس ، قد أقامت العناصر فيه مأتما من نائحات الغمام الموجعة . وصائحات الرياح المفجعة . وكأن كل ما على الأرض قد مات ، وكأنى أنا أيضا فى سياق الممات .

كنت إذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمرى — أوان الطرب والمراح ، وإبان اللهو والخلاعة !

وبينما أسير الهوينا على الرمل الخضل المبتل ، أتلمس شيئا من الزاد مما عسى أن يكون قد تخلف بأفنية تلك الحوانيت المهجورة ، أبصرت شبحا جاثيا على ركبتيه فى ثياب نسائية مبللة بالمطر لاصقة بكتفيه ، فوقفت على رأس ذلك الشبح أنظر ماذا يصنع ، فرأيته يحفر أخدودا فى الرمل . يحفر مجتهدا بكلتا يديه تحت دكانة صغيرة من الخشب ، لينفذ إلى داخلها من أسفلها .

فقلت « ماذا تصنع ؟ » .

وجثوت على ركبتى بجانب ذلك الشبح .

فنهض الشبح إلى قدميه وصاح ، وإذا فتاة فى مثل سنى تنظر إلى بعينين نجلاوين زرقاوين مملوءتين رعبا وفزعا ، وعلى وجهها سيما الحسن والملاحة مع ما كان يلوح عليه من أمارات البؤس والأسى .

ورنت إلىّ طويلا ، وقد جعلت آيات الرعب والجزع تزول من عينيها ، ثم نفضت الرمل من يديها وأصلحت قناع رأسها وقالت :

« إخالك مثلى تلتمس شيئا من القوت ، احفر ههنا كما رأيتنى أفعل ، لقد كلت يداى من شدة التعب — احفر ههنا — هذه دكانة بقال — ومتى جئتها من أسفل وجدت بها خبزا وجبنا وسمكا — فهى لا تزال شغالة » .

فأخذت أحفر ، وبعد قليل قعدت الفتاة بجانبى وشرعت تساعدنى .

وكذلك طفقنا برهة نحفر فى سكينة صمت .

وقالت الفتاة وقد وهنت ذراعاها وعيل صبرها :

« أرى طريقة الحفر هذه عقيمة ، وأخشى أننا إذا انتهينا إلى هذه الدكانة من أسفلها وجدناها ذات قعر متين من الخشب – وهنالك تذهب مجهوداتنا العظيمة أدراج الرياح ولا نلقى إلا خسارا – وأحسن والله من كل هذا أن تحاول خلع القفل فإنها أمثل حيلة ، وأكفل وسيلة .

فبحثت عن القفل حتى إذا ألفيته قبضت عليه وجذبته فانتزعته برمته ، وسرعان ما انسابت الفتاة إلى داخل الدكانة وقالت لى بصوت خافت :

« لله درك من باسل مقدام ، ولا شلت يداك » .

لم أحفل بهذا التقريظ من الفتاة إذ ذاك لفرط ما كنت أقاسيه من الآلام والأشجان – وإن كنت أرى كلمة الإطراء الآن من ربات الدلال أجل نعم الدنيا وأطيب ثمرات الحياة .

قلت لها « أعثرت على شيء يؤكل ؟ » .

فأخذت تعدد غنائمنا ومستكشفاتنا ، قالت :

« صندوق مملوء قوارير ، فراء سميكة ، شمسية ، سلة وصفيحة » .

لا حول ولا قوة إلا بالله ، ليس فى هذا كله شيء يشبع المعدة !

ولكن الفتاة ما لبثت أن صاحت فرحة مبتهجة :

« ها هو ذا ، ها هو ذا » .

قلت لها « ماذا ؟ » .

قالت « خبز ... رغيف ... لا عيب فيه سوى أنه مبلول ... التقفه » .

وطوحت بالرغيف ثم بنفسها إلى خارج الدكانة .

فالتهمت منه لقمة ملأت بها حلقى وأخذت أزدردها .

وصاحت بى الفتاة « هلم وأعطنى أنا أيضا لقمة – ثم لا تمكثن ههنا لحظة أخرى – ولكن أين نذهب ؟ وأقبلت تتلفت حولها فى كل ناحية – وكان يعترضها فى سبيلها ويقوم فى وجهها ثلاثة سدود منيعة – من ظلمة حالكة ، ومزنة وأكفة ، وريح عاصفة .

ولكنها ما لبثت أن قالت فرحة مستبشرة كمن ظفر بغنيمة :

« انظر ، هنالك قارب مقلوب فهلم إليه » .

قلت مرددا كلماتها « هلم إليه » .

وأسرعنا نحوه نلتهم غنيمتنا (الرغيف) التهاما .

وكانت الريح لا تزال تعصف والأنواء تهطل والنهر يرغى ويزبد .

وسألتها – وما أدرى لماذا سألتها :

« ما اسمك ؟ » .

قالت بلا أدنى اكتراث ، وهى تلوك الخبز فى شدقيها وتمضغه بضوضاء عالية :

« اسمى ناتاشا » .

فنظرت إليها مليا وأحسست قلبى يتصدع ، ثم نظرت فيما أمامى من الغيم والضباب وخيل إلى أن وجه القضاء والقدر يبتسم إلى ابتسامة غامضة مبهمة .

والتجأنا إلى القارب فثوينا تحته وبئس الملجأ والمستظل ! لقد كان خلوا من أسباب الراحة والطمأنينة – رطبا ضنكا ضيق المجال يتساقط القطر من خلال قعره المتصدع ، وتصفر الريح فى ثقوب جدرانه المخرقة – فلبثنا صامتين نرجف ونرتعد من شدة البرد ، واستندت « ناتاشا » إلى جانب القارب وطوت جسدها طى السجل حتى صارت أشبه شىء بالكرة تطوق ركبتيها بيديها وتوسدهما ذقنها ، وجعلت تنظر إلى النهر بعينيها النجلاوين ساهية ذاهلة لا حراك بها ، فأوجست منها خيفة ووحشة – وأردت أن أحركها إلى الكلام ، ولكن لم أدر ماذا أقول .

وابتدأت هى فقالت :

« ما أنكد الحياة وما أخسها وأخبثها ! » .

ثم عاودت صمتها ، وبقيت صامتا .

وبعد برهة استأنفت الكلام فقالت :

« ومهما صحنا وأعولنا وبكينا وانتحبنا ، لن تسمع الحياة شكوانا ، ثم تأبى إلا تماديا فى ابتلائنا بالمحن والكوارث » .

قلت لها « ومن الذى نالك بالضر وسبب لك هذا العناء ؟ » .

قالت « تاشكا هو الذى صنع بى كل هذا » .

« قلت « ومن تاشكا هذا ؟ » .

قالت « عشيقى ، وقد كان خبازا » .

قلت « وهل كان يضربك كثيرا ؟ » .

قالت « كثيرا جدا – كلما سكر – وما أكثر سكراته » .

ثم انبرت تحدثنى عن نفسها وعن عشيقها تاشكا » وعن علاقاتهما المتبادلة . فقالت إنه كان خبازا أحمر الشاريين جيد العزف على العود ، وكان يختلف كثيرا إلى دار أبويها ، وقد أحبته لظرفه وفكاهته ولنظافة ثيابه وحسن هندامه – لقد كان عنده حلة تساوى خمسة عشر ريالا ، وحذاء برباط حريرى – من أجل هذه الأشياء أحبته ، ولكنه قابل حبها بالإساءة يهينها ويضربها كلما انتشى وما أكثر نشواته ، ويسلبها من النقود كلما جاد بها عليها سادتها (لقد كانت خادمة لدى أسرة غنية) وغيرهم . ولكن هذا كله كان يسهل عليها وتعده يسيرا هينا لو لم يتعده إلى الجرى وراء غيرها من الفتيات أمام عينها .

« أليست هذه أشد إهانة ؟ أولئك الفتيات لسن بأحسن منى ولا أملح ، فميله إليهن دونى يعد ضربا من الهزء والسخرية والاستخفاف بشأنى . تعسا له ونكسا ! وتبا له من فاجر وقح ! لقد استأذنت سيدتى أول أمس فى الخروج لقضاء بعض حاجاتى ، ثم ذهبت إلى الخائن فرأيته فى إحدى الحانات مع فتاة تدعى « دنسكا » وكان قبحه الله سكران ، فأنحيت عليه سبا فأوسعنى ضربا وركلنى برجله وأخذ بناصيتى وسحبنى على وجهى سحبا ، ومزق ثيابى وتركنى كما ترى نصف عارية ، فخبرنى يارعاك الله كيف كنت أذهب إلى سيدتى وأنا على هذه الحال بلا قباء ولا رداء ، وليس على سوى هذا القميص المهلهل ، رباه ماذا أصنع الآن وأيان أذهب وبماذا اعتصم ، وإلى أى شىء سيؤول أمرى ؟ » .

ثم أخذت تبكى وتنتحب .

وعصفت الريح كأن بها جنونا واشتد البرد – له بأوصالنا وخز كوخز الإبر أو

أطراف الأسل ، فاعترت الفتاة من لذعاته رعشة أى رعشة فتقبضت وتجمعت ودنت منى فالتصقت بى تبتغى الدفء ، حتى أحسست أنفاسها تلفح وجهى وأبصرت بريق عينيها برغم الظلام الحالك .

وقالت « تبا لكم أيها الرجال من خونة غدرة لا وفاء عندكم ولا حفاظ معكم ، ولا ترعون عهدا ولا تحفظون ذمة ، بودى لو مكنني الله من مقاتلكم فأوقدن نارا حطمة ولأقذفنكم فيها جميعا لا أستثنى منكم أحدا ، ثم لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأمزقنكم إربا إربا ، لا تأخذنى فيكم رأفة ولا شفقة ، ولو رأيت أحدكم يجود بنفسه لبصقت فى حلقه وقلت : ابعد وبؤ بغضب من الله ومنى ، قبحا لكم من منافقين أفاكين تظهرون مالا تضمرون وتقولون مالا تفعلون ، ولا تحسنون غير الرياء والمداهنة ، تجرون وراءنا كالكلاب تبصبصون بأذنابكم وتلعقون أطراف أقدامنا وتتشبثون بأذيالنا تستدرون عطفنا ومرحمتنا ، حتى إذا أذقناكم حلاوة ودادنا استحلتم ذئابا ضارية ، وانقلبتم علينا سباعا عادية ، وقذفتم بنا فى أغوار الهاوية » .

لقد أوجعتنى كلمات الفتاة ، على أن وخزات البرد كانت أمض لى وأوجع ! فتنهدت من أعماق قلبى ورجعت الحنين كتحنان الإبل العطاش فى الفلاة القفر .

وفى هذه اللحظة أحسست بذراعين صغيرتين تلتفان من حولى — إحداهما لمست عنقى والأخرى استقرت على وجهى ، وسمعت صوتا رقيقا رفيعا متلطفا حنونا يسألنى :

« ماذا تشكو ؟ وماذا يؤلمك ؟ » .

فكدت أحسب أن الذى يخاطبنى إنسان آخر ، وليس « ناتاشا » تلك التى كانت منذ لحظة تكيل السب والقدح للرجال جزافا ، وتتمنى لو مكنها الله من إهلاكهم واستئصال شأفتهم جميعا ، ولكنها هى التى . كانت تطوقنى بذراعيها وتخاطبنى هذا الخطاب اللين .

واستمرت فى تلك النغمة الرقيقة قالت :

« ماذا بك ، وماذا يضيرك ؟ أبك قرة أم جمد البرد أوصالك وجوارحك ؟

مسكين مسكين يا طفلى الصغير ! تجثم منفردا وحيدا منقبضا فى ذات نفسك كالبومة الصغيرة ؟ لم لم تشك إلى سوء حالك وما يرعد فرائصك من البرد القارس ؟ هلم الىّ وتوسد ركبتى هذه — إنها نعم الوسادة لرأسك ، وإن كانت يابسة حشنة » .

ثم جذبتنى إليها ووضعت رأسى على ركبتها وأمرتنى أن أمد جسدى على الصعيد . وكنت من شدة الوهن والإعياء بحيث لا أستطيع مقاومة لو أردت المقاومة ، ولكنى لم أردها ولم يكن بى حاجة إليها ، فكنت فى يدها كالخرقة البالية تطوينى وتنشرنى كيف شاءت ، ثم أقبلت تدلك جسدى بيديها وكنت على وشك أن أتجمد من لذعة القر ، وحنت على حنو المرضعات على الفطيم ، تدفئنى بأنفاسها الحارة .

ولما أعادت إلىّ الحياة وردت الروح إلى بدنى قالت لى :

« وأنت ما الذى رمى بك المرامى وطوح بك المطاوح ، هل ابتليت بالشراب فأدمنت الكأس فطردوك من عملك فأصبحت فى الآفاق مشردا بلا مبيت ولا مأوى ؟ لا بأس عليك ولا تخف ولا تحزن ، سأطلب لك عملا جديدا يكفلك ، ويعولك . سأبغى لك شغلة ببعض المصانع وأنتحلك فأقول إنك أخى أو ابن عمى ، وأشهد بكفاءتك وحسن سيرتك حتى لا ترفض . فهون عليك وخفف ما بك » .

كان لها الله لقد سرت عنى وفرجت وكفكفت من لوعتى ، ونهنهت من حرقتى . يا لسخرية القضاء !

نعم أى سخرية فى هذه الحادثة العجيبة ! ها أنا ذا فتى فى ريعان الشباب ممتلىء نخوة وغيرة وحماسة ، وكنت فى هذه الساعة أشد ما أكون حماسة ونخوة والتهابا ، وكنت مفعم الرأس بالأفكار الثورية أفكر فى مستقبل الإنسانية ، وأرسم الخطط لقلب نظام العالم ، وأدبر التدابير لهدم القديم العتيق من التقاليد العمرانية والنظم والأساليب الاجتماعية ، وإشعال الثورات السياسة ، وأقرأ الكتب الثورية والأسفار الجهنمية التى يحار فى ألغازها ويضل فى أعماق نظرياتها الغامضة واضعوها ومؤلفوها أنفسهم — فى هذه اللحظة التى كنت أحاول فيها بأقصى مجهوداتى أن أكون قوة

اجتماعية حية عاملة هائلة ، وكان يخيل إلىّ أنى قد أصبت بعض النجاح وبلغت من غايتى شأوا ، وأنى على وشك أن أمثل دورا تاريخيا عظيما على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية ، فى هذه اللحظة أرانى كالطفل الصغير فى يدى فتاة ساذجة بائسة ترعانى وتسوسنى وتدفئنى وترد إلىّ أنفاس الحياة بعد إذ أوشكت تفارقنى — فتاة طريدة شريدة لا محل لها فى الحياة ولا قيمة .

لقد كدت أحسب أنى فى منام ، وهذه كلها أضغاث أحلام .

ومضت « ناتاشا » وثرثرتها تلاطفنى وتطايبنى وتداعبنى . وترطب مسامعى بلين الكلام وعذبه مما لا يصدر إلا عن لسان أنثى ولا يحسنه الرجال ذوو القلوب الخشنة والأكباد الغليظة . لقد ألان طيب كلامها من جوانب فؤادى ورقق من حواشى قلبى وأضرم فى وجدانى لهيبا من الشجى والحنان فأذاب ما كان متراكما من الثلوج حول جنانى فانهمرت من عينى طوفانا من غزير المدامع يكتسح فى تياره شيئا كثيرا مما كان قد تلبد وارتكم حول قلبى من الأقذاء والأكدار والأدران والأدناس والخبائث ومن الأوجاع والأحزان والآلام والأشجان .

حيا الإله « ناتاشا » ، لقد انقذت قلبى من الجحيم وأوردته حياض الكوثر !

وقالت لى : « حسبك ! حسبك ! جفف دمعتك ، وكفكف عبرتك . فيم هذا البكاء كله ؟ اتق الله فى نفسك سيجعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد ضيق فرجا ، وسيهئ لك رشدا وخيرا ويفيض عليك من لدنه رضوانا وبرا . »

ثم حنت على تقبلنى ، وكم صبت على من لثمات حارة صادقة تفيض إخلاصا وحنانا وعطفا ، وكلها بلا أجر ولا ثمن !

تلك أول لثمات أهديت إلى من أنثى ، ولقد كانت خير لثمات وأصدقها ، ولكم نلت بعدها من لثمات كلفتنى أبهظ الأثمان ثم لم أجن منها ثمرة ولم ألق خيرا .

قالت « هون عليك يا صبى ، ما أكثر ضجرك وما أقل حولك وما أشد خورك تحت أعباء الحياة ! ولكنك صغير ، ولسوف تتعلم الصبر والجلد متى صرت رجلا ، خفف ما بك واعتمد على فإنى باحثة لك عن عمل ينسيك

ما فقدته » .

فروحت كلماتها ، وبقينا مكاننا إلى الفجر .

ولما حدر الصباح نقابه ، تواد‌عنا وأنصرفنا كل فى سبيله .

ولم نلتق بعد ، على أنى لم آل بحثا وتنقيبا عن الفتاة حولا كاملا . فإن كانت قد انتقلت إلى الدار الباقية فرحمها الله رحمة واسعة ، وإن تك لا تزال على قيد الحياة فلا زلت أقول يرحمها الله رحمة واسعة .

وفد الأموات

انتقل الحانوتى « أدريان بوركورف » من منزله القديم (كان منزلا وحانوتا فى آن واحد) إلى دار جديدة ، ولما فرغ من وضع آخر أمتعته على آخر مركبة أغلق باب حانوته وألصق عليه إعلانا للإيجار أو للبيع ، وامتطى قدميه إلى داره الجديدة ، ولما دنا من تلك الدار المستملحة الأنيقة التى ما برحت منذ أعوام تستهوى قلبه وتأخذ بمجامع لبه ، حتى اشتراها أخيرا بمبلغ جسيم أدهشه من نفسه أنه لم يطرب لرؤية تلك الدار المحبوبة ، ولا رقص قلبه لحسن منظرها ، ولما ولج بابها وألفى الأثاث والأمتعة مبعثرة فى حجرتها ، تلهف شغفا وذاب شوقا إلى داره البالية القديمة التى قضى فيها معظم حياته ، ونفث غمه وكمده على أروس بناته ، ينهرهن على الإبطاء فى ترتيب الدار وتنظيمها .

وأخيرا ساد النظام فى أنحاء الدار ، ففرشت غرفة السمر بالمائدة ، والأرائك وخزانة الآنية والصحاف بالتماثيل والصور الدينية ، وجعل فى أحد أركانها فراش بناته ، وفى المطبخ وغرفة الاستقبال وضعت أدوات مهنة الحانوتى وسلعه وبضاعته : نعوش ، وتوابيت من كل مقاس وشكل ولون ، وخزائن فيها شارات الحداد وأزياؤه من سود القلانس والبرانس ، والأوشحة والمناطق ، خلاف عدد وافر من الشموع والمشاعل .

وعلى الباب علق رمز المهنة : لوحة تمثل كيوبيد رسول الحب وفى يده مشعل منكس ، ومن تحت ذلك : « هنا يباع جميع أصناف النعوش الملونة و« السادة » — نعوش للإيجار — ترميم النعوش القديمة » .

وأوت البنات إلى مخدعهن ، وجال الحانوتى « أدريان » جولة فى منزله الجديد ليعاين نظامه وترتيبه ، ثم جلس إلى النافذة وأمر الخادمة بإحضار الشاى .

وقد يعرف القارئ المطلع أن المؤلفين الجليلين « وليم شكسبير » و« السير

والتر سكوت » آثرا أن يجعلا الحانوتية وحفارى القبور فى رواياتهما الخالدة من أهل الجذل والمراح ، والفكاهة والمزاح ، إمتاعا للقارئ بما يترتب على ذلك من عجيب المناقضة بين أخلاق الحانوتى ومهنته ، ولكنا مراعاة للحقيقة والواقع لا نستطيع مجاراة « شكسبير » و « سكوت » فى تلك الطريقة الفنية ، ومن ثم لا يسعنا سوى الاعتراف بأن أخلاق حانوتى روايتنا كانت على تمام الائتلاف مع مهنته الحزينة الأسيفة ، لقد كان « أدريان » فى معظم حالاته وأوقاته مكتئبا مطرقا واجما ، قلما يفتح فمه إلا ليوبخ بناته على الكسل والإطلال من النوافذ على السابلة ، أو ليطلب أبهظ الأثمان على بضاعته ممن يحوجهم سوء الحظ – وأحيانا حسن الحظ – إلى مشتراها .

وكذلك كان « أدريان » جالسا إلى النافذة يشرب الشاى ، وإنه لمنغمس إلى أم رأسه فى لجة من الهموم والبلابل ، لقد كان يفكر فى ذلك المطر الهاطل الذى منذ أسبوع انبرى ينهمر ويتدفق على جنازة كان هو القائم بشأنها ، لقد جعل الوابل المدرار ينصب من أمثال أفواه القرب على عدته وبضاعته :– على البرانس والقلانس وعلى الأوشحة والمناطق حتى أتلف نسيجها ومحا ألوانها ، وشوش قوالب القلانس وأفسد أشكالها ، ولم يغب عن صاحبنا « أدريان » أن ترميم هذه السلع والبضائع يحتاج إلى باهظ النفقات ، وكان يؤمل تعويض هذه الخسارة من وفاة الشيخة العجوز « تروكينا » زوجة التاجر الغنى ، تلك التى مضى عليها أكثر من عام وهى من الموت على شفا جرف ولكنها تأبى أن تموت ، غير أنه تذكر أن العجوز « تروكينا » تعانى سكرة الموت فى قرية بعيدة ، وأن أهلها – لسوء الحظ – ربما لجأوا إلى حانوتى قريب من مقرهم ، رغما من وعدهم إياه أنهم لن يلجأوا إلى غيره .

وبينما هو فى هذه الهواجس إذ قرع الباب ، فقال :

« من الطارق ؟ » .

وما لبث أن دخل عليه رجل متهلل الوجه براق الأسارير ، فتقدم نحو الحانوتى وقال :

« معذرة أيها الجار الكريم ، معذرة عن تطفلى عليك وإقلاقى راحتك ... .

ولكنى أردت أن نتعارف إذ أصبحت جارا لنا ، إنى رجل حذاء أدعى « جوتليت شالتز » ألمانى الجنس وداري قبال دارك ، وغدا أصنع وليمة احتفالا بذكرى يوم زواجى ، وقد جئت أدعوك إليها أنت وبناتك الثلاث .

فقبل الحانوتى الدعوة بمنتهى السرور والارتياح ، ثم أجلس ضيفه الحذاء وسقاه الشاى ، وسرعان ما تسالبا أهداب الحديث ، وقال الحانوتى « أدريان » :

« كيف حال السوق عندكم ؟ » .

قال « شالتز » :

« السوق عندنا كاسدة والحال سيئة ، لا جرم أن بضاعتى أقل رواجا من بضاعتك ، فالأحياء قد يستغنون عن الأحذية فيسيرون حفاة ، ولكن الأموات لا يستغنون ألبتة عن النعوش ، ولا يستطيع الميت أن يلج باب الآخرة عاريا ، فلا ميت يستطيع الذهاب إلى قبره بلا نعش » .

قال « أدريان » :

« ولكنك إذا جاءك حي مفلس يستجديك نعلا من نعالك فلست مجبرا أن تنعله ، أما أنا فإن لجأ إلى ميت شحاذ كان حتما على أن أهبه نعشا ، فالحى قد يضرب فى الأرض حافيا » .

على هذا النمط دار الحديث بين الرجلين برهة من الزمن ، وأخيرا قام الحذاء فاستأذن فى الانصراف بعد أن جدد دعوته .

فى ظهر اليوم التالى انتقل الحانوتى وبناته الثلاث من دارهم الجديدة إلى دار جارهم ، ولست بواقف هنا لأصف للقراء هيئة الحانوتى وهندامه ، ولا قفطانه الأخضر الروسى ، ولا زينة البنات وحليتهن كما يفعل الروائيون العصريون ، ولكنى لا أكتم القارئ أن البنات الثلاث لم يفتهن أن يلبسن لهذه الوليمه البهيجة معاطفهن الصفراء وأحذيتهن الحمراء التى كن يلبسنها دائما فى المناحات والمآتم .

كان منزل الحذاء غاصا بالضيوف معظمهم من الصناع الألمان ، وكان هنالك رجل روسى ساعاتى يدعى « يوركو » ، فأقبل الحانوتى على ذلك

الروسى وسرعان ما تعارفا وتآلفا ، ولما جلس الضيوف إلى الخوان جلس الصديقان الجديدان جنبا لجنب ، وقام الحذاء وزوجته وابنتهما - فتاة فى السابعة عشرة من عمرها - بخدمة الضيوف على المائدة ، وفاضت ينابيع الشراب ، وانقض الساعاتى والحانوتى على الألوان يتباريان كفرسى رهان ، وعلا صخب الحديث وحمى وطيس الحوار والجدال . ثم إن صاحب الدار فض زجاجة وصاح بالروسية « على صحة زوجتى لويزا ! » .

وهدرت الأباريق بالصهباء وفارت الشمبانيا ، وأقبل رب الدار على محيا زوجته فقبله ، وشرب الضيوف على ذلك الوجه الزاهر الناضر .

وصاح رب البيت وفض زجاجة أخرى :

« على صحة ضيوفى الكرام ! » .

وشكره الضيوف بالتهام الأقداح .

وتلاحقت الكئوس وشربوا على صحة كل مخلوق ، شربوا على صحة موسكو وعشرين بلدة ألمانية ، ثم على صحة جميع الطوائف والفرق والصناعات والحرف مجتمعة ومتفرقة ، إجمالا وتفصيلا ، شربوا على صحة « الأسطوات » والمقدمين والمعلمين والصناع والعمال ، وسكر الحانوتى « أدريان » ولعبت برأسه المدام ، فتناول كأسا واقترح أن تحتسى الكئوس على صحته فاحتسوها ، وهنا قام رجل ضخم جبار فصاح :

« على صحة من نشتغل من أجلهم ، على صحة زبائننا الكرام ! » .

فسر الجميع بذلك الاقتراح ، وارتفع منهم الضحك والضوضاء وجعلوا يشربون ويصيحون « على صحة زبائننا الكرام » . وفى وسط هذه الضجة نهض الساعاتى « يوركر » فالتفت إلى صديقه الحانوتى وقال له :

« هلم يا صاحبى ، واشرب على صحة أمواتك ، على صحة جثثك المقبورة ! » .

فتضاحك الجماعة ، ولكن الحانوتى عد هذه الكلمة مسبة وإهانة فعبس وأطرق ، ولم يفطن إلى غضبه أحد من الحاضرين فظلوا على حالهم من الأنس

والسمر واللهو والفكاهة .

ودق جرس الغروب وتفرق الضيوف كل فى وجهته ، وعاد الحانوتى إلى منزله سكران غضبان .

فصاح قائلا :

« عجبا عجبا ! لماذا يحقرون مهنتى ويبخسونها قدرها ؟ أليس لمهنتى شرف سائر المهن ؟ أم يحسبون أن الحانوتى أخو الجلاد وصنوه ! لماذا جعل هؤلاء الكفرة الفجرة يضحكون مني ومن مهنتى ؟ أظنوا الحانوتى مسخرة وأضحوكة ؟ .. لقد هممت والله أن أدعوهم إلى منزلى الجديد ، وأن أصنع لهم وليمة . فأما وقد أساءوا إلىّ واضطهدونى فلن أصنع لهم شيئا ، وبدلا من دعوتى إياهم ، لأدعون زبائنى الذين من أجلهم أشتغل ، أجل لأدعون الأموات ، لأدعون جثثى المقبورة ! » .

فقالت له خادمته ، وكانت فى تلك اللحظة بإزائه :

« ماذا أصابك يا أبتاه ؟ وما هذا الهراء والهذيان ؟ استغفر الله وصل للعذراء ، ماذا تقول ؟ تدعو الأموات إلى بيتك الجديد ؟ ما هذا الحمق والسخف ؟ » .

فاستمر « أدريان » على سالف قوله :

« أجل والله لأدعون الموتى ، وليكونن ذلك غدا . أنصتوا إلىّ أيها الأموات ! تفضلوا علىّ يا زبائنى الكرام ويا أولياء نعمتى بزيارتى وتناول العشاء على مائدتى فى مساء الغد . سأطعمكم مما رزقنى الله طعاما هنيئا سائغا » .

علىّ أثر ذلك استلقى الحانوتى على فراشه ، وما هى إلا لحظة حتى كان يغط فى نومه .

وقبيل الفجر أيقظت الخادمة سيدها « أدريان » ، وذلك أن رسولا جاء من أسرة الأرملة « تروكينا » . وقد كانت توفيت فى خلال تلك الليلة — ليبلغ النبأ العظيم إلى مسامع الحانوتى ، فأتحفه الحانوتى بنصف ريال جزاء له على هذه البشرى ، ثم ارتدى ثيابه عجلا وامتطى مركبة إلى قرية الفقيدة .

أمضى الحانوتى ذلك اليوم بأكمله غاديا رائحا بين البلدة والقرية فى إعداد

معدات الجنازة ، ولما فرغ من واجباته انقلب عائدا إلى داره ، فلما دنا منها خيل إليه أنه أبصر إنسانا فتح مغلاق بابها ثم اختفى داخلها .

فقال فى نفسه :

« ماذا أرى ؟ ومن عسى يكون ذلك الإنسان الذى يحتاج إلىّ الآن ؟ ألص جاء يسرق دارى ؟ أم لبناتى عشاق يختلسون إليهن الزيارة فى مثل هذه الساعة ؟ ومهما يكن من الأمر ، إنى لا أرى فيه خيرا » .

وبينما هو يفكر فى الإستغاثة بأحد الجيران ، إذ أبصر شخصا آخر يفتح الباب ، وفيما هو يهم بالدخول أبصر صاحبنا الحانوتى رب البيت فوقف ونزع بالسلاح قلنسوته ، ونظر الحانوتى فى وجه الطارق ، وكأن ذلك الوجه قد مر على ناظره من قبل ولكنه لم يتذكره بالضبط .

قال أدريان بصوت مختنق وقد أخذ الرعب بكظمه :

« لقد جئت تشرفنى بزيارتك ، مرحبا بك ، تقدم أمامى » .

فأجابه الطارق بصوت أجوف منخوب :

« أسقط الكلفة فيما بيننا يا أبتاه ، تقدم أنت أمامى ، خليق برب الدار أن يهدى السبيل ضيوفه » .

صعد « أدريان » السلم يتبعه الآخر ، وخيل إلى « أدريان » أنه يسمع حركة أناس يجوسون خلال حجراته .

فقال فى نفسه :

« ويل لى ! ما ذا عسى يكون ذلك ؟ » .

ولما دخل غرفته أبصر بها ما راعه وهاله حتى أرعدت فرائصه وخارت قواه ، ولم تستطع حمله ساقاه .

كانت الحجرة مملوءة بأشباح الموتى ، بالجثث التى كان حملها فيما سلف إلى المدافن ، وغيبها فى ألحادها .

كان القمر باهرا ، وقد هبطت أشعته اللؤلؤية على تلك الجثث فأضاءت وجوهها الصفراء الزرقاء ، وشفاهها المتقلصة ، وأعينها الزجاجية ، وأجفانها

المرخاة ، وأنوفها البارزة .

وعرف « أدريان » فى هذه الأشباح أولئك الذين كان دفنهم بيديه ، .. وفى الطارق الذى كان يغدو على عقبه ، ذلك الميت الذى هطلت السماء على جنازته كما حدثنا آنفا ، وأحدق الجميع رجالا ونساء بصاحبنا وصاحبهم — أدريان — وأكثروا عليه من التحيات والسلامات — ماعدا رجلا فقيرا مسكينا كان قد دفن مجانا ، فمنعه الخجل فى تلك اللحظة أن يتقدم فانتبذ زاوية من الحجرة ، تستر بها أطماره البالية ، أما سائر القوم فكانوا فى آنق الحلل وأروعها ، فالنساء فى الخز المزركش والديباج الموشى ، والضباط فى الملابس الرسمية . على أن لحاهم كانت غير محلوقة ، والتجار والصناع فى قفاطين الأعياد والمواسم .

ثم انبرى من بين الجماعة أحسنهم هيئة ، وأجهرهم صوتا ، وأطلقهم لسانا ، وكان مدرسا فقال :

« لقد بعثنا جميعا تلبية لندائك يا مستر « أدريان » ولم يتخلف منا عن إجابة الدعوة أولئك الذين قد أكل البلى أجسادهم فلم يبق منها إلا عظام نخرة لا تستطيع تماسكا ولا نهوضا — بل لقد رأيت من بين هذه واحدا لم يطق صبرا عن لقائك فجعل يئن تشوقا إليك وحنينا .. » .

فى تلك اللحظة اندفع الباب ودخل هيكل عظمى دقيق ، فتقدم نحو « أدريان » وابتسم وجهه المعروق توددا وحنانا إلى الحانوتى ، وكانت تتدلى من أعطافه خرق بالية بين حمراء وخضراء كأنها تتدلى من عصا مشذبة ، ولعظام قدمه فى نعله صرير وصليل كصوت « الشخشيخة » .

نظر هذا الهيكل العظمى إلى الحانوتى وقال :

« أراك لا تعرفنى يا مستر « أدريان » ، ألا تذكر الجندى « بطرس بتروفتش » ذلك الذى بعته أول نعش من صنع يديك فى عام ١٧٩٩ ، وقد جعلته من خشب الزان وكان الاتفاق على خشب السنديان ، ألا تذكر ذلك ؟ » .

ومد الهيكل العظمى ذراعيه العاريتين المعروقتين نحو « أدريان » ، ولكن الحانوتى استجمع كل قواه وصرخ صرخة منكرة ، ثم دفع بجميع يديه فى صدر الهيكل فتناثرت عظامه على البساط بددا .

عند ذلك علت ضجة استياء من الجثث احتجاجا على ما أصاب زميلهم ، فأوسعوا الحانوتى وعيدا وتهديدا ، وأرسلوا عليه من صيحات مقتهم وغضبهم ما أصم أذنيه ، حتى فقد صوابه وخر مغشيا عليه فوق عظام الجندى المبعثرة .

طلعت الشمس على الحانوتى نائما بفراشه وارتفع سرادقها ، ولما أينع النهار وعلا رونق الضحى ، تقلب « أدريان » على مضجعه وتمطى ، ثم فتح عينيه ، فأبصر الخادمة تجهز الشاى .

ومرت على ذهنه ذكرى بومه المنصرم فارتعدت لها فرائصه — لقد تذكر الأرملة « تروكينا » ووفاتها ، وتذكر وفد الأموات وما كان منهم ، وتذكر خطاب الحندى « بتروفتش » وسقوطه على أرض الغرفة عظاما مبعثرة ، وظل صامتا ينتظر من الخادمة أن تبدأ الحديث فتسرد عليه تلك الحوادث .

تقدمت إليه الخادمة بردائه وسألته قائلة :

« كيف كانت ليلتك يا أبتاه ؟ لقد جاء جارنا الخياط ليدعوك إلى حضور حفلة سيقيمها غدا تذكارا ليوم ميلاده ، ولكنى كرهت أن أزعجك من منامك لتفاهة كهذه » .

قال أدريان :

« ألم يجئنا رسول من أسرة الأرملة « تروكينا » عليها رحمة الله ؟ » .

« عليها رحمة الله ! ومن قال إن المرأة قد ماتت ؟ » .

« لك الويل من غبية حمقاء ! ألم تساعدينى أنت نفسك على تجهيز لوازم الجنازة أمس ؟ » .

« أأصابك جنون يا أبتاه ، أم لا تزال فى غمرة من سكرة الأمس ؟

أية جنازة كانت أمس ، وأية معدات أعددناها لتشييع الجنازات ، ومتى ساعدتك أنا فى أى عمل من هذا الفبيل ؟ تقول إن ذلك كله وقع بالأمس ، ولا أعرف شيئا جرى أمس إلا ذهابك إلى مأدبة جارنا الحذاء ورجوعك منها تتخبط سكرا لا تكاد تنصب قامتك ، ثم تهالكت على الفراش حيث مازلت تشخر حتى الساعة » .

قال الحانوتى وقد أفرخ روعه :

« أحقا لم يكن سوى ذلك ؟ » .

« إى وربك » .

« بشرك الله بالخير ، جهزى الشاى ، ونادى البنات » .

الطبيب

للقصصى الروسى إيفان تيرجنيف

مرضت فى بعض أسفارى فآويت إلى نزل واستدعيت طبيبا ، فحضرنى رجل ربعة معروق أسود الشعر ، وبعد أن عالجني وهم بالرحيل رأيته يتباطأ ويتلكأ ، وكأن على صدره عبئا من الأسرار يريد أن يطرحه إلى تفريجا لغمته وترويحا لنفسه ، فجلس وشرع يتكلم :

ومن عجب أنك قد تعاشر الرجل وتخالطه وتظل معه على أتم صفاء وألفة السنين العديدة ، ثم لا تجد نفسك فى أثناء ذلك ميالا ولو مرة واحدة إلى أن تفضى إليه أغلاق صدرك ، أو تفضى إليه بنبذة من خفايا أمرك ، فى حين أنك قد تعثر بالأجنبى الغريب الذى لا صلة لك به ولا ألفة ، ولم تره قبل توك وساعتك ، فترى نفسك مدفوعا بعامل خفى إلى كشف ضميرك له وصب مكنونات صدرك فى أذنيه .

كذلك كان شأن هذا الطبيب الأجنبى معى ، إذ أقبل على فجأة فأفاض فى مسمعى القصة الآتية العجيبة ، قال بصوت ضعيف مرتجف (من أثر استعمال النشوق) :

« وردت على فى منزلى جوف الليل من سيدة أرملة هذه الرقعة : إن ابنتى فى حالة النزع فأسرع لغياثنا ، وقد بعثنا إليك بمركبتنا ، وجزاك الله خيرا إنه لا يضيع أجر من أحسن عملا . لم يكن منى إزاء ذلك سوى ارتداء ملابسى على عجل ، وتناول شيء من العقاقير والأدوية ثم الهبوط إلى فناء البيت حيث وجدت الحوذى على المركبة فى انتظارى ، فركبت واندفع بنا الجوادان فى طريق جهنمى كله أوعار وأوعاث ، من برك ومناقع وغياض وثلوج وجداول ،

وبعد عشرين ميلا من هذه العقبات والقحم والمهالك ، وصلنا أخيرا إلى بيت صغير . ودلتنا الأضواء المنبعثة من النوافذ على أن القوم كانوا فى انتظارنا ، واستقبلتنى والدة العليلة قائلة « أنقذها يا بنى ! نجها ! إنها تموت ! » فقلت لها « صبرا جميلا أيتها السيدة ، لا تهلكى أسى وتجلدى ، أين العليلة ؟ » فقالت لى : « اتبعنى » ثم أفضت بى إلى حجرة صغيرة بإحدى زواياها مصباح ، وعلى سرير بها فتاة فى العشرين من عمرها فاقدة الشعور ، وكانت فى حرارة مشتعلة تتنفس فى مشقة ، — كانت محمومة ، وكان هنالك صبيتان أخريان — أختاها — قد بلغ منهما الجزع والروع مبلغا ، ودمعهما على الوجنات ينسجم ، وقالتا لى : « لقد كانت أمس بحالة جيدة وشهيتها للطعام حادة ، وقد شكت الصداع صباحا وفى المساء أصابها بغته ما ترى » . فقلت لهن « لا بأس عليكن ، غيضن من عبرتكن ، وكفكفن من لوعتكن » ، ثم دنوت من العليلة ففصدتها وأمرت بوضع لزقة من الخردل ووصفت دواء من مزيج ، وجعلت فى أثناء ذلك أنظر إليها ، فلا وربك ما رأيت أروع منها صورة ولا أجمل وجها ! لقد كدت أذوب حزنا عليها ورحمة لها ! وأفادها والحمد لله علاجى فعرقت وبدأ يعود لها شعورها فتلفتت حولها وتبسمت وأمرت يدها على محياها ..

وتحدب عليها أختاها يسألانها كيف حالها ؟ فقالت (بخير) وأدارت وجهها . ونظرت إليها فإذا هى نامت ، فقلت لأمها وأختيها (اتركنها الآن وحدها) وكذلك خرجنا جميعا على أمشاط أقدامنا وتركنا فى حجرة العليلة خادمة ترعاها ، وأوينا إلى غرفة الجلوس حيث أعطيت من أقداح الشاى والروم ما لاغنى للطبيب عنه فى أمثال تلك الظروف ، ثم سألننى المبيت لديهن تلك الليلة فأجبتهن إلى ذلك ، واستمرت السيدة والدة العليلة تئن وتتأوه ، فقلت لها : « ماذا بك الآن وما خطبك ، سكنى من روعك ، إنه لا بأس على ابنتك ، لتشفين إن شاء الله ولتعودن أصح ما كانت ، قومى فخذى بنصيب من الراحة فالساعة الآن الثالثة صباحا » . قالت السيدة « على أن ترسل إلى إذا حدث حادث » قلت : أجل ، ولا كان ذلك ، وانصرفت السيدة وابنتاها ، وهيأ لى الخادم فراشا فى غرفة الجلوس فاستلقيت عليه لأنام ولا نوم ، لقد شرد النعاس

عن مقلتى لفرط انشغالى بالفتاة العليلة وتشبث طيفها بمخيلتى . ولما أضنى جنبى طول التململ وأعيانى نبو المضجع وقلق الوساد ، ثرت من مرقدى وقلت فى نفسى « لأذهبن إلى حجرة المريضة فأتفقد حالها » ، فعمدت إليها وفتحت بابها – لشد ما خفق قلبى إذ ذاك وأرجفت أحشائى ! ونظرت فإذا الخادمة نائمة تغط غطيطا ، بعدا لها وسحقا ! وإذا العليلة راقدة على جنبها وجهها إلىّ ، وذراعاها مطروحتان كل فى ناحية ، ففتحت عينيها فجأة وحدقت فى وجهى وقالت (من هذا ؟ من هذا ؟) فبهت وارتبكت ولكنى ما لبثت أن قلت « سيدتى لا تراعى ولا تفزعى ؟ أنا الطبيب وقد جئت لأرى كيف حالك » فقالت « أنت الطبيب ؟ » قلت « أجل ، وقد جئ بى من البلد من أجلك ، ولقد قصدتك يا سيدتى وإنى أرجوك الآن أن تنامى ولن يمضى يومان حتى يتم بإذن الله شفاؤك » فقالت : « نعم نعم أيها الطبيب ، لا تدعنى أمت ، من فضلك ، من فضلك ! » .

قلت لها : « لماذا تتكلمين هكذا ؟ شفاك الله وعافاك ! » ، وقلت فى نفسى :« هل عاودتها الحمى ؟ » ،ثم جسست نبضها ، أجل لقد عاودتها الحمى ، ونظرت إلىّ طويلا ثم أمسكت بيدى وقالت « سأبين لك الآن لماذا لا أريد أن أموت ، نعم سأبين لك سبب ذلك ..هذا سر فيما بينى وبينك .. نحن الآن وحدنا فى هذه الغرفة ..ادن منى .. » فانحنيت فوقها ، فحركت شفتيها لصق أذنى ، ومست بشعرها وجنتى ، فدار رأسى دورانا ، وبدأت تهمس فى أذنى ، بكلمات متقطعة لم أفهم لها معنى ، لقد كانت تهذى . وتمادت فى هذيانها تهمس بألفاظ كأنها ليست من اللغة الروسية . ولما فرغت من همسها عرتها رعشة وطرحت رأسها على الوسادة ، ثم هددتنى بإيماءة من أنملتها قائلة « وتذكر أيها الطبيب وإياك أن تبوح لأحد » فسكنت من جأشها وأسقيتها شيئا من الدواء ، ثم أيقظت الخادمة وانصرفت » .

وهنا تعاطى الطبيب كمية وافرة من النشوق ، ولبث برهة مخدر الأعصاب من أثرها ..

ثم استأنف الحديث ، قال :

« ولما أقبل الغد لم تتحسن حال العليلة خلافا لما كنت أنتظر ، فحرت فى أمرى وأطرقت أفكر ثم أفكر ، وأخيرا عقدت النية على البقاء عند تلك الأسرة ولو أدى ذلك إلى تقصير فى حقوق مرضاى الآخرين ممن كان بحاجة إلىّ وفى انتظارى ... وفى ذلك كما تعلم من الخسارة المادية والأدبية ما فيه . ولكن ماذا كنت أصنع والعليلة فى خطر ، وكنت فضلا عن ذلك أشعر بأشد جاذبية نحوها ، هذا إلى ما كان قد شملنى من عطف تلك الأسرة ووداهم ، وتولانى من برهم وإحسانهم ، وما لقيت من مزيد حفاوتهم وألطافهم .. ولم تتحسن حالة الفتاة العليلة .. وتوالت الأيام وتواترت الليالى ..ولكن .. هل منصت إلى أنت ؟ ... (هنا توقف الطبيب هنيهة) « لا أكاد والله أبصر السبيل إلى إخبارك بما كان ، لا أعرف كيف أسوق الحديث .. » (وتعاطى من النشوق ثانيا وسعل ورشف رشفة من الشاى) ليس أحسن فى مثل هذا المقام من الصراحة واختصار الطريق بإعلان الحقيقة بلا تمهيد ولا توطئة ، فقصارى القول يا سيدى أن الفتاة العليلة ... كيف أقول ؟ الواقع يا سيدى أنها عشقتنى وشغفت بى صبابة ووجدا . ويحتمل أنها لم تعشقنى وأن ما بدا منها لم يكن صبابة ولا وجدا . ماذا أقول وبماذا أصف ما أبدته نحوى من تلك العاطفة والوجدان ؟ (وهنا نكس الطبيب رأسه والتهب وجهه احمرارا) .. كلا يا سيدى ، الواقع أنها عشقتنى وهامت بى غراما وولها ، وكانت أريبة ذكية على جانب عظيم من العلم والأدب ، ولكنى يا سيدى قد شردت عن منهج الحديث وأقبلت أتعسف وأتخبط فى مجهل من الغموض والإبهام ، وأولى لى ولك أن أسلسل الحديث على نسقه ونظامه » .

ثم حسا قدحا من الشاى واستأنف القول بصوت أخفت ولهجة أسجى وأهدأ ..

« ألحت سطوة المرض على العليلة ، واستفحل الداء وازداد الشر تفاقما على الأيام ، لست يا سيدى بطبيب فتدرك ما ينتاب الطبيب من القلق والجزع حين يرى المرض قد تصعب وتأبى واستعصى على الأساة طبه وعلاجه ، عندئذ تسوء عقيدة الطبيب فى نفسه وتزول ثقته فى كفاءته وغنائه ، وتعروه بعد عزة المقدرة ذلة

العجز ، وبعد غبطة اليقين مضض الشك ، ويخيل إليه أنه قد نسى من العلوم والمعارف كل ما كان قد حصله ، وأن المريض قد أساء به ظنا ، والناس جميعا قد فطنوا إلى اضطرابه وحيرته وارتباكه وأخذوا يرتابون فيه وفى مبلغ كفايته .. ويتهامسون عنه ويتغامزون ..لله ما أشد ورطته وأحرج مركزه إذ يقول فى نفسه ، لا شك أن لهذا الداء لدواء ، ولكن أين السبيل إليه والدليل عليه ؟ ثم يختار نوعا من الدواء راجيا أن يكون فيه الشفاء فيجربه – كلا ! ليس هذا هو الدواء الناجع – ومن شر البلية أن الطبيب لفرط اضطرابه وقلقه لا يمهل الدواء من فسحة الوقت ما هو ضرورى لحصول نفعه وظهور أثره وثمرته ..بل لا يزال يلتقط هذا الدواء ثم ينبذه ويستبدل ذاك من ذلك ، وأحيانا يتناول كتابا طبيا فيخيل إليه أنه قد أصاب بغيته ، ثم يجرب الدواء ولا فائدة ، وأحيانا يلتقط نوعا من الدواء اعتباطا واقتراعا فيستعمله معتمدا على الله الذى بيده الشفاء والوصب والموت والحياة ، وفى أثناء ذلك كله يكون العليل على طريقه إلى الفناء . ومن أعظم دواعى الغم والكمد فى هذه الظروف أن أهل العليل يثقون بالطبيب الثقة العمياء ، ويشعر هو أنه ليس لهذه الثقة أهلا ، وينتظرون منه الغياث والفرج وليس على ذلك بقادر ، وكنت فى أثناء ذلك لا أكاد أغادر غرفة العليلة . لقد جذبت إليها بأشد الروابط وأمتن الأواصر مما تعجز القوة البشرية أن تفصم عراه أو تصرم حباله ، وجعلت أسليها بالقصص والنوادر ، وألهيها بأفانين الملح والفكاهات وآنا ألاعبها الورق ، ثم أسهر عليها ليلا . وكانت أمها تشكر لى ذلك وعينها بالدموع غرقى ، ولكنى كنت أعلم عند نفسى أنى لست لشكرها مستحقا ، لأنى لم أكن أبذل مجهوداتى هذه عن تضحية ، كلا بل عن أنانية ، إذ كنت قد شغفت بالفتاة حبا ، فلم أك أطيق على فراقها صبرا . وكان بالفتاة « إسكندره إندريفينا » من الشغف بى مثل ما كان عندى بها وأكثر ، حتى لقد كانت تأمر أحيانا أن لا يدخل علينا فى خلوتنا أحد . وكانت تكثر من التحدث إلىّ ومن السؤال – تسألنى عن وطنى ومنبتى ومسقط رأسى ، وعن أهلى وأقاربى وخلانى ، وكيف نشأت ودرجت وترعرعت ، وفى أى معهد تعلمت ، وأى شهادة أحرزت ، وكيف رواج حرفتى ونفاق سوقها ، ورسوخ دوحتى فى

مغرس الفضل وفرط بسوقها . وكنت أعلم أن كثرة الكلام تضرها ولكنى لم أستطع أن أحرم عليها الكلام ، إذ أصبحت نبرات صوتها عندى من ضروريات حياتى كالهواء الذى لا غنى عنه ، فكنت أنحى على نفسى باللائمة وأقول أية سبيل مهلكة تسلك بالفتاة المسكينة يا مجرم يا أثيم ؟ » ... . وكانت أحيانا تقبض على يدى وتديم إلى نظرة ملؤها الوجد والصبابة ،ثم تلفت وجهها وتزفر زفرة حرى مؤججة وتقول : « لله أنت ما أشد عطفك وحنانك ، وما أكثر برك وإحسانك ! إنك لست كمن أعهد من الأهل والخلان ، والصحب والجيران ، إنك بديع زمنك ونسيج وحدك ، لَمِ لم أوفق إلى معرفتك قبل الآن ؟ فأقول لها سيدتى إسكندرة إندريفينا هدئى روعك ، لا تستثيرى أعصابك : سيمتعك الله بالصحة والعافية قريبا » . وكانت تأبى أن تتناول الدواء إلا من يدى ..فكانت ترفع بدنها الواهن المضنى بكل مشقة معتمدة على ذراعى ثم تتجرعه من راحتى وترنو إلىّ طويلا ... وإذ ذاك تتفتت كبدى وينفطر فؤادى .. وفى خلال ذلك كله كان الداء يزداد منها تمكنا وفيها تغلغلا ، وأقول لنفسى « واحرّ قلباه ! ستموت حقا لا ريب فيه ولا مشاحة » . ولا أكذب الله يا سيدى لوددت أن أموت فأقبر وتسلم هى وتبرأ ، ولو يقبل الفداء لفديتها بأهلى ومالى ونفسى ، ولو استطعت لخبأتها من غائلة المنون بين جوانحى وفى سويداء مهجتى .

« وفى خلال ذلك كانت أمها وأختاها يرقبننى ويستجلين شواهد الحال من عينى .. وقد بدأت ثقتهن بى تضمحل .

« فى ذات ليلة كنت جالسا مع العليلة ، ولم يكن فى الغرفة معنا سوى الخادمة – وكانت نائمة – وكانت المريضة فى تعب شديد منذ أول الليل لم تبرح تتقلب على فراشها وتتململ ، ثم أخذها النعاس بعد ذلك ، وكنت جالسا إلى جانبها تلعب بى بوادر الكرى ، ثم أخذتنى عينى فأغفيت ، ومالبثت أن شعرت بشىء يمس خاصرتى ، فالتفت فإذا العليلة إسكندرة أندريفينا ، تحملق فى وجهى ...وهى مفترة الشفتين ملتهبة الخدين ، فقلت لها ما بالك ؟ قالت : ترانى سأموت أيها الطبيب ؟ قلت : معاذ الله يا سيدتى . قالت « كلا أيها الطبيب لا تقل إنى سأعيش .. لا تقل

داك .. وآها لى ! ليتك تعلم خفية أمرى .. أنصت إلى ! ناشدتك الله لا تكذبنى ولا تخدعنى ، أما لو علمت علم اليقين أنى سأموت .. إذن لأطلعتك على كل شيء وحدثتك بكل شيء » قلت لها : على رسلك يا إسكندرة ولا تهيجن أعصابك . قالت : أصغ إلى .. إنى لم أكن نائمة كما حسبت ، ولكنى كنت أسترق إليك النظر .. فنبئنى بورك فيك عن حقيقة حالى ، وإنى أستحلفك بكل ما هو مقدس فى الوجود أن تصدقنى ، فإن على كلمة الحق التى ستفوه بها يتوقف أمر من أخطر أمورى . فخبرنى أيها الطبيب هل أنا فى خطر ؟ قلت لها : ماذا عسى أن أخبرك به يا إسكندرة إندريفينا ؟ قالت : سألتك الله ألا ما خبرتنى ، قلت : ما كنت لأكذبك يا سيدتى ، إنك حقا لفى خطر ، ولكن رحمة الله واسعة . قالت وقد ضاء وجهها على أثر هذا الجواب وأشرق كأنما سرها موقعه « سأموت ، سأموت ، والحمد لله ! » فتملكنى الرعب وظهر على أثره ، فقالت « لا ترع ، لا ترتع لست من الموت بخائفة ، حبذا الموت وحبذا قدومه » . ثم نهضت بغتة واتكأت على مرفقها وقالت « الآن ..الآن يمكننى أن أحدثك بكل شيء ، الآن أخبرك أنى شاكرة لك حسن صنيعك . وأنى .. أحبك ! فحددت إليها النظر كأنما أصابنى جنون ، لشد ما راعنى منها هذا الاعتراف وهالنى ، وأعادت هى « أتسمع ما أقول ؟ إنى أحبك ! » قلت لها مغالطا « سيدتى ، أنا لم أصنع ما أستحق عليه منك كل هذا .. » قالت « إنك لا تفهم غرضى ، إنك لا تفطن إلى مرمى كلامى .. » ثم مدت ذراعيها نحوى وهصرت بفودى رأسى وقبلتنى ثلاثا .. لقد كدت أصرخ من هذا الموقف .. وجثوت على ركبتى ودفنت رأسى فى ثنايا الوسادة ، ووجمت هى لا تتكلم ، ولكن أناملها كانت تعبث بشعرى . وأصغيت إليها فسمعت صوت بكائها فشرعت أنهنه من عبرتها وأسكن من لوعتها ، قائلا : « اربعى عليك ، وحاذرى أن توقظى الخادمة ، وحسبك يا إسكندرة إندريفينا ، لا يطلعن عليك أهلك وأنت على هذه الحال تفوهين بمثل هذه الكلم » .

قالت : « وماذا يهمنى إطلاع الأهل والأقارب والإخوان بل الناس جميعا على حالى ؟ وماذا أخاف وأخشى وإنى على حافة القبر ؟ أبعد الموت منزلة أدارى عليها

الناس وأداجى ؟ وماذا تخاف أنت وتخشى ؟ .. ارفع رأسك ، فيم استكانتك واستخذاؤك ، بل أراك لا تحبنى ، فإن كان ذلك كذلك فهب لى خطيئتى واعف عن زلتى » قلت لها « ماذا تقولين يا إسكندرة إندريفينا ، يمين الله إنى أحبك » فحملقت فى عينى وفتحت ذراعيها وقالت « إذن ضمنى إلى صدرك » ثم طوقتنى بذراعيها ضما والتزاما وأبت إطلاقى ، وقلت لها « مهلا ، إسكندرة إندريفينا ، ابق على وعى نفسك » قالت « وماذا عسى أن أخاف أو أحذر ؟ ألست راحلة إلى دار البقاء عاجلا ؟ ألست هالكة بعد هنيهة ؟ » وما برحت تردد هذه الكلمة « وأما لو علمت أنى مرتدة إلى الحياة وإلى سالف منزلتى الأدبية لخجلت أن أصنع ما أصنع الآن .. ولكنى ميتة .. » قلت « ومن قال إنك ستموتين ؟ » قالت « دعك من هذا التمويه لا تخدعنى فى نفسى ، بل أراك لا تحسن الخداع ولا تسبك الكذب ، انظر إلى وجهك فى المرآة تر الحق ناطقا على صفحته ، إنى ألمح نذير الحمام فى عينك » قلت لها بل لتعيشن بإذن الله يا إسكندرة إندريفينا ، ولأشفينك من علتك ، ولأتزوجن بك ، وليثلجن صدر أمك بقراننا السعيد ولتقرن عينها » قالت « كلا بل لأموتن عاجلا ، لقد وعدتنى ذلك وكان وعدك مقضيا » . وعلى مثل هذه الحال قضيت معها الليلة ، وانصرفت مطلع الفجر ، ولما عدت إليها ضحوة لم أكد أعرفها لشدة ما نكر المرض من صورتها . رحماك ربى . لقد رأيت الموتى تدفن أحسن منها حالا ومنظرا ، وتا الله لا أدرى كيف لم أمت من هول ما لقيت فى تلك المحنة ، ولا كيف استطعت أن أجتاز تلك الفترة التى كانت كبعض أودية الجحيم ، وتباطأ أجل الفتاة أربعة أيام وثلاث ليال بعد ذلك ، وأية ليال ! ماذا بثت إلىّ خلالها من نجوى الغرام والصبابة ؟ وفى تلك الليلة الأخيرة كنت جالسا إلى جانبها أدعو الله مبتهلا أن يتوفاها ويتوفانى معها ، ودخلت أمها بغتة وكنت أنبأتها باضمحلال الأمل . فما هو إلا أن بصرت العليلة بأمها حتى قالت « لقد أحسنت صنعا إذ جئت فى هذه اللحظة . انظرى إلينا يا أماه ، إنى أحبه ويحبنى وقد تواعدنا على الزواج وتعاهدنا ولم يبق إلا رضاك وقبولك » قالت الأم « ماذا تقول ؟ » فجمدت مكانى وكدت أصعق ، ثم قلت « وهذا من هذيان الحمى » ولكن الفتاة قاطعتنى قائلة : « مه !

مه ! لقد حدثتنى خلاف ذلك آنفا ، وقد أخذت خاتمى فما معنى هذا الرياء ؟ ..أتخاف والدتى وإنها لكريمة بارة ، حاضرة الصفح واسعة الغفران ؟ هذا وإنى لراحلة ، وما كنت لأكذب على الله وأنا على وشك لقائه ! أعطنى يدك ! » .

لا أطيل عليك القول ، لقد أسلمت الروح فى غد تلك الليلة ، أسكنها الله فسيح جناته .

وقبيل وفاتها سألت أهلها أن ينصرفوا ويتركونى معها فى خلوة .

وقالت لى « اغفر لى ما أتيت إليك من زلة ، واعزه إلى العلة ، ولكن تيقن أنى لم أحبب أحدا قط كما أحببتك .. لا تنسنى احتفظ بخاتمى » .

هنا أدار الطبيب وجهه ونظرت إليه فإذا هو يبكى ..

فأخذت يده يدى مواساة وعزاء .

عيد الميلاد

(الطفل الشحاذ)

كان طفلا صغيرا فى السادسة من عمره أو أقل ، وقد هب من منامه صباحا فى حجرة ضيقة مظلمة رطبة قارة ، وكان عليه جلباب رث ممزق ، وإن زمهرير الشتاء ليقضقض أنيابه ويرعد مفاصله ، وأنفاسه تنبعث من فمه أبخرة بيضاء . وجلس على حافة صندوق قديم وأقبل يلهو بإرسال أنفاسه المتكاثفة البيضاء يلذه انطلاقها ثم اختفاؤها — ولكن هذه اللذة الوقتية الوهمية كان يتخللها لذعات جمرة الجوع تتأجج فى أحشائه — لقد جعل فى خلال ذلك النهار يذهب مرارا إلى فرشة قذرة بالية ببعض أركان الحجرة ، تضطجع عليها أمه المسكينة العليلة ..

ما الذى جاء بها إلى هذا المكان ؟ ..لعلها أتت بغلامها من بعض قرى الريف ، حيث ألحت عليها الفاقة والمسكنة فأقحمتها تلك المدينة لالتماس الرزق فنزلت بهذه الحجرة ، ثم لبثت أن أعتلت .

وكانت ربة المنزل تؤجر حجرات بيتها المظلم المتهدم إلى المساكين وأبناء السبيل وأهل الفاقة والعسر ، لرخص أجورها . وكانت قد سيقت إلى مركز البوليس منذ يومين ، فانتهزها معظم السكان فرصة يتقون بها الدفع فهربوا ، ولم يبق إلا رجل سكير قد طاب له أن يبادر عيد الميلاد باللهو فسكر سكرة ما برح من صدمة حمياها مع الأموات منذ أربع وعشرين ساعة ، وفى حجرة أخرى عجوز فى الثمانين كانت فى سالف الأزمان مرضعا ، وقد أخنى عليها الدهر وتركها تموت منفردة وحيدة تواصل الأنين من آلام الروماتزم ، وكانت لا تزال تزجر الطفل الصغير وتنهره كلما دنا من باب حجرتها حتى أخافته فتحاماها .

لقد أصاب الطفل فى ردهة النزل من ماء الجرة ماأطفأ به غلته ، ولكنه لم يجد من الزاد ما يمسك به من رمقه ، وقد حاول مرارا أن يوقظ أمة ولم يفلح ، وأخيرا بدأ يخاف الظلام المتكاثف إذ غابت الشمس ولم يشعل المصباح إنسان .

وأقبل الطفل فى سدفة الظلام يتلمس وجه أمه ويجسه بيديه ، وتعجب كيف لا تتحرك وقد عاد جسدها أبرد من الجدار ، وقال فى نفسه ما أشد البرد فى هذه الحجرة ! ثم وقف برهة مطرقا واجما وقد نسي أن يرفع كفه عن كاهل أمه الميتة ، ثم إنه انثنى عن الجثة الهامدة وأقبل على أصابعه الصغيرة ينفخ عليها لبدفئها ، ثم تلمس قلنسوته البالية فى أركان الحجرة فلبسها وغادر المكان . لقد كان بوده أن يتركه قبل ذلك بمراحل ، ولكن منعه من هذا هرير كلب بشع على باب حجرة مجاورة كان ينخب أحشاءه بشدة نباحه وعوائه ، فما هو إلا أن ذهب حتى انطلق الغلام .

ولما صار فى طرقات المدينة هاله من ضجة ضوضائها وغرائب مناظرها ما هاله ، ولم يك أبصر المدن قط ، ياللعجب العجاب ! .. ما هذه الأنوار والأضواء ؟ — أليل أم نهار ؟ إن عهده بالليل فى موطنه الريفى ومسقط رأسه أن يكون مظلما فاحم الظلمة ، اللهم إلا ذبالة ضئيلة تزيد الظلام ظلاما ، وعهده بالطرقات فى قريته مقفرة من الأنس موحشة ، — وبالبيوت مرخاة السدول مغلقة النوافذ ، — وبالأهالى يحتجبون فى دورهم ويدعون السبل والطرقات للكلاب تعوى بها وتنبح الليل الطويل أفواجا ، مئات وآلافا ، ... على أن ذلك الريف كان خيرا له من هذه المدينة ، لقد كان واجدا فيه دفئا وقوتا ، أما ههنا فليس إلا القرة والجوع ، أما لو يمن الله عليه بكسرة من الخبز يابسة ! .. ثم ما هذه الأضواء اللامعة ، والأنوار الساطعة ، .. وهذا الهرج والمرج ، .. وهاتيك الجلبة واللجب والضوضاء ! .. وهذه الجموع المكتظة والجماهير المحتشدة وهذا الضغط والزحام ! .. المركبات المزخرفات والجياد الصافنات .. والبرد ، البرد القارس يخترق الجلد واللحم ويرسب فى العظام ، كحد الحسام ، أواه من البرد ؟ ..والأبخرة المتجمدة تنبعث من أشداق الخيل

سحبا كثافا ومن خياشيمها ، والجليد يستطير صفائح وشظايا تحت سنابكها تصطك بحصباء الطريق صلاله ..

ويالله من كية الجوع فى الأحشاء ولذعته ! .. ألا كسرة من رغيف تمسك من حشاشة نفس متساقطة ؟ ... وبدأت أصابعه الضئيلة تكابد أمض الألم ، ومر به رجل موسر فانصرف عنه زاويا وجهه كيلا يراه ..

وها هو ذا شارع آخر ، ما أوسع وما أفسح ! ..وما أسرع عدو هؤلاء الناس وأشد استباقهم وأعلى صياحهم ! .. وما أسطع هذا الضوء ! ما أشد لألاء هذا الضوء وخطفه للأبصار ! وما هذا الذى أراه ؟ .. نافذة عظيمة ! ..ووراء زجاجها ..شجرة (صناعية) عالية ... . تسمو صعدا إلى سقف المكان . هذه شجرة عيد الميلاد قد نيطت بها مصابيح شتى الأنوار والألوان ! .. وعلق عليها أفانين اللعب والتحف ، والنفائس والطرف ، والفاكهة والريحان ، والهدايا الملفوفة فى مفضض الأغلفة ومذهبها ، ناضرة الأوراق مفتحة الأكام ، دانية قطوفها من برتقال ككرات الذهب الزلال ، وتفاح كخدود الملاح ، ورمان كنواهد الحسان ، وعرائس فى الحلل القانية الزاهية ، وخيل مشرئبة سامية . وما هؤلاء الصبية المنبثون فى أرجاء الحجرة يضحكون فرحا ويثبون مرحا لاهين لاعبين فى رغد ونعيم من مطعم مرىء ، ومشرب هنيء ؟ وما هذه الصبية قد شرعت ترقص مع أحد الغلمان ؟ ..ما أحلاها وما أحلاه ! ..وإنك لتسمع عزفات الموسيقى من خلف الزجاج ! .. لقد سرت عدوى هذا السرور والطرب إلى فؤاد الطفل المعذب المسكين وهو ينظر إلى الأسرة المحبورة من وراء الزجاج ، فطفق هو أيضا يضحك مثلهم ، وعلم الله لقد كان الجوع يضرم حشاه ويحمى على كبده ، وكانت أطراف يديه وقدميه تكاد تسقط من وخزات القر ولذعاته ، وأحس فجأة فى أثناء ضحكه بآلامه وأوجاعه ، فشرع يبكى وينتحب وأقبل يعدو .

ولكن ما هذا ؟ .. هذا منظر أعجب وأغرب ، وخلف هذه النافذة شجرة أزهى وأزهر ، وثمت موائد ترزح تحت أعبائها الفادحة من الكعك والفطائر ، بين حمراء وصفراء ، محشوة باللوز والصنوبر والجوز ، وعلى الموائد أربع غانيات

في الحلي يحبون بهذه الطيبات كل وارد وصادر ، وباب البيت مفتوح على مصراعيه لكل طارق ، فخيل إلى الطفل البائس أنه لا بأس من دخوله هو أيضا ، فسما إلى الباب في رفق ولطف « سمو حبات الماء جاشت غواربه » ثم انسل منه كلمح البرق فصار وسط القوم ، يا لله .. !لقد صاح الكل صيحة كادت تشق سقف المكان شطرين ، وألاحوا بأيديهم كالمشمئزين المتأففين ،وبغض البعض فدفع في صدر الطفل يطرده ، ثم أقبلت عليه سيدة مسنة فدست في يده قرشا وساقته إلى خارج الدار . رحماك اللهم ! ..ما كان أشد ذعره ورعبه ! .. لقد سقط القرش من كفه فنزل رنانا ينحدر على درج السلم ، لقد كان البرد شنج أصابعه فلم يستطع ثنيها على القرش ، وانطلق يعدو راكبا رأسه لا يلوى على شيء ولا يدرى أيان يذهب ، لقد أحس كربة البؤس ولوعة اليأس ، وذاق مضاضة الوحدة والوحشة والانفراد والغربة ، وجعل ينفخ على أصابعه المتجمدة ليدفئها ويبكى . وبينا هو كذلك إذ أبصر مشهدا آخر أعجب مما سبق وأغرب – طائفة من الناس مزدحمة على نافذة تجلى عليهم من وراء زجاجها ثلاث عرائس من الشمع في حلل « من سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة » ..

وهذه العرائس تمثل ثلاث قيان يعزفن على الأوتار وهن يتلاحظن ويتغامزن ، ويملن الأعناق طربا ويحركن الأشداق إنشادا وشدوا ، ويخيل إليك أنهن يتغنين ولولا زجاج النافذة لسمعت أصواتهن ، وظن الطفل لأول وهلة أنهن أحياء ، فلما أدرك أنهن عرائس ضحك وقهقه ، ولا جرم فهو لم ير مثلها قط وما خطر بباله أن مثلها يحتمل أن يكون بحال ، لقد كان بحاجة إلى البكاء ولكنه ضحك برغم أنفه ، إذ كان منظر العرائس وعجيب حركاتهن مما يضحك الثكلى .

في هذه اللحظة أحس بيد تجذبه من ورائه ، فالتفت فإذا غلام وغد لئيم قد لطمه على جبينه ثم اختطف قلنسوته وفر هاربا ، فخر الطفل إلى الأرض صريعا . وتصايح الملأ وارتفع ضجيجهم سرورا وطربا ، ونهض الطفل إلى قدميه بعد جهد ، وإنه لينتفض خجلا ووجلا وقرة وخصرا ، وأقبل يعدو ثم يعدو كأن به لوثة جنون حتى أتى بابا فولجه وهو لا يكاد يدرى ما يفعل ، فأفضى إلى ساحة ألفى بها كومة

من الحطب فاستكن وراءها يفترش الثرى ، منكمشا متقبضا كالقنفد . وهنالك أحس بشيء من السلام والطمأنينة ، وألفى فى الظلام المخيم أمانا من خوف وأنسا من وحشة ، وقال فى نفسه : « أنا الآن فى عصمة من شر أولئك السفهاء » .

وكذلك استمر منقبضا متجمعا وراء تلك الكومة لا يكاد يمسك أنفاسه من الذعر ، ومالبث أن شعر بالراحة التامة ، فزال الألم من يديه ورجليه ، وأحس بالدفء كما لو كان جالسا إلى موقد صلاء ، ثم انتفض انتفاضة فجائية وكأنما قد أخذ النوم بمعاقد أجفانه ، ومرحبا بالنوم بعد طول الكد والإعياء ، وقال فى نفسه : « لآخذن بقسط وافر من النوم ثم لأذهبن فأجلون ناظرى بلذيذ منظر تلك العرائس ، ماأحلاها وماأجملها لكأنها والله حية تتكلم ! » ... .ثم خيل إليه كأنه يسمع صوت أمه تتغنى بتلك الأنشودة التى تستدرج بها الأمهات طيف النعاس لأطفالهن .

« النعاس النعاس ! .. ما أحلى النعاس ! » .

وبعد ذلك سمع صوتا رقيقا يهمس على كثب منه :

« ادن منى أيها الطفل واجن من شجرة الميلاد طيباتها ! » .

وظن أولا أنه صوت أمه تناديه ، ولكنه تبين بعد إصغاء أنه صوت آخر ، ترى من صاحب هذا الصوت ؟ ..إنه لا يراه ، ولكن يجس شخصا يحنو عليه فى الظلماء ويعتنقه ، ويمد الطفل يديه .. يا للعجب ! ما هذا النور الساطع ! .. أى طوفان من الضوء ينهمر انهمارا ويندفق اندفاقا .. وأى شجرة زاهرة باهرة ! .. وأين هو الآن ؟ ..وسط أضواء كوكبية اللألاء ، ومن حوله العشرات من العرائس البراقة ...عجبا ! عجبا إنها ليست بعرائس ، إنها صبية صغار مثله ، بين بنات وبنين ما شئت من حسن وحلاوة ، وبهجة وطلاوة ، صور ملاح ، ووجوه صباح ، والكل بين لاه ولاعب ، وممازج ومداعب ، وواثب وراقص ، ومقبل وناكص ، وجائل وصائل ، ثم أحدقوا به وأمطروه من شفاههم اللمياء وثغورهم الوضاحة وابلا ثرا من اللثمات ، ولم يألوه ضما وعناقا ، وأبصر أمه على كثب منه ترنو إليه بألحاظ من الفرح براقة .

وصاح بها يقول :

« أماه ! أماه ! ما ألذ المقام ههنا وما أطيبه ! » .

ثم أقبل على الأطفال باللثم والعناق ، وأراد أن يحدثهم حديث العرائس التى بصر بها فى تلك النافذة آنفة الذكر ، وناداهم قائلا :

« خبرونى بربكم أيها الأطفال من أنتم ومن أين جئتم ، وكيف كان لقاؤنا ههنا واجتماعنا ؟ » ..

وطفق يضحك وقلبه بالسرور ينبض ، وبالحب المفرط لأولئك الأطفال يخفق ..

فقالوا جميعا :

« هذه شجرة السيد المسيح ، ولا يزال السيد المسيح يعد مثل هذه الشجرة فى أعياد الميلاد لمن راح من الأطفال فى هذا العيد محروما » .

واتضح له أن كل أولئك الأطفال كانوا من طائفة البؤساء مثله ، فبعضهم كان ممن ألقى به رضيعا على أعتاب بيوت الناس فمات ثمت بردا وظمأ ، وبعضهم ممن هلك جوعا من الفاقة ، وبعضهم قضى قحطا وحرمانا فى الطرقات المثلوجة بعد خروجه من ملجأ اللقطاء عقب انقضاء مدته هنالك ، وبعضهم مات جوعا وعطشا على ثدى أمه اليابس ، وبعضهم أودى اختناقا فى مركبات القطار المزدحمة من فساد هوائها وخبثه ، ... . وها هم الآن قد صاروا كلهم ملائكة فى حضرة المسيح المقدسة ، شيعنه وصحابته ، وهو ذاته قائم وسطهم لا يألوهم حفاوة ، ولا إكراما ، يبارك فيهم وفى أمهاتهم البائسات الآثمات ، ... .وبناحية من المكان الأمهات ماثلات يبكين ، وكل واحدة تعرف بين الأطفال ابنها أو ابنتها ، وترى الأطفال يعدون سراعا إلى أمهاتهم فيقبلونهن ويمسحون دموعهن بأكفهم الصغيرة ، ويقولون لهن لا تبكين ولا تحزن فلقد جعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد ضيق فرجا ، وبعد شقوة سعادة .

وفى صبيحة تلك الليلة - ليلة عيد الميلاد - عثر البواب على جثة طفل صغير كان اختبأ وراء كومة من الحطب ، ثم هلك جوعا وبردا وتجمد جسده هنالك ، وعثر أيضا على أمه ... . لقد ماتت قبله ، ... . ثم تقابلا أمام عرش الله فى الملكوت الأعلى .

مصرع الشيخ

(الأمير وابنه)

كان فى القرون الغابرة ببلاد القرم أمير عليها اسمه « الخان على » وكان له ابن يدعى محمودا .

وكان ذلك الأمير شيخا هرما ولكنه كان صبا بالغانيات ، لديه منهن طائفة عديدة ، وكن يألفنه ويصفينه الحب والوداد لأنه كان على رغم شيخوخته لا يزال يحتفظ بجانب عظيم من قوة شبابه وحميا صباه ، وكان لا يزال طبا بما يستصبى الفتيات ، بصيرا بأساليب اللهو والغزل ، يعجب النساء ويطربهن بما يبديه فى مطايبتهن وملاطفتهن من حدة الشغف ونار الصبابة ، والنساء — أنار الله بصيرتك وألهمك الحكمة والصواب — إنما يروقهن من الرجال القوى المتين ، النارى المزاج الذى كأن غرامه دفاع الحريق ، ولو كان مغضن الوجه أشيب القذال ، ولا يروقهن الشاب الطرير ، إن كان مؤنث الشمائل مخنث الحركات . والجمال — رزقك الله الفطنة والأرب والذكاء — ليس فى نظر النساء هو الخد الأحمر الأسيل والبشرة الملساء ، وإنما القوة والبأس والهمة العلياء !

لقد كانت محاظى ذلك الأمير وسراريه يألفنه ويوددنه ، ولكنه كان يؤثر على سائر نسائه البالغ عددهن ثلاثمائة سرية من كافة الأجناس والأصناف ، غانية روسية الموطن ، سبية إحدى غاراته الشعواء التى كان لا يزال يشنها على بلاد الروس .

وكان كثير الخلوة بتلك الفتاة الروسية ، يمضى معها أطيب الأوقات فى برجه المشيد المطل على البحر ، حيث كان قد أعد لها كل ما تصبو إليه المرأة من لذائذ العيش ومتع الحياة — مناعم المطاعم ، ومطارب المشارب ، وبدائع

الطرف ، وروائع التحف ، وزخارف الحلى والزينة ، من شنوف وأقراط ، وعقود وقلائد ، وأساور وخلاخيل ودمالج ، وكرائم الجواهر ، من ماس وياقوت وجمان ، وزبرجد وفيروزج وعقيان ، وعجائب الحيوان ، من قردة وسنانير وغزلان ، وغرائب الطير من قمرية وببغاء وكروان ، — وأغلى وأنفس من كل هذه وأجل وأعظم ، ما كان يتحفها به من عواطف وجده المضطرم ، وزفرات غرامه المحتدم .

وكذلك فى حضرة تلك الغادة الهيفاء بالبرج المشيد ، كان الأمير ربما قضى الأيام العديدة يلهو ويلعب ترويحا للنفس من عناء الأعمال وتكاليف الحياة ، ملقيا شئون الإمارة على عاتق ابنه محمود ، واثقا بأنه إنما يسلم مقاليد الدولة إلى خير نهاض بأعبائها ، طب بأدوائها . وكان ابنه محمود عند ظنه به وأبعد ، فكان يواصل غارات أبيه على بلاد المسكوف وغزواته ، ويعود بالأسلاب والغنائم ضمنها السبايا الفاتنات مكللا بالمجد والفخار ، مخلفا وراءه فى بلاد الأعداء الخزى والعار ، والدمار البوار ، وآثار السيف والنار .

وعاد محمود ابن الأمير مرة من إحدى غاراته على بلاد المسكوف منصورا، فأقام أبوه احتفالا لتكريمه دعى إليه أعيان الدولة وسراتها ، ودارت كئوس الراح ، واصطكت الأقداح بالأقداح . وطاشت الأحلام وصدحت الأنغام ، وتجاوب مزهر وجران ، وتناشد الفرسان ، ملاحم الميدان ، ولما خالطت الرءوس ، حميا الكئوس ، وتمايلت القدود ، لحنين ناى وعود ، وذهبت العقار بالوقار ، هتف الوفود باسم الفارس محمود . فنهض الشيخ والده فحمد الله عز وجل ، وصلى على النبى وعلى آله وصحبه ، ثم وجه الخطاب إلى ولده محمود فقال :

« الحمد لله الذى أرانى حمية فتوتى فيك تتجدد ، وجمرة شبيبتى فى دمك الملتهب تتأجج وتتوقد ، وتالله ما باليت ولى غلام مثلك يرثني ويرث إمارتى ، أتمادى بى العمر فى هذا المعمور ، أم ضمنى اللحد بين الأجداث والقبور ؟ وما مات من كنت خليفته ، ولا غاب عن الوجود من أحييت فى الوجود ذكرته وأعدت سيرته ، فماذا تبتغى منى جزاء على هممك العلياء ، وشيمك الغراء ؟

سلنى ما تشاء » .

وما كاد الشيخ يتم كلماته حتى وثب الفارس محمود وثبة الليث من عرينه ، وعيناه تتوقدان كأنهما شعلتان ، ثم قال :

« والدى ! هبنى سريتك الروسية الحسناء ! » .

فخفقت أحشاء الشيخ خفقة انتفض لها جنانه ، ومشى لها قلبه فى صدره ، وأطرق مليا ريثما يربط نافر جأشه ثم رفع رأسه وقال :

« خذها ! متى انتهت هذه الحفلة فخذها ! » .

فبرقت أسرة الفارس محمود سرورا ، وتلألأ الفرح فى وميض مقلتيه ، ثم نصب قامته وخاطب أباه قائلا :

« والدى وأميرى ومليكى ! شد ما أثقلت كاهلى بهذه المنة التى تجل عن الحصر والإحصاء ، وتسمو عن متناول الحمد والثناء ، وما أنا وأيم الحق إلا عبدك وملك يمينك ، ونفسى فداك وروحى رهينة أدنى إشارة منك ، فمرنى أبذلها فى أيسر ما تشاء ، ومرنى أمت فى سبيلك ألف موتة ! » .

« لا أريد منك شيئا » . بذلك نطق الشيخ ونكس على صدره رأسه الهرم المجلل بالشيب والوقار ، المكلل بكل طارف وتليد من تيجان المجد والفخار .

ولما انفضت الحفلة خرج الأمير ونجله إلى العراء وسارا صامتين مطرقين ، وبعد برهة قال الأمير :

« أرى ماء الحياة فى بدنى لا يزال ينضب وينضب على توالى الأيام ، وأرى عودى يجف ويذوى ويزداد على مر الساعات جفافا وذواء ، وأرى حرارة حواسى تخبو وتبرد ، ووقدة دمى تفتر وتخمد ، ولقد كان لى فى هذه الفتاة الروسية وفى شدة عطفها على وحنانها منبع أنس وصفاء يفيض على مهجتى سرورا وطربا ، ويشعل جذوة الحياة فى كيانى كلما كاد يطفئها الوهن والهرم ، ويودى بها الفناء والعدم ، فخبرنى يابنى ، أحقا تجد فى نفسك بها كل هذا الوجد ، وتحتاج إليها كل هذه الحاجة ؟ فمالك لا تدعها لى وتأخذ بها مائة من أجمل نسائى ؟ » .

فأرسل الفارس محمود من أعماق صدره زفرة حارة مديدة ، واستمر على صمته وإطراقه .

وكان الظلام حالكا متكاثفا ، وقد خفى القمر والكواكب تحت أصفق حجاب من السحاب .

وقال الأمير على :

« ما أحسب إلا أنه قد دنا أجلى ، وأوشك أن ينعانى النعاة ، وكأنى والله هامة اليوم أوغد . أجل : إنه لم يبق لى فى هذه الحياة إلا أيام معدودة ، وهذه الغادة الروسية هى أخرى متعات عمرى ، وحسنات دهرى ، هى سؤر كاسى وآخر ذبالة فى نبراسى ، وهى البقية الباقية من زادى وذخيرتى ، وآخر سهم فى كنانتى . إنها لتعرفنى وتفهمنى وتحبنى ، فمن يخلفها على إذا فقدتها ؟ من لى إن خلت منها يدى وعينى – من يسد مكانها ويغنى غناءها ؟ من لى – إن سلبتها – بالخل الوفى ، والخدن الصفى ، والحميم الولى ؟ من لى بالصاحب الصديق ، والحدب الشفيق ، والحبيب الألوف ، والودود الرءوف ؟ من لى بكل ذلك وأنا الشيخ الهرم ، الواهن المتهدم ، من لى ، ثم من لى ؟

كل ذلك والفارس محمود صامت مطرق لا يفوه ببنت شفة .

واسترسل الشيخ الأمير قال :

« وكيف يطيب لى عيش ويلذ لى فى هذه الحياة مقام ، وأنا أعلم أنك بها تلتذ وتستمتع وأنها تلثمك وتضمك ؟ ولتعلمن يابنى أنى وإياك – إزاء المرأة – لسنا بالولد والوالد كما تعهد ، كلا لا والد ولا مولود فى سبيل المرأة بل القرن والقرن ، والنظير والنظير ، والمزاحم والمزاحم ! إنما نحن من حول المرأة الوحوش الضارية ، والسباع العادية ، والذئاب العاوية ! واها ! واها ! ليت جراحى القديمة التى تعم ندوبها وآثارها جسدى ، قد نكثت جميعا فطفقت تفيض بدمائى حتى أموت . ليت صباح الغد لا يطلع منى إلا على جثة هامدة ، وجمرة خامدة ! » .

لبث الفارس محمود واجما مطرقا .

ثم انتهيا إلى باب الحريم ، ولبثا بإزائه صامتين منكسين برهة طويلة ، تلفهما حنادس الليل البهيم ، والسحب فى ميادين الخضراء تتسابق من فوق رأسيهما وتتبارى ، والرياح تعزف على أفنان الدوح وتتغنى .

وقال محمود فى خفوت :

« أبتاه ! لقد طالما أحببتها وهمت فيها صبابة » .

قال أبوه :

« أعلم ذلك ، وأعلم أيضا أنها لا تحبك » .

قال محمود :

أبتاه ! إنى كلما ذكرتها ذاب قلبى شوقا وتقطر لوعة ووجداً » ..

قال الشيخ :

« وما بى والله من حرقة الجوى ونار الهيام ، أشد مما بك وأبرح » .

ثم عاودا السكوت والإطراق ، وتنهد محمود وقال :

« والآن تبين لى صدق ما قال الحكماء فى المرأة ، من أنها خدعة الشيطان وآفة الإنسان ، وأنها مدعاة الهموم ومنفاة النعيم ، ومبددة شمل الخلان والألاف ، ومازجة كأس النصاف بالسم الزعاف » .

قال الشيخ :

« إنك لتنثر لآلىء الحكم والأمثال ، وهيهات لا تداوى الحكمة داء سببته النساء ، ولا تأسو الفلسفة جراح الأعين النجلاء » .

قال الفتى :

أبتاه ! جدير بنا أن نتراحم ونتعاطف . أجل ، ومن الجميل تعاطف العشاق ، فارحمنى أرحمك يا أبتاه ! » .

فرفع الأمير رأسه ونظر إلى ابنه نظرة ملؤها الحزن والأسف ، وقال :

« لا أعرف من حيلة سوى قتل الفتاة » .

قال محمود :

« فلنقتلنها إذن ! » .

فأطرق الشيخ مليا ، ثم رفع رأسه وقال :

« إنك لتحب نفسك أكثر ما تحبها » .

قال الفتى :

« أجل وأنت فى ذلك مثلى » .

وعاودا السكوت . ثم قال الفارس محمود :

« ألا تزال ترى معى وجوب إعدامها ؟ » .

قال الشيخ حيران ولهان ، قد دلهه الوجد وخيله الجوى :

« مهما يكن من الأمر لن أمنحكها . لن أقدمها إليك بيدى » .

قال الفتى :

« وأنا لا أستطيع بعد ذلك صبرا ، لقد بلغ السيل الزبى . فانتزع مهجتى من بين أحشائى ، وإلا فاعطنيها » .

أطرق الشيخ واجما ، وقال الفتى :

« فلنقذفن بها فى غمار البحر من فوق هذه الصخور » .

فأجاب الشيخ كالذاهب العازب اللب مرددا كلمات ابنه كالصدى :

« لنقذفن بها فى غمار البحر من فوق هذه الصخور » .

ثم دخلا الحريم فصعدا إلى مقصورة الغادة الروسية فألفياها راقدة على فراشها ، فوقفا على رأسها وأدمنا إليها النظر ، وتحدرت دموع الشيخ على لحيته البيضاء كأنها الدرر اليتامى ، وفرادى اللؤلؤ المنثور والتؤامى ، والفارس محمود تأنج مقلتاه، وتقذف بالشرر ألحاظه ، ويحرق نابه غيظا وحنقا ، ويحاول جهده كتمان وجده المتسعر ولظى هيامه ، ثم عمد إلى الغادة فأيقظها .

وهبت الحسناء من سنتها وضاحة الجبين ، مكحولة العينين بالسحر المبين ، ولم نبصر الفتى محمودا وإنما أبصرت الشيخ فاشرأبت إليه تجلو عليه من شفتيها أبهى عقيقتين ، ومن وجنتيها أشهى تفاحتين ، ثم قالت للأمير :

« قبلنى يا ليثى الغضنفر ، ويا نسرى الطماح ! » .

فقال لها الشيخ برفق وحنان :

« انهضى وسيرى معنا » .

وإذ ذاك أبصرت الفتى محمودا ، وشاهدت فيض مدامع الأمير ، فأدركت ما هنالك .

وقالت :

« إنى اتية ، اتية لا إليك ولا إليه ، أهكذا قررتما فيما بينكما مصيرى ؟ ذلك وأيم الله قرار القلوب الجلدة القوية ! إنى لآتية » .

وذهب الثلاثة إلى البحر فى هدوء وصمت ، وكانت الريح تصيح وتعول .

كانت الفتاة – كشأن كل حسناء هيفاء – ضعيفة الأسر واهنة ، فسرعان ما كلت وأعيت ، ولكن الكبرياء والشمم والعزة منعتها أن تعلن كلالها ، فواصلت المسير على مضض .

ولما رأى الفتى تباطؤها من خلفهما قال لها مابالك ؟ أتخافين ؟ » .

فبرقت عيناها وأرته قدميها تدميان .

فمد إليها الفتى دراعيه وقال :

« هلمى إلى أحملك » . ولكنها طوقت حبيبها الشيخ الهرم بذراعيها ، وحملها الشيخ كأنها فى يديه ريشة ومضى بها ، وجعلت تدفع أغصان الشجر عن وجهه تفسح له مجال السير ، خشية أن يناله من قضبانها وأشواكها أذى ، وبعد طول الكد والنصب والجهد الجهيد ، دنوا من البحر وسمعوا جرجرة أمواجه ، وهنا قال الفارس محمود ، وكان يسير خلف أبيه : « اسمع يا والدى ! تأخر ودعنى أسر أمامك ، فإنى أخاف أن يدفعنى جنون الحب إلى أن أطعنك بخنجرى هذا فى قفاك » .

فقال له الشيخ :

« تقدم إذا ، نفذ الله فىّ ما حدثتك به نفسك الصبة ، وفؤادك الولهان ، وإلا فغفر لك غفرانا واسعا ، وليفعل الله ما يشاء . إنى ، وربك ، لغافر لك

صافح ، فإني أعرف ما يجده العاشق الملتاع ويكابده ، وأعرف إلى أى حد يدفع الحب أسيره » .

وأخيرا بلغوا الساحل وامتد أمامهم البحر حالك العباب مرهوبا ، تتغنى أمواجه السوداء غناءها الحزين وتئن أنينا !

وأقبل الأمير على الفتاة فقبلها وقال لها :

« وداعا ! وداعا » .

وانحنى لها الفارس محمود تحية وقال لها :

« وداعا ! وداعا » .

ونظرت الفتاة إلى الموج المصطفق المتلاطم وانثنت مرتدة مجفلة ، وضمت إلى صدرها يديها وقالت :

« اقذفا بى فى حومة العباب ! » .

فمد الفارس محمود نحوها يديه وتنفس الصعداء ، ولكن الشيخ سبقه إليها فاحتضنها وضمها إلى صدره بقوة وحرارة ثم قبلها ، وبعد ذلك رفعها فوق هامته وقذف بها فى التيار من وراء الصخرة .

وكان الموج من تحتها يهدر ويجرجر ، ويجلجل ويزمجر ، وقد تناهى اصطخابه وضجيجه فلم يسمع الرجلان صوت مصرع الفتاة إذ لم يصل إلى آذانهما جرس ولا صيحة ، وخر الشيخ إلى الصخور من خور وطفق ينظر صامتا فى أعماق الليل البهيم ، ولبث ابنه قائما على رأسه ساترا وجهه بيديه ، مسلوب النطق والحركة كأنه صخرة صماء ، وعلى هذه الحال لبثا برهة طويلة .

وأخيرا قال محمود :

« هلم بنا القصر يا أبى » .

قال الشيخ ، وكأنما يستمع إلى شىء يرهف له أذنيه :

« تمهل ! تمهل » .

ومر الوقت فى منسربه ، وضج الموج فى مضطربه ، وعج العباب فى مصطفقه، وعصف الإعصار فى منخرقه ، وطلا الليل جوانب الكون بمداد ،

وألبس الديجور ثكلى الطبيعة ثوب حداد

وقال محمود لأبيه :

« هلم يا أبت إلى القصر » .

فأجابه الشيخ :

رويدا ، رويدا ، انتظر هنيهة » .

وكم نادى الفتى أباه فقال « يا أبت ! هلم بنا إلى القصر » والشيخ صامت مطرق لا يجد عند نفسه الصبر على فراق المكان الذى فيه فقد عماد وهنه وشيخوخته ، وأنس وحدته ووحشته ، ومتعة البقية الباقية من مدته .

بيد أنه ما زال لكل شىء غاية ، ولكل حدث نهاية ، لقد نهض الشيخ أخيرا حمى الأنف مستكبرا ، ثم عبس وتولى .

ولكنه وقف بعد خطوات وقال :

« أيان أذهب الآن وعلام ؟ وما حياتى بعدها ، ولقد كانت حياتى ؟ ومأأحسب أنى واجد منها فى سائر النساء بديلا ، ولن ألقى من بعدها من يصفينى الحب والوداد ، وما بقاء الإنسان فى الدنيا إن خلت ممن يألفه ويهواه ! » .

قال الفتى :

« حسبك فى الطارف والتلاد من حسبك ومجدك وفخارك أنسا وغبطة ونعيما ! » .

قال الشيخ :

« ألا ليت لى بكل ما ذكرت من المجد والسؤدد والفخار لثمة من شفتها اللمياء ، ونظرة من عينها الحوراء ، وما السؤدد والمجد والحسب إلا زور ، وباطل وغرور ، وأوهام واهم ، وأحلام نائم ، والحقيقة الوحيدة فى هذه الحياة هى الحب ، وما الحياة بلا حب إلا العدم بعينه ، من عاش بلا حبيب يمزج بروحه روحه كان خليقا أن يعد فى الموتى ، وداعا يا ولدى بارك الله فيك وعليك وحواليك » .

ثم استقبل البحر وصاح الفتى :

« أبى ! أبى ! » .

ولم يقل خلاف ذلك شيئا ، وما عساك تقول لرجل أصبح يرتاح للموت ارتياح الظمآن للزلال ، ويرى فى الهلاك قاصية المنى والآمال ؟

وقال الشيخ :

« دعنى أرحل ! » .

قال الفتى :

« الله أكبر ! » .

وأجاب الشيخ قائلا :

« سبحانه جل شأنه ، إنه يعلم وسواه لا يعلم » .

ثم هرع إلى الصخرة فألقى بنفسه من ذؤابتها فى حومة الخضم ولفرط سرعته لم يستطع منعه غلامه ، ولم يرتفع لمصرعه ومهواه جرس ولانبأة ، ولم يسمع سوى هدير الموج وعزيف الريح .

وأشرف الفتى من ذروة الصخرة على الماء .

وقال بصوت مسموع :

« اللهم هبنى مثل ذلك الجنان الشهم الجرىء ! » .

ثم انقلب إلى مأواه من ساعته .

كذلك هلك الأمير على ، وخلفه ابنه محمود على أريكة القرم .

الفهرس

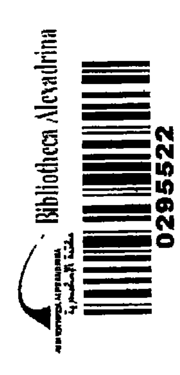


رقم الإيداع ٣٨١٣ / ٩٤

L . s . B . N: ٩٧٧ - ١١ - ٥٨٥٥ - ٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٠٠ قرش